

23 + 9

51

ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبق
منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنّة الطرب
به . وما أذكر أنني نظرت في شيء من ذلك لأحشوه به
حافضتي ، أو أستعين به على تهذيب ياتي ، أو تقويم لساني ،
أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب ، بل كل ما كان من
أمرى أنني كنت امرأة أحب الجبال وأفتن به كلما رأيته
في صورة الانسان ، أو مطلع البدر ، أو مغرب الشمس ،
أو هجمة الليل . أو يقظة الفجر ، أو قم الجبال ، أو سفوح
التلال ، أو شواطئ الأنهار ، أو أمواج البحار ، أو نعمة
الغناء ، أو رنة الحذاء ، أو مجتمع الأطيّار ، أو متثر
الأزهار ، أو رقة الحس ، أو عذوبة النفس ، أو يد
شعر . أو قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان
مرّة فاذا لاح لي زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق
في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة الممجب بها
الحنى عليها المستهتر بحسن تكوينها واشراق منظرها من

حيثُ لا أريدُ اقتطافها ، أو إزاجها من مكانها ، ثم أتركها
حيثُ هي وقد علقتُ بنفسى صورتها إلى أخرى غيرها ،
وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفسى تطير سروراً
به ، وتسيل وجداً عليه ، وما هو إلا أن درتُ يعض تلك
الرياض بعض دورات ، ووقفت يعض أزهارها بضع
وقفات ، حتى شعرتُ أنى قد بدلتُ من نفسى نفساً
غيرها ، وأن بين جنبيّ حلاً غريبة لا عهد لى بتلها من قبل ،
فأصبحتُ أرى الأشياء بعين غير التى كنتُ أراها بها ،
وأرى فيها من الملقى الثرية المؤثرة ما علا العين حسناً ،
والنفس بهجة ، فقد كنتُ أرى الناس فرأيتُ نفوسهم ،
وأرى الجمال فرأيتُ لبه وجوهه ، وأرى الخير فرأيتُ
حسنه ، وأرى الشر فرأيتُ قبحه ، وأرى النماء فرأيتُ
ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيتُ مدامها ، وأرى العيون
فرأيتُ السحر الكامن فى محاجرها ، وأرى الثغور فرأيتُ
الحمر المترقة بين ثناياها ، وكنتُ أرى الشمس فرأيتُ

خيوطها الفضية لرائقة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت
شعاعه يُهم أن يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر
فرأيت ياضه وهو يدب في تجاليد^(١) الظلام ديب
الشتب في تجاليد الشلب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها
التحية تطل على الكون من فروج قيص الليل ، وأرى
الليل فرأيت وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الأرض
هُوى الكرى إلى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه
فسمعت مناجاتها ، وخيف الأوراق فقهمت نغماتها ، وتريد
الأطيار ففرت لغاتها ، فأحييت الأدب حيا جأ ملا ما بين
جانحي فلم تكن ساعة من الساعات أحب إلى ولا آثر
عندي من ساعة أخلو فيها بنفسى وأمسك على بلبي ثم أسلم
نفسى إلى كتابي فيخيل إلى أنى قد انتقلت من هذا العالم
الذى أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ العابر ، فأشاهد
بمبنى تلك العصور الجميلة عصور العرية الأولى ، وأرى

العرب في جاهليتها- بين خيامها وأخيتها ، - وأطانيها
وأعوادها ، وإبلها وشاتها ، وشيعها وقيصومها ، وأرى
مساجلاتها ومتافراتها ، وجبها وغرامها ، وعفتها ووقاءها ،
وصبرها وبلاها ، وحداها وغنامها ، وأسواق شمراتها ،
ومواقف خطبتها ، وققرها وإقلاها ، وشحوب وجوهها ،
وصرة ألواتها ، وضوى أجسامها ، وترددها في يديها بين
حمارة^(١) القيف وصيارة^(٢) البرد ، وتنقلها من صحراء إلى
ريف ، ومن مَشَى إلى مصيف ، ومن نجد إلى رهد ، ومن
شرف إلى غور ، واتجاجعها مواقع النيث ، ومنابت المشب ،
وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وصاب اللبن واضوع
الشعير ، فاذا جد الجد أكلت القد^(٣) واشتوت الجلد ،
وتبلنت بالضب واليربوع ، وعرافيب الآبال ، وأظلاف
الأبقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرايس
وأردية الأشعار ، وقمصى الأوبار ، فاذا اعوزها ذلك لبست

(١) شدة الحر (٢) شدة البرد (٣) الجريد من جد

الظل ، واقترشت الرمل ، غير ناقة ولا ساخطة ، ولا متبرمة
 بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية
 حظها من رضاء الميث ولينه ، ثم أراها بمد ذلك وقد أنعم الله
 عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رعدَ عيشها ، ولين طعامها ،
 واعتشوشلَبَ جاتِها ، وعنوبة مواردها ومصادرِها ،
 وسرورها وغبطتها بما آفأ الله عليها من ذخائر القرس وأعلاق
 الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ
 المنشور من الولدان ، وأرى عجائسَ غنائها ، ومجامع أنسها ،
 ومسارح لهوها ، ومجالات سيقها ، وملاعب جياها ،
 ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وزدحام شعرائها على
 أبواب أمرائها ، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها ،
 وفخلاق تُستبها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط
 ونعازف ونمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف ،
 وتوان نصمه حلوه وحامضه ، وأصناف الشراب حلاله
 وحرامه . ولصُورِ المحلقة في الأجواء ، والسفن الفاذهة

في الدأماء^(١) ، والرياض الخضراء ، والغابات الشجراء ،
والقصور وتماثيلها ، والبحيرات وأسمائها ، والأنهار
وتشواضها ، والأزهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ،
وديبب الحب في القلب ، والثناء في السمع ، والصبياء
في الأعضاء ، وخلجة الشك ، ولحمة الفكر ، وبارقة المنى ،
ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذياً ، أو أدباً غصاً ،
أوجباً وفيّاً ، أو مجوناً مستظرفاً ، أو حوَّاراً مستملحاً ، إلا
وجدته ، ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما
يحذو به الحادي في أعقاب إبله ، وما يتخنى به العاشق ، وما
يهنئ به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به
الماتح^(٢) إلا سمعته ، ولا أن أعلم ما يهجن في نفس الضب
إذا اشتعل عليه ليله ، والحائر إذا ضل به سبيله ، والثاقل
إذا فُجعت بواحدتها ، والموقور إذا حيل بينه وبين وآثره ،
والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء .

(١) الدأماء البحر (٢) متجسس عن لئ

دراسى يند لهو الحياة ولمها ، فكنت لا أستطيع أن ألم
بكتابي إلا فى الساعة التى آمن فيها على نفسى أن يلما
بأمرى ، وقليل ما كنت أجدها ، وكثيراً ما كانوا يهجمون
منى على ما لا يحبون ، فإذا عثروا فى خزانتي أو تحت وسادتي
أو بين لقائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل
اليهم أنهم قد ظفروا بالدينار فى حقيبة السارق ، أو الزجاجة
فى جيب الغلام ، أو المشيق فى خدر الفتاة ، فأجد من
البلاء بهم ، والنقص بمكانهم ، ما لا يحتمل مثله مثلى ، وهم
لا يعلمون أحسن الله اليهم أنهم وجميع من يدور به جدار
مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذى يقومون منه
ما يقومون ، ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشرى ،
فولاً لأدب ما استطاع أنهم المجتهدون فهم آيات الكتاب
منزلاً ولا سنبط تلك الأحكام التى دونوها لهم وتركوها
بين يديهم يستغنونها كما يستغل المالك ضيعته ، ويعيشون
فى ضب عيش سعداء مترفين ، ولولاه لما استطاع علماءهم

اللغويون أن يورثهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون
اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ويدبرون
بتكلمهم منها على الناس جميعاً ، كما لا يعلمون أن الأدب هو
خير ما يستعين به متعلم على علم ، وأن التوق الأدبي الذي
يستفيدة المتأدب من دراسة الأدب ومزاويلته هو الميزان
الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأسانيها ،
والدليل الذي يتسمته وترسم مواقع أقدمه في فهم أصول
الدين ليكون مجتهداً استطاع أو واقفاً على متازع المجتهدين ،
واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها
وأقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلم نافعاً ،
ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه
وم أئمه والحمد لله قليل بل هم في ضيق الفتاة والافتقار قد
تعلقوا منه بما كان يتعلق به سلاقتهم وأنتهم من قبل لنالوا
به في دينهم خيراً كثيراً ، ولا استدفعوا به عن أنفسهم في أمره
شراً عظيماً ، فما زال الدين واضح المنهج قائم الخطى وما زالت

أَكَلْتُ الْكِتَابَ وَمَتُونُ الْأَحَادِيثِ سَائِفَةٌ هَنِئَةً لَا يَلْحَقُهَا
الرَّبُّ وَلَا يَحِيطُ بِهَا الشُّكُّ وَلَا تَطِيرُ بِجَنَبَتِهَا الْأَوْهَامُ
وَالظُّنُونُ حَتَّى جَهَلَ عِلْمَاءُ الدِّينِ الْأَدَبَ فَفَسَدَتْ أَخْوَاقُهُمْ ،
وَضَلَّتْ أَفْهَامُهُمْ ، فَكَثُرَ بَيْنَهُمُ التَّأْوِيلُ وَالتَّخْرِيجُ ، وَوَهَتْ
تِلْكَ الْعَقْدَةُ الرَّيْقَةُ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي ، وَاسْتَرَخَتْ عِزَّهَا
مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَاصْبَحَ كُلُّ لَفْظٍ فِي نَظَرِهِمْ مُحْتَمَلًا لِكُلِّ مَعْنَى حَتَّى
مَا يَأْتِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ شَيْئًا ، وَتَهَافَّتَ ذَلِكَ الْحَاجِزُ
الْحَصِينُ الَّذِي كَانَ قَائِمًا بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْحَقِيقَةُ
وَالْخَيَالُ ، فَبْنَى بِمَعْنَى الْكَلِمِ عَلَى بَعْضِ وَعَاثَ كُلُّ مُنْهَمَا فِي تَرْبَةِ
صَاحِبِهِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا ، وَجِبَّةً وَذَهَابًا ، وَصُعُودًا وَزُورًا ،
فَاسْتَطَاعَ الْوَاضِعُونَ فِي الدِّينِ وَالنَّاصِبُونَ لَهُ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِ
مِنْ الْأَحَادِيثِ الْمُنْحَوِلَةِ الْغَرِيبَةِ فِي أَسَالِيهَا وَمَنَاهَجِهَا عَنْ
مَنَاهِجِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيهِمْ مَا لَا يَضْبِطُهُ الْحِسَابُ كَثْرَةً
فَهَلَكَتِ الْأُمَّةُ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ هُلُكًا لَا تَزَالُ تَجْرِعُ كَأَسَسِهِ
الْمَرِيرَةِ حَتَّى الْيَوْمِ

فالحمد لله أولاً وللأدب ثانياً على نجاحي منهم فيما كانوا
يُرومون بي ، ويحاولون مني ، بل أحمد الله إليهم كذلك
فقد كُفيت بسوء رأيهم في الأدب وتقمّتهم عليه شر من
يدخل بيني وبين نفسي في المفاصلة بين شاعر وشاعر ،
وكاتب وكاتب ، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وديباجة
وأخرى ، فلم يكن لي عونٌ على ذلك كله غير شعور نفسي
وخفوق قلبي خفقة السرور أو الألم إن مرُّ بي ما أحب
أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته من حيث
لا أعرف سبيل ذلك ولا مآته ، فكان شأني في ذلك شأن
السامع الطروب الذي تُطربه نعمة وتزعجه أخرى فيصير
بالأولى فرحاً ، وبالثانية جزعاً ، وقد يكون ضعيف الإلمام
بضرور الأيقاع وقواعد النظم ، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ،
ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم
من القوس فإذا هو في كبد الرمية ولها ، فإن رأيتُ أن
المنى قد قام دونه ستارٌ من التراكيب المتماثلة والأساليب

المتروكة، علمتُ أن القائل إما ضعيفُ المادة اللغوية فهو يسجز
عن الاقضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يُقضى به، وإما
جاهلٌ لم يستو له المعنى الذي يريد كل الاستواء ولم يدرْ
في جوانب نفسه حتى يستقرَّ في قراره منها، فهو يتوهمه
قويً ويجمعه جمعةً ويهني به هنيئاً، فلا سبيل له إلى
الافصاح عنه، وإما داهيةٌ تحتال قد علم أن المعنى الذي يحول
في نفسه ويتردد في خاطره تافهٌ مرذولٌ وكان لا بد له أن
ينفقه^(١) على الناس ويزخرفه لهم ويزوره^(٢) في أعينهم فهو
يكسوه أسلوباً غامضاً ليكدرهم ويجهدهم في سبيله حتى
يذخروا به بعد ذلك خيل اليهم أنهم قد ظفروا بمعنى
غريب، أو خاطرٌ بديع، وجدوا فيه عند الوصول إليه
من اللذة والتمتع ما يجد الظالم في ضحاضاح^(٣) الماء الكدر
؛ إذ بعد لثجمة في طلبة ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء،
وإما عاجزٌ ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضحفاء الأقدام

(١) ينقله - المقيد بجمعه - فقد رأى راجح (٢) زور لغيره حسنة وزخرفة

(٣) ضحاضح - الخليل في فمرثر

من الناس وم سواد الأمة ودهماؤها لا يرصون عن معنى
من المعاني ولا يستسنون^(١) قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا
إذا جاء في جللة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة ،
وأنهم إذا ورد عليهم أثنى المعاني وأغلاها ، وأكرمها
جوهراً ، وأطيبها عنصراً ، في ثوب من الأساليب الرقيقة
الشفافة ذهب بهم الوم إلى أنه ما جاء على هذه الصورة
إلا لأنه ساطع مبتذل ، أو سوق مطروق ، فاحتقروه
وإزدروه ، وكان يرى لضف حيلته وسقوط همته أن لا بد
له من موافقة رغبتهم وبلوغ رضاه ، والتزول على حكمهم ،
فتجمل لهم بالسكنة والبي ، وتعلقهم بالتموض والابهام ،
ولما أعجى^٢ يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو
لا يعرف منها غيرها فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما
يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية ،
فإن نعت عليه غرابة أسلوبه واستعجاله والتواءه على القهم

(١) لستى قيمته راعا سية رعية

كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن الماعاني المصرية
والجاليات الحديثة لا يستطيع إلباسها الأكسية البدوية،
والأردية المربية، كأنما هو يظن أن الماعاني والخواطر
يخضعون وقسماء، وأنصبة وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب،
وهذا للعرب وهذا للعجم، أما الحقيقة التي لأرب فيها فهي
أن الرجل لا ينزع تلك الماعاني من قرارة نفسه ولا يصور
فيها صورة عقله وإنما هو مترجم قد عثر بتلك الماعاني في اللغة
لأعجمية التي يمرها لاصقة بأوثابها الأصلية فلما أراد أن
يفضي به إلى العرب وكان غير مضطلع بلنتهم ولا
متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أوثابها اللاصقة
بها فتقها اليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف
ونمذ، آخر من حيث يظن أنه يهتف بشيء قلم في نفسه
ويفضي بخاضر من خواطر قلبه، ولما شحج يأتي له لوم
نفسه وخبت فضوته أن يمنح الناس منحة سائفة هنيئة
دون تكديرها عليهم بالمظل والتسويق والمدافعة والمحاولة،

والشحُّ خُلُقٌ إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه
 حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة
 حتى لا يجد فيه واجدٌ مصطنعاً ، ولا يظفر منه مُتصبرٌ
 بيلة ، فيضن بعلمه ، كما يضن بآله ، ويقبض لسانه عن
 النطق ، كما يقبض يده عن الاتفاق ، ويصرد^(١) عضاه
 نصريداً ليستديم حاجة الناس إليه ، كما يجمع كلبه ليتبعه ،
 ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، على المجزء والجاهلين ،
 والمحتالين والكاذبين . والأشعاه والباخين

وكان أشعرُ الشعراء عندي وأكتب الكتاب سوء
 في ذلك المتقدم والمتأخر والتابع والخامس أوصفها لحالات
 نفسه وتمر مشاهد لكون فيهِ وقدير عى تشيئ ذلك
 وتصويره للناس تصوير صحيح كأنما هو يحرصه على تصوير
 عرض ، أو يضعه في أيديهم وصمد ، فإن ضنفتُ ن لثدي
 كاذبٌ فيما يقول أو ته يرسم صورة غير الصورة التي
 تتلجج في نفسه ، وأنه لثقوى يفر من ضعف سواه وفساد

(١) صرد - صمد - صمد - صمد

فضمه إلى أكمة من الالفاظ الغريبة والتراكيب المستورة
 يكن ورامها ، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيية محتوها
 بالناسل لمصية والوقائع التاريخية حشواً ، أو مترجم
 ينقل من اللغة لأعجبية لى يعرفها آراء علماءها وخيالات
 شعرائها وكأنما هو صاحبها ، أو شعرت أنه قد قدر في نفسه
 وهو يكتب كانه أن يكون بليغا فيها أو مبدعا ليعجب
 الناس منها ، كان كل حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم
 ومنزله من الذكاء والفهم ، إن أحسن فيما يقول ، ولكنى
 لا أعمه كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل النزل عندي
 غزل العاشقين ، وأفضل الرثاء رثاء التاكليين ، وأبلى المدح
 مدح الشاكرين وأشرف المظلات عطلت المخلصين ، وأجل
 البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ،
 وبرع الوصف وصف الرائيين للمشاهدين

ولا أدري ما الذى كان يُعجِبُنِي في مطالعته من شعر
 الموم والأحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص

المحزونين والنكوتين خلعة ، فقد كان يمجنى كثيرا
ويُمكنى أسرَّ بكاء وأشجاء شقاء المهليل في الصنب بثار
أخيه ، وشقاء امرئ القيس في الطلب بثار آيه ، وبكاء
جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدى بن
زيد على نفسه في سجن النمان ، وبكاء متم بن خيرة على
أخيه مالك حتى دمعت عينه الموراه ، وبكاء ليلى بنت
طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله
ابن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذي يحين ،
وبكاء الشريف على المنافرة في خرائب الحيرة ، وبكاء أبي
عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على
بنى هاشم ، وبكاء العلى على بنى أمية ، وبكاء الرقاشى على
بنى برمك ، وذلك أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد
في سجنه ، وبكاء الوزير بن زيدون على نفسه مرة . وعلى
ولادة أخرى ، وبكاء ابن منافر على عبد الحميد . والبحترى
على المتوكل ، وابن البانة على ابن عباد ، والشمس على يزيد

ابن مزيد، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون
 المجنون بليلاء، وجلوسه في جنبات الحى منفرداً عارياً
 منهوب اللب مشترك العقل يهذى ويخطط في الأرض
 ويسب بالتراب . ثم هيمه بعد ذلك مع الوحش في البرية
 لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل، ولا يشرب إلا مع الظباء
 إذ وردت مناهلها، وراحته إلى الطريق يصعد مع مُصعديه،
 وينحدر مع مُنحدريه، حتى هلك في أرض مقشعة
 مغبرة بين الصخور والأحجار، وشقاء قبس بلبناه بعد
 أن طلقها براً بالده، وتزولا على حكمه، وذَهَابُ الحب به
 بعد ذلك كل منهب، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة
 ولوفاء للحب، وموقفُ جيل بن معمر بين يدي أبيه
 وهو يخطب عليه شد العتب وأمره في استهتاره بحب بُيئته
 ويخضرتة نفسه في لائمه بحبها فيقول: يا أبتِ هل رأيت
 من أحد مدرّ أن يدفع عن قبه هواه أو ملك أن يسلي
 نفسه أو يستضع أن يتقى ما قضى به عليه، والله لو

قدرتُ أن أحوذ كرها من قلبي أو أنزلَ شخصها من
عيني لَقَمْتُ ، ولكن لاسبيلَ إلى ذلك وإنا هو بلاءُ بيتِ به
لحينٍ قد أتيج لي وأنا أمتنع عن سُروقِ هذا الحى والالام
به ولو مت كدأ ، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاد
النبي صلى الله عليه وسلم عند ما سمع قيسَ بن عاصم يحدث
عن نفسه أنه كان يثد بناته في الجاهلية وأن واحدةً منهن
ولدتها أمها وهو في سفر فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها
على الموت وإشفاقاً عليها فلما عاد وسألها عن الجن قات له
إنها ولدت مولوداً ميتاً ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى
كبرت البنت ويصمت فزارتُها ذات يوم فرآها عندها
فأعجبَ بحالها وعقدتها وذكاها وسألها عن خدشها حديثها
عن وجهه وهُ تكلمه شيء ضمه في أن يضمها إليه
ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها ياماً ثم تغفل أمها عن
ذات يوم وخرجَ به إلى الصحراء حتى بُعد فاحترق
له حفرة وجعلها فيها فأخذت تموت : يا بُت ما تريد

تصنع بي؟ وما هذا الذي فعل؟ وهو يميل عليها التراب
ولا يلتفت إليها وهي تنن ويقول: أأتركك أنت يا أبت وحدي
في هذا المكان ومنصرف عني؟ حتى ولراها واقطع أنينها،
وبكاء الأعرابية التي مات منها ولها في دار غربة فدفعته
ثم وقفت على قبره تودعه وتقول: والله يا بني لقد غفوتك
رضيما، وفقدتك سريما، وكأن لم يكن بين الحالين مدة
ألتذ بيمشتك فيها فأصبحت بعد النضارة والنضارة ورووق
الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسدا
هامدا ورطانا سحيقا وصيدا جُرزا، اللهم إنك قد وهبته
في قرة عين فلم تمنني به كثيرا، بل سلبتني وشيكا، ثم
مُرّتنى بالصبر، ووعدتنى عليه الأجر، فصدقت وعليك،
ورضيت قضاء فاحرم اللهم غربته. وأنس وحشته،
وسر عورته. يوم تنكشف الهنات والسوات. وأشكّل
وُلدات! ما مهن حررة قلوبهن. وأقلق مضاجعهن،
وُصُول يمين. وفل نهن. وسُد وحشتهن، وأبعدهن

من السرور ، وأقربهن من الأحران ، وشقاء ذنك
 البائسين المنكوبين عروة بن حزام وغفراء بنت عقال
 ومناصة الحر لها واقطاع سبيله بهما حتى أصبحت
 زوجا لعميه وأصبح من بعدها هائلا غتبلا يرى بنفسه
 الرامى ويقذف بها فى فجاج الأرض ومخارمها حتى بلغ
 منزلها ذات يوم فتكره حتى زارها وهو يظن أن زوجها
 لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم
 أنه يعرف حقيقته وأنه على ذلك لا يهتم ولا ينكر له
 عزه على الانصراف حياء منه ، وقال لها يا غفراء أنتِ حظي
 من الدنيا وقد ذهبت فذهبت دنيى بذها بك فما قيمة
 العيش من بعدك . وقد أجمل هذا الرجل عسرى واحتمل
 ما لا يتحمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل
 من هذا المكان ، وإني عالم أنى أرحل إلى مَبْتَى . وما زل
 يبكى وتبكي حتى انصرف ، فلما راحل نكس بعد صلاحه

وتماسكه وأصابه غشي وخفقان فكان كلما أغمى عليه ألقي على وجهه بخار المفراء كانت زودته إياه فيبقى حتى بلغ حيه وأمسك علما كاملا لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنه حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضا ، فمر به بعض الناس فرآه مطرعا بجانب خباته فسأله عما به فوضع يده على صدره وقال : كأن صلالة علفت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان ثم شبق شهقة كانت نفسه فيها ، فلما بلغ عفراء خبره قامت إل زوجة وقالت له ، لقد كان من خبر ابن عمى ما كان ، وقد مات فى وبسبى ، ولا بد أن أندبه وأقيم مأتما عليه ، فقال افلى ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت فى اليوم الرابع ، وشقها سعد الوراق بحب عيسى النصرانى حينما علم أن هبه قد بنوه ديراً بنواحي الرقة ايترب فيه ويحتجب عن الناس فضاف عليه الدنيا بما رُجبت وأحرق بيته وفارق هبه وأخوه وثره صحراء الدير على يحد السبيل إلى الوصول إليه ، فمتنع عليه ذلك بعد ما ذلّ للرهبان وتخضع وتأتى

لهم بكل سبيل فلم يُجِدْه ذلك شيئاً، فصار إلى الجنون
وخرق ثيابه وأصبح عُريان دائماً لاشأَن له إلا أن يقف
بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسالته إلى
عيسى حتى رآه بعضُ الناس في بعض الأيَّام ميت إلى جانب
الدير، وأمثالُ ذلك من مواقف البؤس ومعاصِر الشقاء،
كأنما كنتُ أرى أن الدموع مظهرُ الرحمة في نفوس الباكين
فما أُحييتُ الرحمة أُحييتُ الدموعَ لها، أو كأنما كنتُ
أرى أن الحياة موطنُ البؤس والشقاء ومستقرُّ الآلام
والأحزان، وأن الباكين هم صدقُ الناس حديثاً عفاً،
وتصويرُ لها، فله أُحييتُ لصدق أُحييتُ البكاء لأجبه.
وكانتُ كنتُ رى أن من حيني وجبه وثقتُ لباكس
المنكوبين سبب وريب وسبب متسللاً. فأنستُ بهم وضربت
بنواحم ضرب تُحب بنوح خدمته. وبكاء الفأتم. وكان
كنتُ في حاجة إلى بعض هطرت من لدمع فخرجتُ به
مما أنا فيه. فما بكى لباكون وبكيب بكائهم وحدثُ

في مدامهم شفاء نفسي ، وسكونَ لوعي ، أو كأنما كنت
أرى أن جمال العالم كله في الشعر وأن الشعر هو ما تقبّر
من صدوع الأفتدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع
مدامهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم

تلك أيامي التي سمعتُ بها برهة من الدهر ومرّت لي
فيها أحسنُ ما مر لأحدٍ والتي لا أزال أذكرها بمد
مرور تلك الأعوام الطوال فأكد أشرق بدمعي لذكرها ،
ثم اتفيت فوجدت يدي صقراً منها وإذا أنا بين يدي هذا
العالم المظلم المقتشر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت إليه نظراً
التريب الخار إلى بلد لأعهد له به ولا سكن له فيه فرأيت
مخزّيه وشروبه وظلمة أجوائه ، واعتبار رحمائه ، وقتال
الناس بعضهم بعضاً على الدرّة والحبة ، والنسمة والمهبة^(١)
وتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه
وسطان القوة على الحق ، وغلبة الجهل على العلم ، وإفقار

القلوب من الرحمة ، وجودَ العيون عن البكاء ، وعجزَ الفقراء عن قُتاتِ موائدِ الأغنياء ، وتمنُّعَ الأغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيتُ الدرائيَّ بالرزيلة حتى ادعاها لنفسه وأَتحَلَّها إياها من لا يتخطى بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها . ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرَّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والتافين عليه فرار الماري بسوائه ، والموسوم بنخزته . ورأيت الرجل والمرأة وقد سرَّ^(١) كلٌّ منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه . ثم تقايضا فلبست قباهه وبس غلاتها ، فأصبح امرأته لها من النساء التكرُّ والتبرد . وصُبحتُ رجلاً له من الرجال التوقُّع والتشُّهر^(٢) . ورأيت الدِّين وهو دوحه السلام أخضره التي يستظلُّ بها الضاحون^(٣) من لفحات الحياة وزفرتها قد سَتحَلَّ في أيدي الناس إلى سهام مسمومة يحاول كلٌّ منهم أن يصيب بها كيد أخيه

(١) سرَّ الثوب عن جسمه فله عنه (٢) تشَّهر وشَّهره من أَعْلَى حَتَّى سَكَنَ مَعَهُ (٣) الضَّاحُونَ

ولا علامة بينه وبين الحس والوجدان . فأكثُرُ الناس عند
الناس أذبا . وأقومهم خُلُقًا . وأظهرهم نفسا . من لا يفي
على شرط أن يعد . ومن يكذب على أن يكون كذبه
سائفا مهبدا . ومن يملأ صدره مَوْجِلَة وحقدا على أن
يكون بساما ضحوك السن . ومن يسرق على أن يستطيع
المبث بمواد القانون وخذاع القضاة عنها ومن يفضُّ الناس
جميعا بقلبه . على أن يحبهم جميعا بلسانه . ومن يخفف تلك
المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات
الجسمية التي تواضع عليها متكلفون في زيادة ولاسزرة
والهناء والعزاء والمواكبة والمداومة ومن ذلك مما يرجع
العلم به غالبا إلى صغر النفس وإسفافها . أكثر مما يرجع
إلى علوها وكبرها . فدخني من ذلك خضر عظيم . أستطيع
أن أملك نفسي معه كأنت خيل في اقرب عهدي بما ترى
أنني أرى شيئا عجيبا . و منظر خريبا . وكأنت كنف
أحسب أن عا خيال أنني كنت فيه فما هو صورة صحه

لعالم الحقيقة التى انتقلتُ اليه ، فأزججني ما رأيت من هذا
الاختلاف العظيم بينهما فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما
يتنفس متنفسٌ ويئن الحزين ، فقرأ ذلك بعضُ الناس
فسموه ، ورووه كلاماً ، ثم ما زلوا يستحسنون ما أقول
ويغروننى بأمثاله ، زلتُ ضمعُ فيه وأرجو أن أصيبَ
ما فى قلوبهم حتى سموني كاتباً

وكان لذلك الأديب الذى قرأيت به نفسى فيما مضى أثرٌ
باق عندي حتى ليوم فاقى لأحسن أن أكتب كلمة يفضى بها
بني غيري أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى ، أو أبكى على
من لا يخزنى فراقه . أو أئلب من لا يجنى موته ، أو
أستنكر ما أستحسن ، أو أستحسن ما أستنكر ، كما
لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التى تهيج
فى نفسى حزنًا شديدًا . أو ضرباً كثيراً ، فأملك نفسى عن
محاولة الأفضاء بما تركه عندي من خير أو شر ، وما أعلم أنى
كتبت كلمة فى شأن من الشؤون إلا وكان بعضُ تلك

المشاهد منشأها في قلبي، فقد كنت رجلاً لأحب الكذب
 ولا آخذ قسي به ما وجدت منه بدءاً، فأبغضت الكاذبين
 بنض الأرض لله. فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق
 قتلاً مستحراً، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسينين، إما
 أن يكونوا صادقين، وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون،
 وكنت إنساناً بائساً يترك الدهر سهماً من سهامه المريضة
 لي رمي به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم
 يمر عني إياها، فقد ذقت الذل أحياناً، والجوع أياماً، والفقر
 أعواماً، ولقيت من بأس الحياة وضرائها ما لا يبق بشره
 فشعرت بمرارة الحياة في قفوه لسكين. ورثيت موفع
 سهام الدهر في كبد البائسين والمنكوبين. فكان من
 همي أن أبكي كل بائس. وتكذب كل منكوب، وأطلب
 رحمة القوى للضعيف، والنفى للفقير، والعزير للذليل،
 وقد قدر لي فيما مر بي من أيام حياتي أن رثيت بعيني من

وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه أن يرصخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوءة ابنتها فأبى ذلك عليها وقال لها وهو يحسب أنه بمقدور قول: أيها المرأة لاحق لابنتك عندي ولا عند ولدي فـ لا يكن حظها منها فيما كان من أمرها بأكبر من حظها منه، ورئت من تروج من فتاة كان يسك في نفسه لأهـب حقدًا قديمًا فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا: أيها الناس إن الفتاة مريية، وكان كاذبًا فيما يقول، واسكن صدقه الناس فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظمته، ورئت من دخلت اليه امرأة من أولئك النساء المرييات سأنه يحض النمونة على أمرها فأمر بطردها ذهابا بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته وكان هو الذي أفسدها على نفسها فتزول بها فسددها في هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر، فلما جد الجـد حسبها على لئمة تنفوتها في بيته، ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيتها أكلا، فكان في منذ

ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها
الناس إليها ، وأن التمس لها من العذرو إن زلت بها قدم ما لا
يلتمسه لها أحد ، وأن انتصف لها من الرجل ما وجدت
سبيلا إلى ذلك حتى يُدبرل لها الله منه ، وكنت من شؤون
عيشي في حالة لا أستطيع معها أن تعزل الناس الاعتزال
كله ، ولا أن أختار لمشرك من أشاء من خياره وذوي
المروءة فيهم ، فلبستهم على علائهم فاحفظني صديق عهد ،
ولا صان لي صاحب سرا ، ولا استندت مرة فنفس عني
دائن ، ولا دنت فوق لي مدين ، ولا رد لي مستجير
عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فريج لي كربى
مفريج إلا إذا استقطر ماء وجهي في القفزة لأخبره
منه ، ليأخذ أكثر مما أعطى ، ويسب فوق ما وهب ،
ووجدت في طريق حياتي من خالصتي غائلة الزائر للروء
حتى أمكتته القرصة فسرق ما لي بعد ، أخرجته ضامى وشراي ،
ومن كان يسطو إلى يد الآمل الرجى فأكروه في رده

خائباً فلما عجزتُ عن ذلك مرة أضمر لى في قلبه من
 الشر ما لا يُضمر مثله الرجل الا لمن يظلمه على ثرائه
 وجماله ، ويُخضب لحيته من دم مفرقه ، ومن نصب^(١)
 لى ، وغرى تحدى ومما نئى^(٢) لأنه كان يحمل في رأسه
 فتكاً يُعبد في طريقه من يعملها عنه ويستخذى له فيها
 سواى ، ومن أخذ نفسه بالنيل منى والقص من شأنى لأنه
 كان يشكو الخول والضة وكان لا بد له أن يكون
 نابه مذكور ، فحقق له أن رضى عاتق بين يديه فظن أنه
 على العواقب وأبعدها مذهباً في جوار الساء ، فعلاه لبشرف
 منه على الناس فيمروا مكانه ، فوائده ما تحللت ولا نبوت
 به بقي عليه وضنا به أن يسقط سقطة لا يثل منها ، ومن
 كان لا يكبر شأنى إلا إذا اتقانى فلذا أضاء ما بينى وبينه
 كنت في عينه أضمر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل
 ويدبر بأبواب الدهر على وإدباره عنى لا يستحي أن

(١) نصبه - عاتقه (٢) مائة الخامسة والستة

يكرر ذلك حتى أستحي له منه ، ففكرتُ بـ^(١) كل ما كرهت من ذلك ولكنتُ لم أرضَ لنفسي أن تنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغرالكريم ، فله أثار لنفسي ولكن أصبح رأيتُ في الناس غير رأيهم في أنفسهم ، ورأيتُ بعضهم في بعض ، وخفتُ أن يصيب كثير من الضعفاء والمحدودين^(٢) ، أمثالي مثل ما أصابني ، فكان من همي أن أدل على شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم ، وأن أكشف الستر عن دغائل طلوهم ، حتى يتراموا ويتكاشفوا ، فيتوافقوا ويتحاجزوا ، فلا يهنا خدعُ بخدعته ، ولا يبيكي مخلص على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً عُجراً يركبونها ، في غرلهم ومعانمهم ، وكان منشئ في قومٍ بدلة سذج لا يبتنون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بي لأمرٌ بعد ذلك وتصرفتُ بي في الحياة شؤونُ جمة ، تخضعتُ لكثير من أحكام الدهر

(١) عركتُ حبه حباً شديداً (٢) عود عروق دمر - دمر - حط

وأفضيته إلا أن أكون ملحدًا في ديني، أو زليًا على وطني،
 فاستطعت وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدينة النورية
 أن تجس ناحية منها، وأن أنظر إليها من مرقب عال،
 وكنت عمُّن من عجيز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر
 بغيره مذروه حقد، فبما أخذته كله أو تركه كله، فرأيت
 حسناتها وسيئاتها، وفنائها ورذائلها، وعرفت ما يجب
 أن يأخذ منها الآخذ، وما يترك التارك، فكان من همي
 أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن
 أقم من هؤلاء العجزة الضعفاء الكهم لها، واستتارهم
 بها، وسقوهم بين يدي رذائلها وغايبها، وإلحادها
 وزندقها، وشحها وقسوتها، وشرها وحرصها، وتبذلها
 وتمكيطها، حتى أصبح رجل النوى لا بأس بملء وجهه،
 ذ حربه^(١) لأمر في منشرة بينه وبين من يأخذ برذيلة
 من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينفض به عن نفسه إلا أن

يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك .
 كأنما هي القانون الإلهي الذي تنوب إليه العقول عند
 اختلاف الأنظار ، واضطراب الأنهاء ، أو القانون المنطقي
 الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها
 وخطئها وصحيتها وقسدها . وحتى أصبح السيد في منزله
 يستحي الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطلع
 منه على جهل يعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس
 الرداء ، وخلق الحذاء ، أكثر مما يستحي من الله ومن
 الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل . وأكبر
 الكبائر . وحتى أصبح تاريخ الشرق وتاريخ علمائه
 وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أفبح الصور
 وأسمجها في نظر كثير من الشرقيين يغفرون بجهله إن
 جهلوه . ويراؤون بجهله أن علموه . وحتى تقدر الغلام
 الرومي خادم الخان منفرداً على ما لم تقدر عليه الأمة
 جميعها مجتمعة ، فعملها على النزول إليه لتحديثه بلفته .

قبل أن تحمله على المصود إليها ليحدثها بلغتها ، وهو
إلى أن يرضاها ويستدينها أحوجُ منها إلى أن ترضاها
وتردلف إليه

فذلك ما تراه في رسائل النظرات مستترأهنا وهنا
قد شعر به قلبي قفاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس
عن قسى ولا أكذب نفسي عنها

وعندى أن الكاتب المسخر الذى لا شأن له إلا أن
يكتب ما يفضى به الناس إليه صانع غير كاتب . ومترجم
غير قائل . لا فرق بينه وبين صانع النصب وثاقب اللؤلؤ ،
كلاهما ينظم ما لا يملك ، ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على
أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه
هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها النخلون في تاريخه من بعده
صورة نفسه . ومضطرب آماله ، ومسرّح أحلامه ، فإن
كان كل شأنه في حياته أن يكون امرأة تتقلب فيها
مختلفت الصور . أو وفيمة^(١) تسمح بها أعراد

(١) الويفة حرة يمسح بها القم

الأقلام كان خسارته عظيماً لا يقوم به كل ما يربح
 الرباحون من مال أو يؤثرون من جاه، والتاريخ أضن من
 أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدياء إلا مجد أولئك
 الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد
 تركوها تقيّة يضاء من بعدهم ، وحياء الكتاب بحياة
 كتابته في قوس قرائتها، ولا تحيا كتابة كاتب سيطم الناس
 من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم
 وأنه روائع متخلج^(١) يأمرهم اليوم بما ينههم عنه غداً ،
 ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى. وأنه يستبكي ولا يبكي،
 ويسترحم ولا يرحم ، ويحرك النفوس وهو ساكن ،
 ويشير الأثر وهو سالم، فبستريون به، ويخارون في مصادره
 وموارده . ثم يحملون أمره على شرحه ، ثم يتقطع ما بينهم
 وبينه ، والبيان لبس سلعة من السلع التي ينتقل بها تجارها
 من سوق الى سوق ، ومن حانوت الى آخر ، ولكنه

(١) التخلج الفطرب وبعث

حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا
تكلف ولا تمل صدور النور عن الشمس، والصدى عن
الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق في نفس
الأديب إشراق الصباح في زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر
في صدره ثم يفيض على أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم
واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود، ولو أن
أمراً من ذلك كان لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء
أغزرهم مادة في النظم أو أعلمهم بقواعد اللغة أو أجمعهم
لمتونها أو أحفظهم لفصيح القول ورائته، أما العلم فأكثر
المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي تروها
في الشريعة والحكمة والمتنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع
في ذلك اثنان، وما قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا
القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا
يكتبون، وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب
الله من جماعة القراء ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ولا أقل

منهم للمال بالآدب ولا أبعد عنه مكاناً ، وأما اللثة فما عرفنا بين المتقدمين والتأخرين من رواها وحفاظها والتوفرن على تدوينها وتحقيقها والمتطمين لنرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحجير الرسائل أو قرّض الشعر أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أقسم به ، وكان خليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال يأتني جيدٌ وآتي رديته ، وكان الأصبغ يحفظ ثلثَ اللفظ ، وأبو زيد الأنصاري يحفظ نصفها ، وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن حديد والأزهري والصلغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية والجوهري والفيروزبدي وأمثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما بمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه : لا أحتاج إلى وصف نفسي ، لعم الناس في أنه ليس أحد من الخلفين تحتلج في نفسه مشكلةٌ إلا لقيني بها

وأعدنى لها . فأنما عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يمتحن على مشقة من الشعر والنحو والكلام المتنور والخطب والرسائل ، وربما احتجت إلى اعتذار من فئة أو التماس حاجة فأجمل المعنى الذى أقصده نصب عيني ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه يد ولا لسان ، ولقد بلغت أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بحميل فحاولت أن أكتب إليه رُعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري ، فأتيت قسى يوماً في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما في قسى فينصرف لسائق إلى غيره : اه بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على النبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ولا على المرحى كثيراً من منظومه ومتنوره ولا على الحريري مقلماته ولا على ابن حديد مقصورته إلا غلبة اللثة عليهم ولست أثارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون ، فقد كانوا هم وأمثالهم من جاثس اللغة وأنصائها في كثير من مواقعهم يؤلفون ويدونون ، من حيث يظنون أنهم

ينظمون أو يكتبون ، ولا تزال قسَى تشتل على لوعة من
الحزن لا تتركها حتى الموت كلما ذكرتُ أن الأدب العربي
كان يستطيع أن يكون خيراً مما كان لو أن الله تعالى كتب
للزوميات المعرى النجاة من قبضة اللثة وأسر الالتزام ،
وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه
الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي وقيومونه عالمه
ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السياسية والاجتماعية
والأدبية كافة من يمد من حفاظ اللغة العربية وثقلها ، أو
من يسلم له مقالٌ من مأخذ نحوى أو مغمز لنوى ،
وهم على ذلك أدخلٌ في باب البيان وألصق به وأمس به
رحما من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون
دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويقاصرون بشاذها
وغريبها ويحملون في صدورهم مادق وما جلّ من مسائل
نحوها وتصريفها ، فإذا عرّض لهم غرض من الأغراض في
أى شأن من شؤون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الافضاء

به أرتج عليهم فأغلقوا . أو تقرأوا وتشدقوا ، فكانهم لم ينطقوا . والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون ، والآخرين مصححون ، فتلهم كمثل النساج وعامله ، هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده وعسح عنه رثره^(١) أو كمثل الشاعر والعروضي ، هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تعامله وموازنه ، وليس البيان ذهاب كلمة وعجى أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والملاء والرواق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل ، والأخذ بجامع الأبواب ، وامتلاك أزمنة الهواء ، فإذا صح ذلك لا مريء فهو الكاتب القدير ، أو الشاعر الجليل ، فلن زلت به قدم في وضع حرف مكان حرف ، أو غلبه على لسانه دخیل ، أو خرج من يده أصيل ، أو كان بمن يقوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بملء

(١) الرثر ما ظهر من درر الثوب

أو بحافظته ، لا ببيانه ، وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله
 عن سحرة وطبع أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الأولين ،
 وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في
 بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي
 الفارسي أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ،
 فربما استهوام الشيء فزاغوا به عن القصد من حيث
 لا يشعرون ، وكما أن الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من
 سحته ، أن تطير منه ذرة وتحمل أخرى عنها لتثقلها ، كذلك
 لا يغير صورة الكلام ولا يذهب بنفسه خروج أصل ،
 أو دخول دخيل ، ولقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز
 نرائك كثير الإعجاب بالكتاب « كبلنغ » وهو رجل لحانة
 لا يحفل بقواعد اللغة . فأجاب إن سطرًا واحدًا مما يكتبه
 « كبلنغ » أتمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من
 الرأي أن أحرمه قسماً التمتع بأدبه ! كرمًا لسواد عيون

الفراماطيق^(١) الانكليزي ، وفضل الادباء على اللغة
 في سيرورتها وذووعها وتداولها وخلودها أكبر من فضل
 اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يهدون سبلها ،
 ويمبدون^(٢) مرقها ، ويستندون نافرأها ويجمعون شاردها
 وينضون لآئها ، فظم الثاقب لآئته في السلك ، فيأخذها
 الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها إلى
 النفس . وأعلقها بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته
 اللغوية من معاجم اللغة ، ويكتسب ملكة الاعراب من
 كتب النحو والتصريف ، وما كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا
 كان عدوا لها ، بل هي أسلحه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن
 المستغلين بها ، والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين
 لاستظهارها ، والنظر في دقائقها والتعمق في أطوارها ،
 لا يزال يغلب عليهم الولع بها والفتاء فيها ، حتى تصبح
 في نظرهم مقصدا من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ،
 والبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة ، فمن لا يأخذ نفسه

(١) الفرماطيق نحو (٧) يبدون يدلون ويبدون

بجميع وسائله لا يصل إليه والثرية العلمية كالثرية الجسمية
فكما أن الطفل لا ينمو جسده ، ولا ينشط ، ولا تنشط
أعضاؤه ، ولا تنتشر القوة في أعصابه ، إلا إذا نشأ في هواء
وليعه ، وقفزه ووثيه ، كذلك الكاتب لا تنمو ملكة
الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه ، إلا إذا
ملك الحرية في التصرف والافتتان واللهاب في مذاهب
القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون أن يُسيطر
عليه في ذلك مُسيطر إلا طبعه وسجيته ، واللغوى لا يزال
يحوط نفسه بالخنر والخنوف ، والوساوس ، والبلايل ،
فإن مشى خيل إليه أنه يمضى على رملة ميثاء ، وإن تحرك
خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء ، حتى يعمد به
خوفه ووساوسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها ، على
أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا فطر إلى الألفاظ
بالمعين التي يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها

الطبيعية التي تَنَزَّلُهَا مِنَ الْمَعْنَى ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ خَدَمًا لَهَا
وَحَوْلًا ، وَأَوْعِيَّةً وَظُرُوفًا ، فَلِذَا كَتَبَ تَرْكُهَا وَشَأْنَهَا وَأَغْفَلَ
أَمْرَهَا حَتَّى ثَاقَى بِهَا الْمَعْنَى وَتَقْتَادَهَا طَائِمَةٌ مَرْمُومَةٌ ، وَالْمَعْنَى
هِيَ جَوْهَرُ الْكَلَامِ وَلَبُّهُ ، وَمِزَاجُهُ وَقِرَامُهُ ، فَذَا شَغَلَ
الْكَاتِبُ مِنْ هِمَّتِهِ بِغَيْرِهَا أَزْرَى بِهَا ، حَتَّى ثَقُلَتْ مِنْ يَدِهِ
فِيَقْلَتْ مِنْ يَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ

وَبَعْدُ قَالِمُ وَالْمَحْفُوظَاتِ وَالْمَقْرُوءَاتِ وَالْمَادَّةُ اللُّغَوِيَّةُ ،
وَالْقَوَاعِدُ النُّحَوِيَّةُ . إِنَّمَا هِيَ أَعْوَانُ الْكَاتِبِ عَلَى الْكِتَابَةِ
وَوَسَائِلُهُ إِلَيْهَا . فَالْجَاهِلُ لَا يَكْتُبُ شَيْئًا لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا ،
وَمَنْ لَا يَضْطَلِعُ بِأَسَالِيبِ الْعَرَبِ وَمَنَاحِيهَا فِي مَنْظُومِهَا
وَمَشْهُورِهَا مَرَّتْ الْعِجْمَةُ إِلَى لِسَانِهِ ، أَوْ غَلَبَتْهُ الْعَامِيَّةُ عَلَى
أَمْرِهِ ، وَمَنْ قَلَّ عَحْفُوزُهُ مِنَ الْمَادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ قَصُرَتْ يَدُهُ
عَنْ تَنَاوُلِ مَا يَرِيدُ تَنَاوُلَهُ مِنَ الْمَعْنَى ، وَمَنْ جَهَلَ قَانُونَ اللَّفْظِ
أَغْمَضَ الْأَغْرَاضَ وَأَهْمَمَهَا ، أَوْ شَوَّهَ الْأَلْفَاظَ وَهَجَّنَهَا ،
وَلَكِنَّمَا لَيْسَتْ هِيَ جَوْهَرُ الْفَصَاحَةِ ، وَلَا حَقِيقَةُ الْبَيَانِ ،

فأكثرُ القائمين عليها، والمضطلمين بها، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غايه إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قلبه تماثلاً سويًا مُتسببًا الاعضاء، مُستوى الخلق، إلا أنه لا رُوحَ فيه ولا جمال له لأنه ينقصهم بمد ذلك كآه أمرٌ هو سرُّ البيان ولُبُّه، وهو التوقُّ النفسى والفطرةُ السليمة، وأتى لهم ذلك وما دخلت الفلسفةُ أيا كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته، وما خالط التكلفُ عملاً من أعمال التوق إلا شوه وجهه، وذهب بحسنه ورؤائه

ولقد قرأتُ ما شئت من منشور العرب، ومنظومها .
في حاضرها وماضيها، قراءةً المثبت المستبصر، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة، حديثُ اللسان، وحديثُ العقل، وحديثُ القلب

فأما حديثُ اللسان فهو تلك المباراةُ النعمةُ، والجللُ المزخرفةُ، أو تلك الكلماتُ الجامدة الجافة التي لا يعنى

صاحبها منها سوى صورتها اللفظية ، فإن كان لُتويا تَقَرَّرَ
ونشدق وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشئ خير ما يصفه
به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له
ولا أبواب ، وإن كان بديعاً جفناً ورصع وقابل ووشع
وزواج وافق في الاتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة
كلها . أو راجح بين الإهال والإعجام ، فيخيل إليك
و أنت تراه يتعلق بما يتعلق به كأنما هو يصنعه يديه
منها ، أو يصفه تصفيها . لا يبان بعد ذلك باستقامة
المعنى في ذاته ولا بمقدار ماله من الأثر في نفس السامع ،
وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها
وأجبرها أن ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية
التي لا تدخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وأن ينظم
صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا
تحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وقرعها ، والمزاوجة بين
مقاديرها ، والموازنة بين أثقالها ، من حيث لا يكون لقوة

التصور ولا لذلك القلب دخل في هذا أو ذاك

وأما حديثُ العقل فهو تلك الماني التي رنحتها الناحتون
من أذهانهم تحتاً، وقنعطعونها منها اقتطاعاً ، وينهبون
فيها مذهبَ المأيلة والتحدى والتعق والافرابوسونها
تارة تخيلاً، وأخرى غلوًا ، وأخرى حُسنَ تليل . إلى
كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب ، التي تنفرق
ما تنفرق ثم يجمعها شيء واحد ، هو الكذب والاحالة ، وآية
ما ينك وبينها أنك إذا رأيتها شمرتَ بأنك ترى أمامك
شيئاً غريباً عن نفسك وعن نفس صاحبه وعن قلوب
الناس جميعاً ، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يُطْرِفَكَ أو
يُضحَكَ أو يعجَبَكَ من ذكائه وِفْطِهِ ، واقتداره على
تصوير ما لا يتصور ، وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر
لا علاقة له بيوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما
انعكس عليه حتى غرضه هذا فتفرك وأكذك ، وملاً
عليك غيظاً وقبحاً كأن يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته

لما رأيت عليها عقد متعلق

فإن الجوزاء لا تتعلق ، ولو كان هذا القنى نراه
يستدير بها فطلقاً فهو شئ متصلٌ بها قبل أن يخلق الممدوح
ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء ، والكواكب
ليست أشخاصاً أحياء ، يتخذُ منه الناسُ خدماً وخولا
لأنفسهم . ولو كانت كذلك لاستحال عليها وهي من سكان
السماء أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها . فقد كذب
وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله
أن يترك في نفس السامع صورةً تمثل جلال ممدوحه ،
وعظم شأنه ؛ فهو في الحقيقة إنما يريد بيته هذا أن يمدح
نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا أن يمدح ممدوحه برقة
الشأن ومحلو المقام

أو يقول : —

مابه قتل أعاديه ولكن يتخلف ما رجو الذئلب

فإن الذي يحمل في صدره قلباً رحياً مشفقاً على القتل
من الجوع مستغنياً أن يخلفها ما عودها إليه من طعام
وشراب لا يمكن أن يكون هو نفسه ذنباً ضارياً يريق
دماء الناس ويمزق أحشائهم وقطع أوصالهم ، ليملاً بها
يطون الوحش ، ولا يوجد بين الأسباب التي تحمل الناس
على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره ؛ على أن
المحسن لا يكون محسناً إلا إذا وهب ما يهب من ماله ،
ومن خزائن بيته ، فأما أن يقتل الناس قتيلاً ومثل بهم ثم
يُنم يحشهم على الجائعين والظلماء من وحوش الأرض وذئابها
فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالاحسان

أو يقول : —

لا ينوق الأغفاء إلا رجاء

أذكرى طيف مستريح رواح

فإن الترم قولم الإنسان وعماد حياته ، ولازم من
لوائمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يُرد ، فإن كان لابد من

دخوله في باب الاختيار فان من أبعاد الأشياء عن التصور
ولفهم أن يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه
أن يرى فيه الأحلام والرؤى ، فان فعل فلا يدخل في باب
أغراضه وأما فيه أن ينلم ليرى خيال جملة المتسولين
والتأكلين وهم ملء الأرض وهبائه الجو ؛ وأرصاد الأعتاب
وأعقاب الأبواب ، لا تفتح العين إلا عليهم ؛ ولا تمتلئ
الانظار إلا بهم ، فهم لم يلبثوا في الضن بأقسامهم والعزف
بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يحتر به إلا إذا ألقى في طريقه
حياتل الأحلام ليصطلحه بها

أقول : —

لم يتخذ ولداً إلا مبالمة

في صدق توحيد من لم يتخذولدا

فان الاولاد لا يتخذون اتحاداً ، وإنما ينعم الله بهم على
من يشاء من خلقه إنعاماً ، وأكثر ما تقدف به الأرحام
من النفسات إنما هي عمرات الحب تأتي بها عفوا ، لا نبته من

نبات الأرض يغمر الزراعُ بنورها ليستنبتها ، والله تعالى غنى ربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بِنُطقه يَقْدِرُهَا قَدْرَهَا فِي بَعْضِ الْأَرْحَامِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ فِي إثبات رُبوبيته من دليل يَدُلُّ عَلَى غَاثَتِهِ لِلْحَوَادِثِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْصَالِ فَلَا دَلَّةَ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لَا يَضِيقُهَا الْحَسَبُ كَثْرَةُ وَرَبِّهَا كَانَ أَهْوَنُهَا وَأَسْخَفُهَا أَنَّهُ لَا يَتَخَذُ وَلَدًا وَأَنَّهُمْ يَتَخَذُونَ عَلَى أَنَّ التَّخْذِينَ كَثِيرُونَ قَدْ ضَاقَ بِهِمْ بَطْنُ الْأَرْضِ وَظَهَرُهَا ، فَالْسَّأَلَةُ مَفْرُوعٌ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ هَذَا الْمَدْحُ وَيَخْلُقَ وَلَدَهُ فَلَا فَضْلَ لَهُ فِي الْإِتْيَانِ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ

أَوْ يَقُولُ : —

وَمَا رِيحُ الرِّيحِ إِلَّا لَهَا وَلَكِنْ كَسَلَهَا ذَفْنُهُمْ فِي الرُّبِّ طَبِيعًا
فَإِنَّ الْأَزْهَارَ الَّتِي تَسْتَدُّ حَيَاتَهَا وَنَعَامَهَا مِنْ جِثَّتِ الْمَوْتِ
وَرَمَمَهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ طَبِيعَةُ الرِّيحِ ، عَلَى أَنَّ الْأَزْهَارَ
مُرْمِيَةٌ قَبْلَ أَنْ يُدْفَنَ هَؤُلَاءِ الْمَوْتِ فِي قُبُورِهِمْ ، فَلَمْ يَزِدْ
فِي كَلَّتِهِ هَلْهَلًا عَلَى أَنْ أَتَى بِخِيَالٍ ضَعِيفٍ مُبْتَدَلٍ هُوَ أَشْبَهُ

الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق
إلا إكراما لبعض التبيين
أو يقول : —

تُلف في اليوم بالحبات وفي الساعة ما تجتنيه في سنتك
قد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق
ما يصف الناس ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره فأنزله منزلة
مجاين السرفين الذين لا يُحسنون الموازنة بين أدخلهم
وقققاتهم، ولو قدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاض
من قضاة المال لما كان له بد من الحجز عليه، والقضاة
يرصون في مثل هذه الأحكام بدون إفتاق دخل السنة
جميعها في ساعة واحدة أو يوم واحد
أو يقول : —

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ غلاك من بعد المات
أصاروا الجوّ قبرك واستلمنوا
عن الأكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن. فالتبرُّ لا يضيِّق بأحدهما والجوُّ
لا يكونُ قُبْرًا، والريحُ ليست كَفَنًا، والرجلُ لا يزال
مصلوبًا غيرَ مقبورٍ، ولا يزال عاريًا غيرَ مُدرجٍ في كفنٍ
وأما حديثُ القلب فهو ذلك المتشورُ أو المنظوم الذي
تسمعه فتشمر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك
كما يتحدثُ الجليسُ إلى جلسه، أو ليصور لك ما لا تعرف
من مشاهد الكون، أو سرائر القلوب، أو لينفضَ إليك
بغرض من أغراض نفسه، أو لينفَسَ عنك كربةً من كرب
نفسك، أو ليوافق رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني
الدقيقة التي تلتجج في صدرك ثم يتكلم بك الإفصاح عنها،
من حيثُ يكون للصناعة اللفظية، ولا الفلسفة النحوية،
دخل في هذا أو ذاك، حتى ترى حجابَ اللفظ قد رق بين
يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكأسُ الصافية دون
ما تشتمل عليه من الخمر، فإذا الخمر قاتمةٌ بنير إناه، أو كما
تفنى صفحة المرأة الصقيلة بين يدي الناظر فيها، فلا يرى

إلا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ،
وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها ، وهو الذى يريد
المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت أساليبهم ، من.
كلمة البيان

ولقد كان من أكبر ما أعانى على أمرى فى كتابة
تلك الكلمات أشياء أربعة أنا ذا كرها لعل للتأدب يجد
فى شيء منها ما ينتفع به فى أدبه

«أولها» أنى ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث
الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، أى أنى ما كنت
أنكلف لفظاً غير اللفظ الذى يقتضيه المعنى ويتطلبه ، ولا
أفقد عن معنى غير المعنى الطبيعى القائم فى نفسى ، بل
كنت أحدث الناس بقلبي كما أحدثهم بلساني ، فإذا جلست
إلى منضدق خيل إلى أن بين يدي رجلان من عامة الناس
مقبلا على بوجهي ، وأن من الأشياء وأشهاها إلى نفسى
الأترك صغيراً ولا كبيراً مما يحول بخاطري حتى أفضى

به إليه ، فلا أزال أتلفتُ الحيلةَ إلى ذلك ولا أزال أتأني إلى به
 بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاحَ المشفق المجدحني أعلنُ
 أنني قد بلغتُ من ذلك ما أريد ، فلا أُقيدُ نفسي بوضع
 مقدمة الموضوع في أوله ، ولا سَرِدِ البراهينِ على الصورة
 المنطقيّة المروقة ، ولا التزم استكمال الكلمات الفنية التزمًا
 مُطردًا إبقاءً على نشاطه وإجاحه ، وإشفاقًا عليه أن يملَّ
 ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به
 « وثانيها » أنني ما كنتُ أحمل نفسي على الكتابة
 حملا ، ولا أجلس إلى منضدقٍ مُطرقًا مفكرًا . ماذا أكتبُ
 اليوم : وأي الموضوعات أعجبُ وأغرب ، وألذ وأشوق ، وأيها
 أعلقُ بالنفوس ، وألصقُ بالقلوب ، بل كنتُ أرى فأفكرُ
 فأكتبُ فأنشرُ ما أكتبُ فأرضي الناس مره وأسخطهم
 أخرى من حيثُ لا أئمدُ سُخطهم ولا أطلب رضام
 « وثالثها » أنني ما كنتُ أكتبُ حقيقةً غير مشوبة
 بخيال ، ولا خيالا غير مُرتكز على حقيقة ، لأنني كنتُ

أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ، وأحسب أن السبب في ذلك أن أكثر ما نشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب ، والآراء والأخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو أثر من آثار الخيالات التهنية التي تتراعى في سماء الفكر ، ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقةً بعد طبقة من غبار القدم حتى تُصبح حقيقة من حقائق ثابتة في الأذهان ، وكما أن الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لونٌ غيره ، كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعه من مكانه إلا الخيال ، والخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التي يريدها ، فلو لا خيال الشعر ما هاج الوجد في حب العاشق ، ولو لا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة حرب . ولو لا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت 'ابتدعت' . ولو لا خيال الرحمة ما عافى غنى على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت

أعلم أن للخيال غيرَ المرتكز على الحقيقة إما هوهوة طائفة
 من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ، ولا تصمد إلى سماء
 « ورايها » أتى كنتُ أكتب للناس لا لأعجبهم ،
 بل لأقنعهم ، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت ، بل لأجد
 في نفوسهم أرواً مما كتبت ، والناس كما قلتُ في بعض
 رسائل خاصة وعامة : أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا
 علاقة لي بهم ، ولادخل لكلمة من كلاتي في شأن من
 شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، لأنني
 لم أكتب لهم ، ولم أحدث معهم ، ولم أشهدهم أمراً ، ولم
 أحضرم على ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أسمع منهم
 شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ، لأنني راض عن فطرتي
 وسجيتي في اللنة التي أكتبُ بها فلا أحب أن يكدرها على
 مُكدرٌ ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائل فلا أحب
 أن يُشككني فيها مشكك ، ولا يهينني الله من قوة الفراسة
 ما أستطيع به أن أميز بين غلصهم ومشوهم ، فأصني
 إلى الاول لأستفيدَ علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ،

فَأَنَا أُسِيرُ بَيْنَهُمْ مَسِيرَ رَجُلٍ بَدَأَ يَقْطَعُ مَرَحَلَةً لَا بَدَلَ لَهُ أَنْ
يُفْرَغَ مِنْهَا فِي سَاعَةِ مُعَيَّنَةٍ ، ثُمَّ عَلِمَ أَنْ عَلَى عَيْنِ الطَّرِيقِ الَّتِي
يَسْلُكُهَا رَوْضَةً تَمْتَقُّ أَغْصَانُهَا ، وَتَشْتَجِرُ أَفْنَانُهَا ، وَأَنْ
عَلَى سَارِهِ غَابَا تَرَأُّ أَسْوَدُهُ ، وَتَعْمُرِي ذُنَابَهُ ، وَتَفْشِحُ أَفْأَعِيهِ
وَصَلَاتُهُ ، فَضَى قُدُمًا لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً خَافَةً أَنْ يَلْهُو عَنْ غَايَتِهِ
بَشَهَوَاتِ سَمِيهِ وَبِصَرِهِ ، وَلَا يَسِرَّةَ خَافَةً أَنْ يَهْبِجَ بِنَظَرَاتِهِ
فَضُولَ تِلْكَ السَّبَاعِ الْمُقْبِيَةِ وَالصَّلَالِ النَّاشِرَةِ ، فَتَمْتَرُضُ
طَرِيقَهُ ، وَأَمَّا عَامَتُهُمْ فَهُمْ يَبِينُ ذِكْرِي قَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ سَلَامَةِ
الْفِطْرَةِ ، وَصَفَاءِ الْقَلْبِ ، وَسَلَامَةِ الْوَجْدَانِ ، مَا يَمْلِكُهُ لاسْتِمَاعِ
الْقَوْلِ وَاتِّبَاعِ أَحْسَنِهِ ، فَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ ، وَضَمِيمٌ قَدْ
حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لَا يَرْضَى إِلَّا عَمَّا يُعْجِبُهُ ، وَلَا يَسْمَعُ
إِلَّا مَا يُضَرِّبُهُ ، فَأَكَلْتُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَسْتَلْهُمُ صَوَابَ
الرَّأْيِ فِيهِ ، حَتَّى يَحْمِلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ بَعْدِ عُسْرِ يَسْرًا مَكْرًا

مصطفى لطفى

المتفاني

الغد

عرفتُ أني فكرتُ ليلة أمس فيما أكتبُ اليوم ،
وعرفتُ أني آخذُ الساعةَ بقلبي بين أناملِي ، وأن يميني
صحيفة يفضأ ، تسودُ قليلا قليلا كلما أجريتُ القلمَ فيها ،
ولكني لا أعلمُ هل يبلغُ القلمُ مداه أو يكبو^(١) دون غايته ،
وهل أستطيع أن أعم رسالتي هذه ، أو يترضَ عارضٌ من
عوارض البحر في سبيلها ، لأنني لا أعرف من شؤون الغد
شيئا ، ولأن المستقبلَ يد الله

عرفتُ أني لبستُ أثوابي في الصباح ، وأنني لا أزال
ألبسُها حتى الآن ، ولكني لا أعلمُ هل أخلعُها يدي أو
تخلعُها يد الغاسل

الغد شبحٌ مبهمٌ يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما

(١) كما سقط على وجهه ،

كان ملكاً رجيماً ، وربما كان شيطاناً رجيماً ، بل ربما كان
سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حلت أجزاءها ،
وبمثير ذراتها ، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي
لم يسبقها وجود

الغد بمح خضم زاهر يمتُّ عجايبه^(١) ، وتصطب
أواجه ، فأيديرك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ،
أو الموت الأحمر

لقد غمض الغد عن المقول ، ودق شخصه عن الأنظار
حتى لو أن إنساناً رفع قلمه ليضمها في خروجه من باب
قصره لا يدري أين ضمها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر
» الغد صدر مملوء بالأسرار الغزيرة ، تحوم حوله البصائر ،
وتسقطه^(٢) المقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا يزوج بسر
من أسرارهِ إلا إذا جادت الصخرة بلباء الزلال

كأنني بالغد وهو كامن في مكنته ، رابض في بحشه^(٣) .

(١) بس عـ رتبع موجه (٢) تسقط الحز الغد شيئاً فشيئاً (٣) جثم الظلم
موضع خنونه في لمة الأرض

متلّفعٌ بفضل إزاره ، ينظرُ إلى آمالنا وأمانينا فخرات المزمز ^{زمن}
والسخرية ، ويتسمُّ ابتسامات الاستخفاف والأزدراء ^{دور} ،
يقول في نفسه لو علم هذا الجامعُ أنه يجمعُ للوارث ، وهذا
الباقى أنه يبنى للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ما جمع
الجامعُ ، ولا بنى الباقى ، ولا ولد الوالدُ))

ذلل الانسانُ كلَّ عتبة في هذا العالم ، فالتخذُ تفقا ^{مزر}
في الأرض ، وصعد بسلْم إلى السماء ، وعقد ما بين المشرق
والمغرب بأسباب ^(١) من حديد ، وخبوط من نحاس ، وانتقل
بعقله إلى العالم العلوى فماش في كواكبه ، وعرف أغوارها
وأنجادها وسهولها وبطائحها ، وعامرها وغامرها ورطبها
ويابسها ، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ، ومسافات
الأشعة ، وللوازين ^{المستعدين} لوزن كرة الأرض إجمالا وتفصيلا ،
وقاص في البحار فحرف أعماقها ، وخصب تربتها وأزعج
سكانها ، وتبش دقاتها ، وسلبها كنوزها ، وغلبها على آلتها .

(١) السبل الجبال وكل ما يؤمل بين النجش

وجواهرها ، وقذ من بين الاحجار والآكام إلى القرون
 الخالية ، فرأى أصحابها وعرف كيف يمشون ، وأين
 يسكنون . وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرب من منافذ
 حواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس
 وضائتها ، والمقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى
 كاد يسمع حديث النفس وديب التي ، واخترق بذكائه كل
 حجاب ، وفتح كل باب . لكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً
 مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لأنه
 باب الله ، والله لا يُطلع على غيبه أحداً ^{حجبتكم}

أيها الشبحُ المَلَمُ بلثام النيب ، هل لك أن ترفع عن
 وجهك هذا اللثام قليلاً لترى صَفْحَةً ^(١) واحدة من صفحات
 وجهك المُقَنَّم ، أولاً ، فاقرب منا قليلاً علنا نستطيع أن
 نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد
 طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك

أيها القدُّ ، إن لنا آمالاً كبراً وصغارا ، وأماناً حسناً ،
وغيرَ حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكنها منك ، وخبرنا
عن أمانينا ماذا صنعتَ بها . آذنتها واحتقرتها ، أم كنتَ
لها من الكرمين ؟

لا لا . من سرك في صدرك ، وأبقِ لثامك على
وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا ، حتى ،
لا نقيمتَ فيها فتصعبنا في أرواحنا وقفوسنا ، فإنا نحن أحياء
بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأمانى وإن كانت
كاذبة :

وليست حياة المرء إلا أمانيا

إذا هي ضاعت فالحيلة على الأثر

الكأس الأولى

كان لي صديقٌ أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء
سريره وصدقته ووفاءه في حالي بملومه وقريره، وغضبه وحلمه،
وسخطه ورمائه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حيا
لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حيا أكثر مما كنت
أبكيه لو كان ميتا، بل أنا لأبكي لإحياته، ولا أمتني إلا
ماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلقة الغريبة في طبائع
النفوس

علقت حبالى بحباله حبة من الزمان عرفته فيها
وعرفنى . ثم سلك سبيلا غير سبيله فأنكرته وأنكرنى
رئسه، حتى ما أثمر ياله . لأن الكأس التى علق بها لم تدع فى قلبه
فراغا يسع غيرها وغير المألوفين بها، وربما كان يدفننى عن
مخيلته دفعا إذا تراءيت فيها . لأنه إذا ذكرنى ذكر معى

تلك الكلمات للمرة التي كنتُ ألقاها في قاعة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في قضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدرَ على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال^(١) ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً ، لأن حياة المدينين حياة متشابهة متماثلة ، لا فرق بين صباحها ومساءها وأمسها وغدما ، ذهابٌ إلى الحانات قتراب ، فخباز^(٢) فنومٌ فذهاب ، كالخلفة المفرغة لا يدري أين طرفها ، والنظرُ المتكرر لا يلفتُ النظر ولا يشغلُ الذهن ، حتى أن بعض من يتلم على دَوْرَةِ الرَّحَى يستيقظ عند سكونها ، وكان أخرى أن يوقفه دوراتها

لتلك لم يشغل هذا المسكينُ عملاً من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته ، وهدأت حركته فلم أعد أراه مرعباً في الحانات ، ولا مطرّحاً في مدارج الطرق ، ولا معتقلاً في أيدي الشرط^(٣) هتالكُ أسألتُ عنه فقيل لي إنه مريض ،

(١) الخبز مباع القرباب (٧) الشرط أعوان الأمير ومعه عرطى وهم الشيء وسكون المراد

فلم أعجب لشيء كنت أعده الأيام والأعوام ، كما يعد
الفلكي الساعات والنقائق لكسوف الشمس واصطدام
الكواكب

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طيبيا ولا عائداً ،
لأنه فقير ، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويطنون
حبّ الصفراء والبيضاء ، والاصدقاء يخافون عدوى المرض
وعدوى الفقر ، فلا يمدون المريض ولا يزورون الفقير

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه ، لأنني لم
أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته
في غرفه وقاعاته ، ولم أر دُخانَ المطبخ ، ولم أسمع ضوضاء
انغمه ، ولا بكاء الأطفال ، ولا رنين الأجراس ، فكأنني
دخلت القبر أزور الميت ، لا المنزل أعودُ الحي

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كاتته البالية -
عن خيال لم يبق منه إلا إهاب^(١) لاصقٌ بمضم^م نأجل^م ،

قلْتُ أَيُّهَا الْخِيَالُ الشَّاهِصُ يَبْصُرُهُ إِلَى السَّمَاءِ ، قَدْ كَانَ لِي
 فِي إِهَابِكَ هَذَا صَدِيقٌ مُعْجُوبٌ فَهَلْ لَكَ أَنْ تَدُلَّنِي عَلَيْهِ ؟
 قُبِعِدَ لَأَيِّ مَنٍّ^(١) حَرَكْتُ شَفْتَيْهِ وَقَالَ : هَلْ أَسْمَعُ صَوْتَ
 فَلَانٍ ؟ قُلْتُ نَعَمْ مَ تَشْكُو ؟ فَزَفَرُ زَفْرَةٍ كَالَّتِ تَتَسَاطَعُ
 لَهَا أَصْلَاعُهُ وَأَجَابَ : أَشْكُو الْكَأْسَ الْأُولَى ، قُلْتُ أَيُّ
 كَأْسٍ تَرِيدُ ؟ قَالَ أُرِيدُ الْكَأْسَ الَّتِي أَوْدَعْتُهَا مَالِي وَعَقْلِي
 وَصِحَّتِي وَشَرَفِي وَهَآنَذَا الْيَوْمَ أَوْدَعَهَا حَيَاتِي ، قُلْتُ قَدْ
 كُنْتُ نَصَحْتُكَ وَوَعظْتُكَ ، وَأَنْذَرْتُكَ بِهَذَا الْمَصِيرِ لَنَدَى
 صُرْتُ إِلَيْهِ فَا أَجَدَيْتُ عَلَيْكَ شَيْئًا ، قَالَ مَا كُنْتُ
 تَعْلَمُ حِينَ نَصَحْتَنِي مِنْ غَوَايِلِ^{فَتَنِي} هَذَا الْبَشَرِ النَّهْكَدِ أَكْثَرَ
 مِمَّا أَعْلَمُ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ شَرَبْتُ الْكَأْسَ الْأُولَى فَخَرَجَ
 الْأَمْرُ مِنْ يَدِي

كَلَّ كَأْسُ شَرِبْتُهَا جَثَّتْهَا عَلَى الْكَأْسِ الْأُولَى ، أُمَامِي

(١) يُقَالُ مَنَعَ مَنًى لَيْتَ مَنًى مَدَّ لَصَدِّهِ وَمَا رَأَى

فلم يَجْهَظْ عَلَى غَيْرِ ضَعْفٍ وَقُصُورٍ عَقْلِيٍّ عَنْ إِدْرَاكِ خِدَاعِ
الْأَصْدَقَاءِ وَالْخُلَطَاءِ

لَمْ تَكُنْ شَهْوَةُ الشَّرَابِ مَرْكَبَةً فِي الْإِنْسَانِ كَبَقِيَّةِ
الشَّهَوَاتِ فَيَمْذَرُ فِي الْإِقْيَادِ إِلَيْهَا كَمَا يَمْذَرُ فِي الْإِقْيَادِ إِلَى
غَيْرِهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْفَرِيزِيَّةِ ، فَلَا سُلْطَانَ لَهَا عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ
أَنْ يَنْتَاقِلَ الْكَائِنَ الْأَوَّلَى ، فَلَمْ يَنْتَاقِلْهَا ؟ يَنْتَاقِلْهَا لِأَنْ
الْعَوْنَةَ الْكَاذِبِينَ مِنْ خُلَاتِهِ وَعُشْرَانِهِ خَدَعُوهُ عَنْ نَفْسِهِ
فِي أَمْرِهَا لَيْسَتْ كَلَمَاتُهَا بِأَنْضَامِهِ إِلَيْهِمْ لَنْتَهُمُ الَّتِي لَا تَمُتُ إِلَّا
بِقِرَاعِ الْكُؤُوسِ وَصُورِ الْجَمَاعِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ كَيْفَ
خَدَعُوهُ وَزَيَّنُوا لَهُ الْخُرُوجَ عَنْ طَبْعِهِ وَمَأْوَفِهِ ، وَأَيَّةَ ذُرِيَّةٍ
وَيَتَرَبَّعُوا بِهَا إِلَى ذَلِكَ لَتَحَقَّقَتْ أَنَّهُ أَثْلَةٌ إِلَى النِّهَايَةِ مِنَ الْبَلَاةِ ،
وَضَعِيفٌ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَهَا غَايَةٌ

أَنَا ذَلِكَ الْأَثْلَةُ وَذَلِكَ الضَّعِيفُ ، فَاسْمَعِ كَيْفَ خَدَعَنِي
الْأَصْدَقَاءُ ، وَزَيَّنُوا لِي مَا يُزَيِّنُهُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ

قَالُوا إِنْ حَيَاتُكَ حَيَاةُ هُمُومٍ وَأَكْدَارٍ ، وَلَا دَوَاءَ لِهَذِهِ

الأدواء إلا الشراب، وقالوا إن الشراب يزيد في رونق الجسم
ويتمتُ نَشِيطُهُ، وإنه يُقَتِّقُ اللسان، ويُلمِّمُ الإنسانَ اليان،
وإنه يشجُّ الجبان، وييمتُ في القلب الجرأة والاقدام،
هذا ما تمته فصدقته وخدعت به .

صدقتُ أن في الشراب أربع مزايا، السادة والصحة
والفصاحة والاقدام، فوجدتُ فيه أربع رزايا، الفقر
والمرض والسقوط والجنون

غرم من الصحة ذلك اللونُ الأحمرُ الذي يتركه
الشرابُ، وراه في الأعضاء، وهو يتنقلُ في الأحشاء،
ومن الفصاحة المنزُّ والمنيان، وهجر^(١) القول وبذاعة^٢
اللسان، ومن الاقدام العريضة التي لا تسكن إلا في غرفة
السجن، ومن السادة اللحظتُ القليلة التي يُنشئ فيها على
عقل الشارب فيسمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء، كما
هي تتمكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة^(٣)

(١) الهر الصبي (٢) الطرفة الملحة المشحة

والصقع تحية ، فيضحك من ذلك ما يضحك الأطفال
والمرورين^(١)

أى سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثمرأ
من ثنور ساكنيه ، أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم
في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات ،
أى سعادة لمن يعيش دائماً في طريقه متلوياً متخلفاً^(٢)
يتسرب في المنطقات والأزقة ، ويموذ بالواد^(٣) الجدر
والأسوار ، فراراً من نظرات الجزار ، وتهكبات المطار ،
وصرحات الخمار

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي
التبسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم
على الإيمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدّر لنفسي القصد
فيه ن قدر في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل
منزلهم ، فلما سررت أخطأ العد وضاع الحساب ، وفسد

(١) مر مرى ومر مره وصلح على المور (٢) مثيا (٣) لود المل
ح ١١٠ جمع جود

التدبير ، واختلفَ التقديرُ وغُلِبَتْ على أُمْرِى كما يُنْلب
 على أمره كلُّ غُدُوعٍ بِمِثْلِ مَا غَدَعْتُ بِهِ ، وَلَوْلَا الْكَاسُ
 الْأُولَى مَا هَلَكْتُ ، وَلَا شَكُوتُ الْفَنَى شَكُوتُ ،
 وَلَوْلَا مَا عَافَيْهِ الْأَصْدَقَاءُ ، وَلَا زَهْدُ الْإِقْرَبَاءِ ، فَكُنْ
 أَنْتَ وَحْدَكَ صَدِيقَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ،
 فَمَاهِدْنَهُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَرَكْنَهُ فِي حَالَةٍ
 تَصِيحُ السَّمِيعِ وَتُمِىِ الْبَصِيرِ وَتُسَالُ مِنْ مِثْلِهَا الْمَافِيَةِ نَهْ



الدين الصغير

الآن تفضتُ يدَيَّ من تراب قبرك يا مَنِيَّ وَعُدْتُ
إلى منزلي كما يعود القائد للنكسرُ من ساحةِ الحرب
لا أملك إلا دمةً لا أستطيعُ إرسالها، وزفرةً لا أستطيعُ
تصيدها

فلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا
الشقاء، في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك، ثم
استلبنيك قبل أن أستغفیه منك، قد أراد أن يُتمم
قضاءه فيّ، وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها، فحرمني حتى
دمةً أرسلها، أو زفرةً أصعدُها، حتى لا أجد في هذه
ولا تلك ما أتفرجُ به مما أنا فيه، فله الحمدُ راضياً وغاضباً،
وله الشاءُ مُنعمًا وسالبًا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه،
والصبر على بلائه

رَأَيْتَكَ يَا بَنَى فِي فِرَاشِكَ عَلِيلاً جَفَزْتَ ، ثُمَّ خَفْتَ
عَلَيْكَ الْمَوْتَ فَفَزَعْتَ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُخَيَّلُ إِلَى أَنْ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ شَأْنٌ مِنْ شُؤْنِ النَّاسِ وَعَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي
تَمْلِكُهَا أَيْدِيهِمْ ، فَلَسْتُ تُرَى الطَّيِّبَ فِي أَمْرِكَ فَكُتِبَ لِي
الدَّوَاءُ ، وَوَعَدْتَنِي بِالشِّفَاءِ ، فَجَلَسْتُ بِجَانِبِكَ أَصَبُّ فِي فَكِّ
ذَلِكَ السَّائِلِ الْأَمْصَرِ قَطْرَةً قَطْرَةً ، وَالْقَدَرُ يَنْزِعُ مِنْ بَيْنِ
جَنْبَيْكَ الْحَيَاةَ قِطْعَةً قِطْعَةً ، حَتَّى نَظَرْتُ فَلَذَا أَنْتَ بَيْنَ يَدَيَّ
جِثَّةٌ بَارِدَةٌ لَا حَرَكَاتَ لَهَا ، وَإِذَا قَرُورَةُ الدَّوَاءِ لَا تَزَالُ فِي يَدَيَّ ،
فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ تَكَلَّفْتُكَ وَأَنْ الْأَمْرَ أَمْرُ الْقَضَاءِ ، لَا أَمْرَ
الدَّوَاءِ

سَأَنَامُ يَا بُنَى بِمَدِّ قَلِيلٍ عَلَى فِرَاشٍ مِثْلَ فِرَاشِكَ ،
وَسَيَعَالِجُنِي الْقَدَرُ مَا عَالَجَ مِنْكَ ، وَأَحْسَبُ أَنَّ آخِرَ
مَا سَبَقَنِي فِي ذَاكَ كَرْتِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ
وَأَطْوَارِهَا ، وَخَطُوبِهَا وَأَحْدَاثِهَا ، هُوَ النَّدَمُ الْعَظِيمُ الَّذِي
لَا أَزَالُ أَكَابِدُ أَلَمَهُ عَلَى تِلْكَ الْجُرْعَةِ الْمَرِيرَةِ الَّتِي كُنْتُ

أَجْرَعَكَ إِيَّاهَا يَدِي وَأَنْتَ تَجُودُ بِنَفْسِكَ فَيَرِيدُ وَجْهَكَ ،
وَتَخْتَبِجُ أَعْضَاؤُكَ ، وَتَدْمَعُ عَيْنَاكَ ، وَمَالَكَ يَدُكَ فَتَسْتَطِيعُ أَنْ
تَمْدَهَا إِلَى لَتْدَفْنِي عَنْكَ ، وَلَا لِسَانُكَ فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْكُوَ
إِلَى مَرَارَةٍ مَا نَذُوقُ

لَقَدْ كَانَ خَيْرًا لِي وَلَكَ يَا بَنِيَّ أَنْ أَكِلَ إِلَى اللَّهِ أَمْرَكَ
فِي سُفَاتِكَ وَمَرْضَاكَ ، وَحَيَاتِكَ وَمَوْتِكَ ، وَالْأَلَّ يَكُونُ
آخِرُ عَهْدِكَ بِي يَوْمَ وَدَاعِكَ لِهَذِهِ الدُّنْيَا تِلْكَ الْآلَامُ الَّتِي
كَنتَ أَجْسَمْتَ إِيَّاهَا ، فَقَدْ صُبِحْتُ أَعْتَقِدُ أَنِّي كُنتَ
عَوًّا لِلْمَقْضَاءِ عَيْثُ ، وَأَنْ كَأْسَ الْمُنِيَةِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا لَكَ
الْقَدَرُ فِي يَدِهِ لَمْ تَكُنْ أَمْرًا مَذَافًا فِي فَمِكَ مِنْ قَارُورَةِ الدَّوَاءِ
الَّتِي كُنتَ أَجْلُهَا لَكَ فِي يَدِي

مَا أَصْبَحَ وَجْهَ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِكَ يَا بَنِيَّ ، وَمَا أَقْبَحَ صُورَةَ
هَذِهِ الْكَائِنَاتِ فِي نَظْرِي ، وَمَا أَشَدَّ ظِلْمَةَ الْبَيْتِ الَّذِي
أَسْكَنْتَهُ بَعْدَ فِرَاقِكَ إِيَّاهُ ، فَقَدْ كُنتَ تَطْلُعُ فِي أَرْجَائِهِ
شَمْسَ شَرْقَةٍ تَضِيءُ لِي كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ ، أَمَّا الْيَوْمَ فَلَا تَرَى

عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك
بكي الباكون والباقيات عليك ماشعوا، وتعبجوا
ما تجمعوا، حتى إذا استغفوا ماء شؤونهم، وضغفت
قوام عن احتمال أكثر مما احتملوا، لجئوا إلى مضاجعهم
فسكنوا إليها، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه
غير عيني قريحتين، عين آيك التاكل المسكين، وعين
أخرى أنت تملها

لقد طال على الليل حتى ملته، ولكني لا أسأل الله
أن يفرج لي سواده عن ياض النهار، لأن الفجيمة التي
فجعتها بفقدك لم تُبق بين جنبي بقية أقوى بها على
رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باق حتى لا أرى
وجه النهار، بل ليت النهار يأتي، فقد ملت هذا
الظلام.

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت

من قبلكما أخويكما ، فأنا في كل يوم أستقبلُ زائرًا جديدًا ،
وأودّع ضيفًا راحلًا ، فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تُلاقى
القلوب ، واحتملَ فوق ما تحتلُّ من فواحس الخطوب
لقد افتقد كلُّ منكم يا بني من كبدي قلقةً فأصبحتُ
هذه الكبدُ للفرقةِ مرقًا مبعثرةً في زوايا القبور ، ولم يبقَ
لي منها إلا ذِمارٌ قليل لا أحسبه باقيا على الدهر ، ولا
أحسبُ الدهرَ تاركه دون أن يذهبَ به كما ذهبَ بأخوانه
من قبل

لماذا ذهبتم يا بني بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم إن كنتم
تطمون أنكم لا تقيمون ؟

لولا عيشتكم ما أسفْتُ على خلوّ يدي منكم ، لأنني
ما عودتُ أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي ، ولو أنكم
بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعتُ هذه الكأسَ المريرة
في سبيلكم

لقد كنتُ أَرْضَى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي

عن طريق التي أسيرُ فيها ، وأن يزوىَ وجهه عنى فلا أراه
ولا يرانى ، ولا يُحسن إلى ولا يُسيء . ولا يتقدم إلى بخير
ولا شر ، ولا يترامى لى مبنسما ولا مقطبًا ، ولا صاحكا
ولا باكيًا ، لو أنه رضى منى بذلك ، ولكنه كان أذكى
قلبا ، وأفدّ بصرا من أن يفوته العلم بأننى ما كنتُ أبكى
على النعمة لو لم تكن فى يدي ، وما كنتُ أجدُ مرارة
فقدانها ، لو لم أفدّ حلاوة وجدانها ، وكان لابدَ له أن
يُجرى فى سنة الشقاء التي أخذ على نفسه أن يجرىها
فى الناس جيما فلما عجزَ عن أن يدخل إلى من باب الطمع
دخل إلى من باب الأمل ، فهو يمنحنى النعمة فأغبطُ بها
حِقبة من الدهر حتى إذا علم أن بفرة الأمل التي غرسها
فى نفسى قد نمت وأزهرت ، وأنى قد استعذبتُ طعمها
واستطبتُ مذاقها ، كرّ على قاتزعها من يدي أنعمَ ما أكون
بها ، كما تُترعُ الكأس الباردة من يد الظلمى المهيان ، ليحظم
وقع السهم فى كبلى ، ويُدح سلبُ النعمة من يدي ،

ولولا ذلك ما نال مني مثالا ، ولا وجد إلى سبيلا
يا نبي إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض
الجنة ، أو على شاطئ غدير من غدرانها ، أو تحت ظلال
قصر من قصورها ، فاذكروني مثل ما أذكركم ، وقفوا
بين يدي ربكم صفاء واحدا كما يقف بين يديه المصلون ،
ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدّها السائلون ، وقولوا
له : اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا
نحبه ، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقى
بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها مالا طاقة له بإحتماله . ولا
نزال نجد بين جوانحننا من الوجد به ، والحزن إليه ، ما ينقص
علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين صممك
وبصرك . وأنت أرحم بنا وبه من أن تمذبنا عذابا كثيرا ،
قالا أن تأخذنا إليه أو تأتينا به إلينا ، بل لا تطلبوا منه إلا
أن يأتي بـ إليكم ؟ فإن الحياة التي كرهتها لنفسى لا أرضاها
لكم ، فمضى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من
دعائى فيرفع هذا الستار المسبّل بيني وبينكم فلتلقى كما كنا

مناجاة القمر

أيها الكوكبُ المَطلُ من عليهِ سماءه ، أنت عروس
 حسناء تُشرف من نافذة قصرها ، وهذه النجومُ المبحرة
 حواليك قلائدُ من جان ، أم ملك عظيمُ جالسٌ فوق
 عرشه ، وهذه الثيراتُ حور وولعان ، أم فصٌ من ماس
 يتلألُ ، وهذا الأفقُ المحيطُ بك خاتمٌ من الأقوار ، أم مرآة
 صافية ، وهذه المائلةُ الدائرةُ بك إطار ، أم عينٌ زرةٌ ثجاجة ،
 وهذه الأشعةُ جداولُ تتدفق ، أو تنور مسجور ، وهذه
 الكواكبُ شررٌ يتألق ؟؟؟

أيها القمر المنير :

إنك أغرت الأرضَ وهادها ونبجادها ، وسهلها
 ووعزها ، وعامرها وغامرها ، فهل لك أن تشرق في نفسي

فتتير ظلمتها، وتبدد ما أظلمها من سُحبِ الهموم والأحزان
أيها القمر المنير:

إن بيني وبينك شبهاً واتصالاً، أنتَ وحيدٌ في سمائك
وأنا وحيدٌ في أرضي، كلانا يقطعُ شوطه صامتاً هادئاً
منكسراً حزيناً، لا يلوى على أحد، ولا يلوى عليه أحدٌ،
وكلانا يبرزُ للآخر في ظلمة الليل فُتُسايرُهُ ويناجيه، يراني
الرائي، فيحسبني سعيداً لأنه يفتقر باقِسمامة في ثنري، وطلاقةٍ
في وجهي، ولو كُشف له عن قسَى ورأى ما تنطوى عليه
من الهموم والأحزان، لبكى له بكاء الحزين، إثر الحزين،
ويراك الرائي فيحسبك مُمتبِطاً مسروراً، لأنه يفتقرُ بحال
وجهك، ولمعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كُشف له
عن عالمك لَرآه عالمًا خراباً، وكوناً ياباً، لا تهبُّ فيه ريح
ولا يتحركُ شجر، ولا ينطقُ إنسان، ولا ينعَم حيوان
أيها القمر المنير:

كان لي حبيبٌ يملأ قسَى نوراً، وقلبي لنةً وسروراً،
وملأ كنتُ أناجيه ويناجيني بين مملك وبصرك، وقد

فرق النهرُ بيني وبينه ، فهل لك أن تُحدثنى عنه وتكشف
لى عن مكان وجوده ، فربما كان ينظرُ إليك نظرى ،
ويُناجيك مُناجأتى ، ويرجوك رجلى

وهأنذا يُخيلُ إلى أنى أرى صورته فى مرآتك ، وكأنى
أراه يبكى من أجلى كما أبكى من أجله ، فأزدادُ شوقاً إليه ،
وحزناً عليه ، فأبقى فى مكانك طويلاً نطُلُّ وقتنا ، ويدُم
اجتماعنا

أيتها القمر المنير :

مالى أراك تنحدرُ قليلاً قليلاً إلى مغربك كأنك تريد
أن تُهارقنى ؛ ومالى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض
شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيفُ المسلول الذى يلعبُ من جانب
الأفق على رأسك ؟

قف قليلاً لاتنب عنى ، لاتهارقنى ، لاتتركنى وحيداً ،
فانى لأعرفُ غيرك ، ولا آنسُ بمخلوق سواك

آه لقد طلع الفجرُ قهارقى مؤنسى ؛ وارحل عنى
صديقى ، فتى تنفضى وحشة النهار ، وتقبل إلى أنس الظلام .

أبن الفضيلة

قرأتُ في بعض الروايات أن قتي قضي حقيقةً من
 دهره مولماً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته،
 وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها
 في صور البشر، فلما استقرت في مخيلته تجسست في عينيه
 فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه،
 وذهب به كل مذهب، فأنشأ يُفتش عنها بين سمع الأرض
 وبصرها أعولاً طوالاً حتى وجدها

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنني أنا ذلك
 الفتى بعينه، لأفرق بيني وبينه إلا أنه يُسمى صالته الفتاة
 وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدتها، وقنشتُ عنها
 حتى عيّنتُ بأمرها فنا ووجدتُ إليها سبيلاً
 قنشتُ عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر

لصاً في أثواب بائع ، وجدته يبيعني بدينارين مائتته ديناراً
واحد ، فعلمتُ أنه سارق للدینار الثاني ، ولو وكلّ الحقّة
أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص الدرام ، وأغفل
لصوص الدنانير ، مادام كلّ منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه
أنا لا أنكرُ على التاجر ديمّة ، ولكنّي أنكر عليه أن
يتناول منه أكثر من الجزاء الذي يستحقّه على ما بذل من
جهده في جلب السلعة وما أتفق من راحته في سبيل صونها
وإحرازها وكلّ ما أعرف من الفرق بين حلال المألوس حرامه
أن الأول بذلُ الجِدّة والعمل ، والثاني بذلُ الغش والكنب
فتشتُ عن القضيّة في مجالس القضاء فرأيتُ أن
أعدلَ القضاة من يحرص الحرس كلّهم على أن لا يهفوا
في تطبيق القانون الذي ين يديه هفوة يُحاسبه عليها من
منحه هذا الكرسيّ الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه ،
أما إنصافُ المظلوم والضربُ على يد الظالم وإراحة^(١)

(١) أراج الحق من أمه الله إليه

الحقوق على أهلها وإزالُ العقوبات منازلها من الذنوب فهي
عنده ذبولٌ وأذنب لا يَأْبَهُ^(١) لها، ولا يحتفل بشأنها، إلا
إذا أشرق عليها النكوكبُ بسعده فشت مع القانون
في طريق واحد مصلوفةً واتفاقاً، فاذ اختلف طريقتاهما
بين يديه حكم بغير ما يعتد، ونطق بغير ما يعلم، ودان البريء
وبرأ المجرم، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرتة
إليه حكم القانون عليه، كأنما يريد أن يحمل العقل أسيرَ
القانون، وما القانونُ إلا حسنة من حسنات العقل وصيغة
من صنائعه

فتشتُ عن القضية في قصور الأغنياء فرأيتُ الننى
إما شحيحاً أو متلافاً، أما الأولُ فهو كان جاراً لبيت فاطمة
رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولدَيْها من
الجوع ما مده أصبعيه إلى أذنيه ثقةً منه أن قلبه المتحجرَ
لا تنفقه أشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسجت الاحسان،

(١) لا يَأْبَهُ: لا يهتم به ولا يلاحظ.

وأما الثاني فأنه بين الثَّغْرَيْنِ، ثَمَرِ الحَسَنَاءِ، وثمر الصَّيَاهِ،
ضَلَى يدَ أَى رجلٍ من الرِّجْلَيْنِ تدخلُ الفَضِيلَةُ قِصُورَ
الْأَغْنِيَاءِ؛

فَقَشْتُ عَنْهَا فِي مَجَالِسِ السِّيَاسَةِ فَرَأَيْتُ أَنَّ الْمَاهِدَةَ
وَالِاتِّفَاقَ وَالْقَاعِدَةَ وَالشَّرْطَ أَفْظَافٌ مُتَرَادِفَةٌ مَعْنَاهَا الْكَذِبُ
وَرَأَيْتُ أَنَّ الْمَلِكَ فِي كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، كَالْحَوْذَى فِي كُرْسِيِّ
عَرَبَتِهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنَّ هَذَا يَنْقُضُ « تَعْرِيفَتِهِ »،
وَذَلِكَ يَنْقُضُ مُعَاهَدَتَهُ، وَرَأَيْتُ أَنَّ أَعْدَى عَدُوِّ الْإِنْسَانِ
الْإِنْسَانُ وَأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ قَدْ أَعْدَتْ فِي مَخْلَزِنِهَا وَمُسْتَوْدَعَاتِهَا
وَقِي بَطْلُونُ فَلَاحِهَا وَعَلَى ظُهُورِ مُسَفِّهَا وَفَرَقِ مَتُونِ طِيلَارَاتِهَا
مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُجْعِلَ لِأَخْتِيَا مِنْ مُجْبِبِ الْمَوْتِ وَأَفَانِينَ
الْعَذَابِ، حَتَّى إِذَا وَقَعَ الْخُلْفُ بَيْنَهُمَا عَلَى حَدِّ مِنَ الْحُدُودِ
أَوْ جِدَارٍ مِنَ الْجُدُورِ لِبَسِ الْإِنْسَانُ قُرُوءَ السَّيِّئِ وَاتَّخَذَ لَهُ
مِنْ تِلْكَ الْعُدَدِ الرَّجْشِيَةِ أَظْفَارًا كَأَظْفَارِهِ، وَأَنْيَابًا كَأَنْيَابِهِ،
فَشَجَّزَ الْأَوَّلَ، وَكَثَّرَ عَنِ الْآخَرِ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَى وَلَدِ أَبِيهِ
بِرَّكَزٍ /

وأمة هجمة لا يعودُ منها إلا بنفسه التي بين جنبيه ، وإنك
لو سألتَ الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ، وعلاكم
تقتلان ، وما هذه الوجدة التي تحملها بين جنبيكما ، ومتى
ابتدأت الحصومة بينكما ، وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما إلا
في الساعة التي اقتتلتا فيها ؟ لعرفت أنهما غدوعان عن نفسيهما
وأتهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضما دُرّة في تاج الملك ، أو
لنيشاناً على صدر القائد

(١) قنشتُ عنها بين رجال الدين فرأيتهم إلا من رحم الله
يتجرون بالقول في أسواق الجهل ، رأيت كلاً منهم قد
ثغر له في كل رأس من رموس البشر قفرةً ينحدرُ منها إلى
الأخلاق فيفسدها ، والمشاعر فيقتلها ، ليتوسلَ بذلك إلى
النخائر فيسرهما ، ولتخرّاب فيسلها

قنشتُ عنها في كل مكان أعلم أنه تُربتها وموطنها فلم
أعثر بها . فليت شعري هل أبجدها في الحانات والمواخير ، أو
في مقاربات الصوص . أو بين جدران السجون ؟

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب في حكمه ،
وجاوز الحد في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور
الكثير من الناس ضميراً رحيماً ، ومورداً عذياً ، وإنى قائل
لهم قبل أن يقولوا كلمهم إنى لا أنكر وجود الفضيلة ،
ولكنى أجهل مكانها ، فقد عقد رايه الناس أمام عيني سحابة
سوداء أنظلم لها بصري حتى ما أبجد في صفحة السماء نجماً

لامعاً ولا كوكباً طالعاً))

كل الناس يدعى الفضيلة وينتطحها ، وكلهم يلبس لباسها
ويرتدى رداءها ، ويمسح بها عنديها من منظر يستهري الأذكياء .
والأغبياء . ومظهر يندع أسوأ الناس بالناس غلبه فن لي
بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل !

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياء
وطيبها ، وغطتها ونعيمها . فسعادتى فيها أن أعتز في طريق
في يوم من أيام حياتى بصديق يصدقنى الوذ وأشدته ،
فثقتهم منى وحى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراء
مطلق كره

من مأرب وأغراض ، وأن يكون شرف النفس فلا يقطع
 في غير مطمع . شرف القلب فلا يحملُ حَقْدًا ولا يحفظُ
 وتراً ، ولا يحدثُ نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناسُ
 في محضه ، شرف اللسان فلا يكذبُ ولا يمينُ ولا يُعلمُ
 بغير ولا ينطق بهجر^(١) شرف الحب فلا يحب غير
 الفضيلة ، ولا ينفذ غير الرذيلة

هذه هي السادة التي أتمناها ولكني لا أراها
 في تَهْجَى الرِياضِ الفناء تهفو أشجارها ، وترن
 أطيافها ، وأرى جداولَ الماء تنسابُ بين أنوارها وأزهارها ،
 أنسابَ الأفاعى الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى
 أناملَ النسائم تَمُتُ بِمَشْجَرَاتِ الأوراق ، عبتَ الهواء
 بألبابِ المشاق ، وأسمعُ ما بين صفير البلبال ، وخرير
 الجداول ، نلماتٍ شجية تبلغُ من قعر الإنسان ، ما لا تبلغ
 أوتار العيdan ، فلا يسرق منها منظر ، ولا يُطْرِئُ مسمع ،

لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها نالي التي أنشدتها
 لقد سَجَّ وجه الرذيلة في عيني ، وتقلَّ حديثها في مسمي
 حتى أصبحتُ أتمنى أن أعيشَ بلا قلب . فلا أشعرُ بخيرِ
 الحياة وشترها ، وسُرورها وحزنها

ولولا بُيَّاتٌ صغار يفقدن بقلبي طيبَ العيش
 ونسيمه لفررت من هذا العالمِ الناطقِ إلى ذلك العالمِ
 الصامت ، فأجدُ من الأنس به والسكون إليه ما وجدته
 الذي يقول :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى
 وصوتُ إنسانٍ فكنتُ أطيّر

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس ^{مِسْكِين} قرأته واضعاً يده على بطنه كأنه يشكو الماء، فرأيتُ له الوسائتُ ما باله، فشكا إلى الجوع ^{فَقَاتَرٌ} عنه ^(١) يعض ما قدرتُ عليه ثم تركته وذهبت إن زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير. فسألته عما به فشكا إلى البُطنة ^{البُطْنَةُ} فقلت يا المسكين!! لو أعطى ذلك النني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سُقماً ولا ألماً لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يُشبع جوعته، ويُطفي غيبته ^{يُطْفِئُ}، ولكنه كان محباً لنفسه. منالها بها

(١) يدل قَتَلَ، من مَلَ، يَكْتُبُ كَتَبَ عليه

فَضَمُّهُ إِلَى مَائِدَتِهِ مَا اخْتَلَسَهُ مِنْ صَحْفَةِ الْفَقِيرِ فَمُنِيبُهُ اللَّهُ عَلَى
قَسْوَتِهِ بِالْبَطْنَةِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِعَظْمٍ ظَلَمَ عَلَيْهِ، وَلَا يَطِيبَ لَهُ عَيْشُهُ،
وَهَكَذَا يَصْدُقُ الْمَثَلُ الْقَائِلُ: بَطْنَةُ الْفَقْرِ انتقامٌ لْجُوعِ
الْفَقِيرِ:

مَا ضَنْتِ السَّمَاءُ بِمَلَأَتِهَا، وَلَا شَجَّتِ الْأَرْضُ بِبَنَاتِهَا،
وَلَكِنْ حَسَدَ الْقَوَى الضَّعِيفَ عَلَيْهِمَا فَرَوَاهُمَا^(١) عَنْهُ،
وَأَحْتَجَبَهُمَا^(٢) دُونَهُ، فَأَصْبَحَ فَقِيرًا مُدْمَمًا، شَاكِيًا مُتَعَلِّمًا،
غَرْمَاؤُهُ الْمَيْسِرُ الْأَغْنِيَاءَ، لَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ

لَيْتَنِي أَمْلَكَ ذَلِكَ الْعَقْلَ الَّذِي يَمْلِكُهُ هَؤُلَاءِ النَّاسُ
فَأَسْتَطِيعَ أَنْ أَتَصَوَّرَ كَمَا يَتَصَوَّرُونَ حُجَّةَ الْأَقْوِيَاءِ فِي أَنَّهُمْ
أَحَقُّ بِإِحْرَازِ الْمَالِ وَأَوَّلَى بِإِمْتِلَاقِهِ مِنَ الضَّعَفَاءِ، إِنْ كَانَتْ
الْقُوَّةُ حُجَّتَهُمْ عَلَيْهِ فُلِمَ لَا يَمْلِكُونَ بِهِمْ الْحَقُّ سُلْبَ
أَرْوَاحِهِمْ كَمَا مَلَكُوا سُلْبَ أَمْوَالِهِمْ، وَهِيَ الْحَيَاةُ فِي نَظَرِ

(١) زوى منه حقه منه إياه (٢) احتجب عنهم، إذا حجب بالخص له منه
والخص السوطان وللاول أنه استأثر به

الحى بِأَعْمَنَ فِيمَا مِنَ اللِّقْمَةِ فِي يَدِ الْجَائِعِ، وَإِنْ كَانَتْ حُجَّتُهُمْ
أَنْهُمْ وَرِثُوا ذَلِكَ الْمَالَ عَنْ آبَائِهِمْ فَلَنَا لَهُمْ إِنْ كَانَتْ الْأَبْوَةُ
عَلَى الْمِيرَاثِ فَلَمْ يَرِثُوا آبَاءَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَلَمْ يَرِثُوهُمْ فِي مَظَالِمِهِمْ،
فَلَقَدْ كَانَ آبَاؤُكُمْ أَقْوِيَاءَ فَانْتَصَبُوا ذَلِكَ الْمَالَ مِنَ الضُّعَفَاءِ،
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَرُدُّوا إِلَيْهِمْ مَا انْتَصَبُوا مِنْهُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ
لَا بَدَّ وَرَثَتَهُمْ فَخُذُوهُمْ فِي رَدِّ الْمَالِ إِلَى آبَائِهِ، لَا فِي الْإِسْتِمْرَارِ
عَلَى انْتِصَابِهِ

مَا خَلِدَ الْأَقْوِيَاءُ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ وَمَا أَقْسَى قُلُوبُهُمْ،
يَنَامُ أَحَدُهُمْ مِنْ جَفْنِيهِ عَلَى فِرَاشِهِ الْوَتِيرِ، وَلَا يُقَلِّقُهُ
فِي مَضْجَعِهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ أُنِينَ جَارِهِ وَهُوَ يُرْعَدُّ بَرْدًا وَقُرًّا،
وَيَحْسُ أُمَامَهُ مَائِدَةً حَافِلَةً بِصَنُوفِ الطَّعَامِ قَدِيدَةٍ وَشِوَانِهِ،
خُلُودِهِ وَحَامِضُهُ، وَلَا يُنْقِصُ عَلَيْهِ شَهْوَتَهُ عِلْمُهُ أَنَّ بَنِينَ أَفْرَادِهِ
وَقَوَى رَحْمَةٍ مِنْ تَوَاتُبِ أَحْسَاؤِهِ شَوْقًا إِلَى قُتْلِكَ تِلْكَ الْمَائِدَةِ
وَيَسِيلُ لِمَا بِهِ تَلْفِيفًا عَلَى فَضْلَاتِهَا، بَلْ إِنْ يَنْبَغِي مِنْ لَا تَخَالُطُ
الرَّحْمَةُ قَلْبَهُ وَلَا يَقْدِرُ الْحَيَاءُ لِسَانَهُ فَيُظَلُّ يَسْرُدُ عَلَى مَسْمَعِ

حسرت

الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجواهر وغرفته من الأثاث والرياش ليكسر قلبه ويُنص على عبثه وينفض إليه حياته ، وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته ، وحركة من حركاته ، أنا سعيد لأنني غني ، وأنت شقي لأنك فقير

أحسبُ ^{لهم} لا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخلمونهم في مرافقتهم وحاجاتهم كما يستخلمون أدوات منازلهم ، ويسخرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم ، وسجودهم بين أيديهم ، لا متسوادماء ، كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموم الحياة كما حرموم لذة العيش فيها

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً ، لأنني لا أعتد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان ، وإني أرى الناس ثلاثة ، رجل

يُحَسِّنُ إِلَى غَيْرِهِ لِيَتَّخِذَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ سَبِيلًا إِلَى الْإِحْسَانِ إِلَى
نَفْسِهِ ، وَهُوَ الْمُسْتَبَدُّ الْجَبَّارُ الَّذِي لَا يَفْهَمُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَّا
أَنَّهُ يَسْتَعْبِدُ الْإِنْسَانَ ، وَرَجُلٌ يُحَسِّنُ إِلَى نَفْسِهِ وَلَا يَحَسِّنُ
إِلَى غَيْرِهِ ، وَهُوَ الشَّرُّ الْمُتَكَلِّبُ الَّذِي لَوْ عَلِمَ أَنَّ النَّاسَ السَّائِلِينَ
يَسْتَحِيلُونَ إِلَى ذَهَبِ جَامِدٍ لَقَدْ بَخَعَ فِي سَبِيلِهِ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَرَجُلٌ
لَا يُحَسِّنُ إِلَى نَفْسِهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَهُوَ الْبَخِيلُ الْأَحَقُّ
الَّذِي يُجِيعُ بَطْنَهُ لِيُشْبِعَ صُدُوقَهُ ، أَمَّا الرَّابِعُ وَهُوَ الَّذِي
يُحَسِّنُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُحَسِّنُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَلَا أَعْلَمُ لَهُ مَكَانًا ، وَلَا
أُجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَفْتَنُّ عَنْهُ
الْفِيلَسُوفُ الْيُونَانِيُّ دِيوجِينُ الْكَلْبِيُّ حِينَما سُئِلَ مَا يَصْنَعُ
بِعَصْبَانِهِ وَكَانَ يَدُورُ بِهِ فِي بِيضِ التَّهَارِقَالِ « أَفْتَنُّ عَنْ
إِنْسَانٍ ،

مدينة السعادة

رأيتُ فيما يرى النائمُ أني أمشي في قريةٍ جرداءٍ قد
انبسطتُ رمالُها على سطحها متجمدةً تجمدُ الأمواج
المتكسرة على سطح القاموس^(١) المحيط، وكانت الشمس
قد غلقت^(٢) للآلِيبِ ظم أرقى بطنائها غلاً غير غلى السطيلِ
الذي رسمته يدُ الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسيتي
آدمَ أبَا البشر^(٣) فأوسمتي طولاً، ورسمتني ميلاً

أنشأتُ أمشي لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً،
وأنى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكُها،
وتشاكلت مذاهبها، واقترح ما بين قاصيها ودانيها، حتى

(١) القاموس وسط البحر وسطه (٢) طغى الشمس حيرت الغروب

(٣) دعا لم يكن لهم لؤلؤ من بعده لله ولكن التفتة عجب غداً معنى
على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الضالين)

انحدرت الشمسُ إلى مستقرِّها ، وطار طائرُ الليل من
مَكْمَنِهِ ، وما نشر الظلامُ أجنحته السوداء في الأفق حتى
وجدتني أحيرَ من دمةٍ وجَدَ ، في مثقلة عاشقٍ ، يدفعا الحبُّ
ويعنهما الحياءُ ، لا أعلم هل أنا سرٌّ كامنٌ في باطن الظلماء ،
أو مُحوتٌ مضطرب في أعماق الماء ، وأحيانا كان يخيّل إليّ
أني في منجمٍ من مناجم الفحم فأمدُّ يدي أتلمسُ مجمراته
مخافةً أن أصطلم واحدا منها ، ولم أزل كذلك حتى شعرت
بأن الظلام قد بدأ ينفذ صبغته ، وأن ذراته تتطايرُ ههنا
وههنا . فإذا أنا بين يدي جبلٍ عالٍ كأنما هو جدارٌ قائمٌ يمسك
السماء أن تقع على الأرض ، أو ملكٌ جبارٌ قد لبس من
قرص الشمس التاجَ الأحمر ، ومن شعاعها الرداءَ الأصفر
ولأنسلُ هنالك عما أَلَمَ بقلبي من الهم وعقلى من
الغبال حينما رأيتُ أن صعودَ السماء أقربُ إلى الأملِ ،
من صعودِ هذا الجبلِ . وحرَّتْ بين الإقدام والإحجام ،
فقد رُبدنا من الاستسلام ، لقدور الجماد . ثم رميت بطرفي

فرايتُ بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء
 ناعمة الملمس فاضطجعتُ عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء :
 ضجعة الموت رقة يُستريح الجسم فيها والعيش مثلُ الشهاد
 وما هي إلا غمضة الطرف أن شعرتُ بأنها تتحركُ
 قليلاً قليلاً ثم استقلتُ ثم طارتُ ، فكنتُ أحسبُ أنه
 الموت قد نزل وأنها الروحُ تصعدُ إلى الملاء الأعلى لولا أن
 فتحتُ عينيَ فرايتُ ما كنتُ أحسبه صخرة طائرًا أشبه
 شيء بالنسر في خلقه والقبّة في ضخامتها واستدارتها ،
 واستمرّ ذاهباً بي في أفق السماء ثم رنق لحظة في الهواء ثم
 هبط إلى قبة الجبل ، فأسرعت بالانحدار عنه ، وهناك
 أحسست بسلسيل بارد من الأمل يتسرّب إلى قلبي فيتقنّع
 غلته ، ويُطغى لوعته ، لأنني رأيتُ السفح الثاني ورأيتُ
 بهجة الحياة وزهرة الممران

رأيتُ على البعد خطوطاً أخضرة حول سطور الماء ،
 ورأيتُ الأسكواخ الصغيرة والمقصود العظيمة كأنهما

المصافيرُ السوداء ، والحلمُ البيضاء ، وكان ما ألمّ بنفسى من
 السرور أنساقى ما ألمّ بجسمى من النصب فأنحدت إليها فابلغتها
 حتى رأيتنى فى مزرعة فى وسطها بنية قد وقف على بابها
 شيخٌ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء
 الهيئة فى صور سكان المريح فذُعر منى كما يُذعر الإنسان
 لرؤية الجان ، وما كان القى قلم فى نفسه منى بأكثر مما
 قام فى نفسى منه لولا أنى ألقت الثراب ، وعجبت عود
 العجائب ، فتقدمت نحوه . وكأنما ألهمت لنته غيته
 بها غيائى وهو يقول : ما كنت أحسب أن الشمس تطلع
 على مدينة غير هذه للمدينة ، أو أن فى العالم إنساناً غير هذا
 الانسان ، فازلت أحده وأستدنيه حتى أنسى بي ودعاني
 إلى منزله وخطبنى بنفسه وأهله وقدم لى طعاماً شياً ومهد
 لى مررداً وثيراً^(١) وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من
 هجرتى هذه . فمت نوما هادئاً مطمئناً لا تروغى

فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك
الأسرة الطاهرة الكريمة تصلى إلى الله تعالى صلاة
الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفا واحداً أن يُسرَّ
لها الله عُسرها ، ويسهل أمرها ، ويُصلح شأنها ، ويعمِّق
مَمَوتَها وتَصَرُّها ، فأخذ منظرُها هذا من نفسي مأخذاً
عظيماً فلم أَرُ بداً من الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها ،
والبكاء لبكائها ، وعجبت أن يكون مثلُ هذا الإيمانِ
الخالص راسخاً في قلوب أهل هذه المدينة ولم يُرسل إليها
رسول ، ولم يُنزل عليها كتاب ، فلما فرغنا من الصلاة التفتُ
إلى صاحب البيت وقلت له أراك تميدون فمن تميدون ،
وتصلون فمن الذين تدعون ؟ قال نعبُدُ اللهَ خالقَ هذه
الكائنات ومدبرها ، قلت هل رأيتموه حتى عرفتموه ؟
قال نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته ، رأيناه في السماء والماء

وَالْفَلَكَ الدَّائِرَ ، وَالنَّجْمَ السَّائِرَ ، وَفِي أَجْنَةِ الْحَيَوَانِ ، وَبُذُورِ
 النَّبَاتِ ، وَرَأْيَانِهِ فِي أَنْفُسِنَا وَعُقُولِنَا وَأَرْوَاحِنَا قَبْلَ ذَلِكَ ،
 قُلْتُ وَلِمَ تَعْبُدُونَهُ ؟ قَالَ شَكَرًا لَهُ عَلَى نِعْمَةِ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ،
 وَإِنْ أَحَدُنَا لَعَيْنِيهِ أَنْ يَشْكُرَ لِمَالِكِهِ نِعْمَتَهُ إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ
 بِجُودَةٍ أَوْ أَنْتَمَ عَلَيْهِ بِمَضْغَةٍ فَأَحْرَبَهُ أَنْ يَشْكُرَ مَا نَحْمِلُ الْمَانِعِينَ ،
 وَالْحَسَنَ إِلَى الْحَسَنِينَ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ بَلَغَ الرَّجُلُ
 مَرْنَبَةَ الْمُؤَيَّدِينَ الصَّادِقِينَ ، الَّذِينَ يَمْدُونُ اللَّهُ مَخْطُومِينَ لَهُ
 الدِّينَ ، لَا يَرْجُونَ ثَوَابًا ، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ أَيْنَ
 تَذْهَبُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ؟ قَالَ إِلَى النِّعَمِ الْمَقِيمِ ، أَوِ الْعَذَابِ
 الْأَلِيمِ ، قُلْتُ لِمَ تَرِيدُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، قَالَ لَا أَفْهَمُ مَا يَقُولُ ،
 وَإِنَّمَا أَعْلَمُ أَنَّ إِلَهَ الْحَكِيمِ لَا يَتْرُكُ الْحَسَنَ دُونَ أَنْ يُجَازِيَهُ
 خَيْرًا عَلَى إِحْسَانِهِ ، كَمَا بَأَى عَدْلُهُ أَنْ يَسُوِيَ بَيْنَ الْحَسَنِ
 وَالْمَسِيءِ ، قُلْتُ مَتَى يَكُونُ الْحَسَنُ مُحْسِنًا وَالْمَسِيءُ مُسِيئًا ؟
 قَالَ الْإِحْسَانُ عَمَلُ الْخَيْرِ وَالْإِسَاءَةُ عَمَلُ الشَّرِّ ، لَنَلْكَ لَا تَرَى
 يَتَنَتَا مِنْ يَحْدُثُ نَفْسُهُ بِالْإِضْرَارِ بِأَخِيهِ أَوْ مِنْ يُقْصَرُ فِي دَفْعِ

الأذى عنه ، فقلت في قسى ليت الفقهاء الذين يُنققون
 أعمارهم في الحيض والاستحاضة والمذنب والودى^(١) والحديث
 الأكبر ، والحديث الأصغر ، وليت الكلاميين الذين يسهرون
 الليالى وقرحون المآقى في عينة الصفات وغيرها
 والجواهر والمرضى والحديث والتقدم والودى والتسلسل ،
 وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينزعوا الله في مشيئته
 ويجاذبوه قدرته وينالوه على أمره ونهيه ويزاحمونه في لوحه
 وعلمه يعرفون من سر الدين وحكمته والفرض الذى قال له
 ما يعرف هؤلاء البلاء الأغرار الذين لا يفهمون معنى الجنة
 والنار . ولا يميزون بين الدين والتس

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يبرزنى
 المدينة فأنحدر فى إليها فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة
 ومنزلها متفرقة غير متلاصقة ، وقد أحاطت بكل منزل منها
 حديقة زاهرة ، ورأيت سكانها مكثبين على أعمالهم ، مجدين

(١) الذى والودى نوعان من الله الذى يجرح من الصلب

في شؤونهم، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، ما فيهم فقيرٌ يتسولُ، ولا متبطلٌ يتناب وتملل، وأغربُ ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم، ومطاعمهم ومشاربهم، وهياتهم وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ ألا يوجد فيكم غنى وفقير، وسيد ومسود؟ قال لا ليسيدي، حسب الرجل منا بيت يُؤويه ومزرعة تُفقيه ودابة تحمل أثقاله ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يوجد فينا سيدٌ ومسود، لأنه لا يوجد فينا غنى وفقير، قلت لأبد أن يكون بينكم العجزُ عن العمل والمائلُ الكسلان، قال أما الكسلانُ فلا وجود له ينتنا لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نفره له زلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتطليلهما عن العمل. وما العاجزُ فتحببُ عليه ومُحسنُ إليه، ولا نرى لأنفس في ذلك فضلاً، لأننا إنما نمتحه جزءاً

من القوة التي مَنَحَنَا اللهُ إِيَّاهَا لنعبده بها ، ولا نرى
في وجوه العبادة أفضلَ من مُواساةِ المَاجِزِينَ ، ورحمةِ
البائسين

ولأنه لِيَحْدِثُنِي هذا الحديثِ إِذْ لَاحَتْ لَنَا بَنِيَّةُ نَفْعَةٍ
تَتَأَثَّرُ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْبَنَى بِحَسَنِ نِظَامِهَا ، وَجَمَالِ هِنْدَامِهَا ،
فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ هَلْ أَرَى قَصْرَ الْمَلِكِ ؟ قَالَ لَا ، وَلَكِنَّهُ قَصْرُ
رَجُلٍ يَتَرَبَّصُ بِطُلُوعِ قَدِ خَالَفَ إِرَادَةَ اللهِ وَحُكْمَهُ فَاحْتَجَنَ^(١)
دُونَ عِبَادَةِ أَرْضِهِمْ وَمَالِهِمْ لِيَعْلُو عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَأْثِرَ بِالنِّعْمَةِ مِنْ
دُونِهِمْ ، فَمَضَى اللهُ عَلَيْهِ ، وَقَلْبُ نِعْمَتِهِ رِقْمَةٌ ، وَرَخَاءُ شِدَّةِ
قَاتِهِ مَا أَرَاهُ^(٢) رَائِحَةَ الْعَيْشِ الرَّغْدِ حَتَّى أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى
سَهْوَاتِهَا . وَحَمَلَهَا فَوْقَ مَا تَحْمِلُ طَبِيعَتُهَا ، فَهَا هُوَ ذَا الْيَوْمِ
يُقَاسَى مِنْ آلَةِ الْأَمْرَاضِ وَأَنْوَاعِ الْأَسْقَامِ مَا يَنْقُضُ إِلَيْهِ
الْعَيْشَ ، وَحُجِبَ إِلَيْهِ الْمَوْتُ ، لَمْ يَحِمْهِ قَصْرُهُ ، وَلَمْ يُنْصَرِفْ عَنْهُ
مَالُهُ ، فَهُوَ عِبْرَةُ الْمُتَعَبِّرِينَ ، وَمَوْعِظَةُ السَّابِقِينَ^(٣) فَكَبَّرَ الرَّجُلُ

(١) أَحْبَبَ لِلَّهِ صَمَةً وَأَجْوَدَ (٢) أَرَاهُ هَذَا أَيْضًا وَحْدَهُ رَحِمَهُ (٣) سَبَقَ
الْمُحَلِّقُونَ عَلَى الْمَرْفَعِ فِي حَوَائِجِهِمْ

في ذرعي^(١) وعظم في عيني وأكبرت فيه وفي أمته هذه
 الخلال الشرفية ، والأخلاق المالية ، وقلت في نفسي إن
 مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة
 وأصول التربية وفنون الأدب لتمجذ عن أن تُخرج للناس
 رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم
 وفضائلهم ، وأردت على ذكر المدارس أن أعرف مناهج
 التلميم عندهم فقلت للشيخ هل لك أن تُزيرني مدرسة من
 مدارسكم ، فجبب لسؤالي وقال ما المدرسة ، فكان عجيبي لجوابه
 أكثر من عجيبي لسؤالي وقلت : المدرسة مكان محدود يجتمع
 فيه صغار يتعلمون ، وكبار يعلمون ، قال ما الذي يتعلمه
 الصغار من الكبار ؛ قلت ما يصلح شأنهم وينفعهم
 في معاشهم ومعادهم ، قال وأية حاجة بنا إلى مثل هذا
 الجمع الخاشع في مثل هذا المكان المحدود ، إننا ليس يدى أرحم
 بأبنائنا من أن نكيل أمرهم إلى غيرنا ، فنحن الذين نتولى هذا

(١) كرى درمى مع وقفه عمى

الشأن منهم ، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع لهم
 فيها كيف يرمون البذور وكيف يستقيتونها وكيف يصنعون
 الآلات وكيف يستعملونها ، وفيها نعلمهم كيف يبنون
 منازلهم ، وينسجون ملابسهم ، ويمدون عديمي ، إنا لا نعرف
 علماً غير العمل ، ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام
 حياتنا . ونستعين به على عبادة ربنا ، قلت ألكم حاكم
 يتولى أموركم ؟ قال لنا حكم لا حاكم ، وهو رجل قد وثقنا به
 وبفهمه واستقامته فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض
 لنا من ذلك عارض ، قلت أليس له جند وأعوان يؤيدونه
 ويتولون تنفيذ أحكامه ؟ قال نعم كنا جنده وكنا أعوانه على
 كل من يخالف عليه أو يتردد على حكمه فقد وثقنا به وبجده
 وحسبنا ذلك وكفى ، قلت أليس لمسجن بسجن فيه المجرمين ؟
 قال لا ، حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على
 احتقاره والفرقة به ، وإن أحداً أيؤثر أن يخفضه الطير أو
 يسقط عليه كسف^(١) من السماء على أن يرى نفسه يبعث في

قومه ، صغيراً في قوسهم ، ذليلاً في أعينهم ، لا يرفعون
إليه طرفاً ، ولا يقيمون له وزناً

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا
من الطواف بالمدينة ، ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه ،
فستقبلنا أهله بالبشر والترحاب ، واستقبلوا شيخهم بالتقيل
والمناق . فلم أرفياً رأيت من البيوت في مدُن العالم وقراء
يتأأسد حضا ولا أنعم عيشاً ولا أزوح بالاً من هذا
البيت

تلك هي مدينة السعادة التي يمش أهلها سمداء لا يشكون
ها ، لأنهم قانعون ، ولا يمسون في أنفسهم حقداً ،
لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون
تلك مدينة السعادة التي رأيتها فأحببتها وأحييت
العيش فيها لولا أن الله في خلقه سنة لا تبدل ، وشأننا
لا يتحول ، فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي
في منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ،

فلا السَّهْلُ ولا الحَيْلُ . ولا الشَّيْخُ ولا المَزْرَعَةُ ، ولا
المَدِينَةُ ولا السَّعَادَةُ

ولما تَزَلْنَا مِنْزِلًا طَلَّهُ^(١) التَّنْدِي

أَيْقَانًا وَبِشَائِنًا مِنَ التَّوَرِّ حَالِبًا

أَجَدَّةً لَنَا طَيْبُ الْمَكَانِ وَحَسَنَ

مَنْىً قَتَمِينَا فَكُنْتَ الْإِمَانِيَا



(١) طه أظفر. الطل وهو الشعر المثلل

أيها المحزون.

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن
 يكون لك كما تريد في جميع شؤوك وأطوارك، وألا يبطئك
 ولا يمنعك إلا كما تحب، وتشتي، تجدير بك أن تطلق
 لنفسك في سبيل حزن عنانها كلها فإني ما رب، أو
 استمعى عنك مطلب، وإن كنت تعلم أخلاق الأيام
 في أخذها وردّها، وعطائها ومنعها، وأنها لا تنام عن منحة
 تمنحها حتى تكثر عليها راحة فتستردّها، وأن هذه سئلتها
 وتلك خلقتها في جميع أبناء آدم. سولاه في ذلك ساكن القصر
 وساكن الكوخ، ومن يضطّر بقله هاهنا الجوزاء، ومن ينأى
 على بساط الخبراء. تنفض من حزنك. وكفكف من
 دمعك. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان. وما

مصائبك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان
 أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يترامى
 لك في سماء حياتك فيحلُّ صنيك نُوراً . وقبلك سروراً .
 وما هي إلا كَرَّةُ الطَرْفِ أن افتقدته . فما وجدته ، ولو أنك
 أجملت في أمك ، لما غلوت في حزنك ، ولو أنك أنعمت
 نظرك فيما تراه لك . لرأيت رقا خاطفا ، ما نظنه نجما
 زاهرا ، وهناك لا يبهرك صلوعه . فلا يضجك أقوله
 أسعدُ الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكرَ
 لها . ونظر إليها نظره المستريب ، ورغب في كل ساعة
 رواحها وفنائها ، فإن بقيت في يده هكذا ، وإذا قد أعد
 لفراقها عذته من قبل

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة
 الموت ، ولولا الوثوق بدوام النفي ما كان الجزع من الفقر
 ولولا فرحة التلاق ، ما كانت راحة الفراق

إلى الدير

مسكينٌ ذلك الفتى الذى رأيتُه صباح أمسٍ منزوياً
 فى ركنٍ من الأركان فى أحد الأتنية وقد ظلمت جبينه الوضاح
 سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما هو يشمر أن
 يلمسه بتزوى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يطفئ
 عليه ليمسكه بر جوانحه . ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه
 وشأنه يمضى فى سبيله حيث شاء ، فبعد القلب لا يسكن
 عن الخفقان . ولا يفيق من المموم والأبحزان

سألته ما بالك أبها الصديق ، قال لاشئ ، قلت أنت
 تكنتنى مافى نمسك ولو عرفتى ما كنتنى ، قال ما جهلتك
 مذ عرفتك ، ولكنى أعصيت الله تعالى عهداً مذ خلقت
 ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج

عندك ولا عند أحد من الناس يُرْها من دُلِّي ، قلتُ هبني
طيبيا ، والطيب وإن كان لا يَشْنِي إلا نادرا فإنه يسكن
غالبا ويُعْزِي دائما ، فأنا إن عجزتُ عن معالجتك ، فلا أَعْجُزُ
عن تمزيكك ، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى
التنفس عنه ، وإلا طار بالفقد . طير إن ألهم بالصبر
فأصنى إلى كَلْبِي واستخذى لما وأنشأ يُحدثني حديثا
تأخر به العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول : زوجني أُنَى
منذ سنين من روجة جاهلة غيبة لا تهم من معنى الزواج
إلا أن فيه فضا ، لباتها ورُعبه عيشها ، وإرصاد نفسها ،
وهو يحسب أنه قد أحسن إن بسببه لمجد . وربيبة النعمة ،
ومالكة الدور . وساكنة القصور . أحل إماما ذات مال
وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عليه عمر فله أنى
ما كنتُ أريد أن أكون . حرا أكتب ملاء وروحها
أجدُ يمانني فسا يؤسنى محضرها ، وحشى معيها . وراة
صافية قبة أترأى بها قترى عسى كاهي ، لا تسكدنى وحرا

ولا شر، ولأن أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقا
 في المرتبة العليا من مراتب الصداقة، ومن لي به في امرأه
 تجهل حتى إرضاع طفلها، وليس ثوبها، على أن ثروتها
 ما كانت تقوم بحاجتها، فقد كانت لها خادمات لللباس وأخرى
 لشورها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومُرضع وقهرمانة
 وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يُب^(١) زيارتها، ومؤنساة
 لا يفارقن مجلسها، ولم تكن بمن أنعم الله عليهن بنعمة
 الجمال فكانت تنفق ما يريد على نصف دخلها في الحسن
 المجلوب. والجمال المكذوب، وليتها كانت تفعل أمري
 وتتركني وشأني فاستطيع أن أتأساها وأعد نفسي من
 العزلة تخيلا وتقدير. بل كانت تقيم على من قسها ومن هذا
 الحُفْل لأجب^(٢) المحيط بها حراسا كحراس الليل وجواسيس
 كجواسيس لا تكليز برقبتي مواعيد نظري ومواعيد قدي،

(١) لا يُب أي لا يتركها. (٢) الحُفْل أي الحفلة. و

لتعلم أين مذهب قلبي، ووجه نفسي، فتنازع على من الكوكب
إذا رأيته أنظر إليه . وتكاد تمزق الثوب التي تعلم أني
أحبها أوثره، وتعسبها آفة الوجد أو دمنة الحب إذا رأيته
أثاؤه من آلام عشرتها، أو أبكى لعظم مصيبي فيها، وما
هي بقيرة الحب ولكنها الأثرة^(١)، فتحبها الله وبيع كل
ماتاني به، وأكثر ما كان يفيض منها أنها ما كانت تفتح
على باب الحساب على اللغات والخطوط إلا في الساعة
التي أريد أن أغلو فيها بنفسي أو بكتابي . فأكاد أسمع
بواحد منهما، فإن سكنت أعصها سكوتي، وإن نطقت
أعصها حديثي . وإن قرأت في كتابي طنت أن المؤلفين
ما ألفوا الكتب إلا نكابة بها لا تطيع أن أخذها امتصا
أعتصم به من عاداتها ومسارها، فكان الكتاب في طرها
أعدى أعدائها، وأبغض الأشياء إليها، وجملة القول إنها
ما كانت تستطيع أن تصور إلا أن أفتعلها لتكون طفلة

(١) الآية السادسة، دكتور .

لاهية لآعبة في جميع أطوار حياتها ، وأنه ما خلقني إلا
 لأكون زينة مجلسها ، وذمية^(١) قصرها ، وأداة لمهرها
 ولعبيها ، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطى قسى حقاً من
 حقوقها ، ولا أ بكر لمزاولة أعمالها ، ولا أسألم أحاديثها الطويلة
 الملة التي لا تشتل إلا على قعد الأزياء ، واغتياب النساء ،
 فان وافيت رغبته فذاك . وإلا استعالت في لحظة واحدة
 من إنسان ناطق إلى وحش مفترس . فلا تعرف كلمة مؤلمة
 لا أسمعنيها . ولا تترك وسيلة من وسائل التنقيص لأهجم
 بها على . فسكنت بين ألسنها وعذاب غضبها في شقاء
 حجب إلى الموت وبقي إلى وجه الحياة . وبعد قد رأيت
 أن العيش معها مستحيل فلم أرُ بداً من فراقها ففارقتها وما
 على وجه الأرض تنى أبغض إلى من المجد . ولا أسمع
 في نظري من المال . فت ولكتني لا أزال أراك حزناً
 حتى الساعة . قل نعم لأنني قمضت يدي من الزوجة الجاهلة .

ورحلتُ أفتشُ عن الزوجة المتعلمة. وقلت ليكون لي من
 الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول. بعد
 ما صار لي الخيار. وبعد تلك التجربة وذلك الاختبار.
 فها أنا في الحظّ جاراً ملاصقاً ما زلتُ أسمع مذحلي في جوارى
 أن في بيته فتاة جميلة ما زال يئسني بأمرها حتى خرجها^(١) وأدبها.
 فأصبحت نائمة مدرستها وسيدة أربابها، علماً وفضلاً وتهذيباً
 وأدباً، فاقمتُ بالخير حتى خالطتُ أبها ثم خالطتها فلذا
 المرأة الجليدة من جميع وجوهها، فوقت من نفسي
 أحسن موقع، وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

خلفت الفتاة إلى أيها فالبت أن أخطبني^(٢) فامتلا
 قلبي فرحاً وسروراً وخيل إلى أنني أرى في سما الآمال
 نجماً لامعاً يُنير ظلمة حياتي. وسجلت أن الدهر أنشأ بكفر
 بحسنته، ما أسلف من سيئاته، فإني لكذلك وقد

(١) خرج لاسناد تلميذه عنه وعلقه (٢) قال حلب طلال إلى داور ونحوه
 ي أحده

أعددتُ لبناء بها دُمته ولم يبق بيني وبينه إلا يومٌ واحد
إذا بالبريد قد هجم على هذا الكتاب، فما كهُ فاقْرَأْ، فإن فيه
بقية قصتي، وسرّ نكيتي، ثم ألقِ إلى بكتاب معنون باسمه
ففضضته فوجدتُ فيه بطاقةً تشتملُ على رسم قتي حسن
الصورة والمندام مختصرُ فتاة جميلة وقد ألفتُ برأسها على
كتفه ووجدتُ مع البطاقة كتاباً فقرأتُ فيه ما يأتي :

« علمتُ أنك خطبت فلانةً إلى أبيها وأنتك عما قليل
ستكونُ زوجها ولم يري لقد كذبك نظرك، وخذك من
قال لك إنك ستكونُ سعيداً بها. فلها لن تكونَ لك بعد
أن صارت لغيرك. ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ
بحب عاشقها، فاعدلْ عن رأيك فيها، واقض يدك منها.
وإن أردت أن تعرف من هو ذلك الماشق وتتحقق صدق
جبري وصلاحى إليك في نصيحتي فانظر إلى الصورة
مُرسلق مع هذا الكتاب (التوقيع)

ثم نظرتُ الصورة وفرتُ الكتاب حتى عرفتُ

كل شيء فأحسستُ برعدة تمشي في أمضائي وشعرت
 بسحابة سوداء قد غشيت على نظري لهُول ما ممت ،
 وسوء ما رأيت ، إلا أنني تملسكت قليلاً فأعدتُ إليه كتابه
 وعلت له وهو كل ما استطعت أن أقول : ماذا يعنيك من
 أمر فتاة عاهر بعد ما انكشف لك سرها . وظهرت
 لك حقيقتها ولو كنت مكانك لعدلتُ عن الحزن على موتها ،
 إلى الاستغفار من خبتها ، وحمد الله على ما ألهم من صواب
 الرأي فيها . أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن
 فإني لا أرى لك إلا أن تترهب وتترب^(١) وأن تقول ما قاله
 « حملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرّف حقيقة المرأة
 وأدرك خبيثة نفسها « إلى الدبر ، إلى الدبر »

(١) حرب إلى طين عمر ٧١ مروج

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر .
لأنني أريد أن أخطب القلبَ وجهاً لوجه ، ولا سبيل إلى
ذلك إلا سبيل الشعر

إن البذور تُلقى في الأرض فلا تنبتُ إلا إذا حرث
الحارثُ ترابها ، وجعل عاليها سافلها . كذلك القلبُ لا تبلغُ
منه العظةُ إلا إذا دخلته . ونخلتُ أجزائه وبلغتُ سؤداده ،
ولا محراثَ للقلبِ غيرَ الشعر

أيها الرجلُ السعيدُ كن رحيماً ، أشعرُ قلبك الرحمة .
يُمكن قلبك الرحمةَ بيمينها

ستقول : في غير سعيد لأن بين جنبي قلباً مليئاً به من
الهم ما يُبدِ بغيره من القلوب . أجل فليكن ذلك كذلك ،
ولكن أضف الحائِةَ والكسِ الماري وعرة المزود وفرج

كربة للسكروب. يكن لك من هذا المصروع البائس خير
عزاء يُعزىك عن همومك وأحزانك. ولا تسجب أن
يأتيك النور من سواد الحلك. فالبدو لا يطلع إلا إذا شق
رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مبدى الظلام

انقد بليت للذات كلها وورثت حبلها، أصبحت أثقل
على النفس من الحديث المباد. ولم يبق ما يُعزى الإنسان
عها إلا لقة واحدة هي لقة الإحسان

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب، ونعمة ثنائيه
ومحمد أوسع في السمع من العود في هزجه ورماله^(١) وأعدب
من نجات ممبدى الثقل الأور^(٢)

أحسن إلى الفقراء والبائسين. وأعدك وعداً صادقاً
أنك ستستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع
من يحدث جازه عنك من حيث لا تعلم عما فكك. أنك
أكرم مخلوق وأشرف إنسان، ثم يقب الثناء عليك بالدهاء

(١) المرجع والمبدى بوطى من اللوسيقى (٢) منه أحد صكاد لمس واحد
لأموى والثقل لأزول صرب من صروب تده

لك أن يحزنك الله خيراً بما فعلت ، فیدعو صاحبه بدعائه ، ويرجو برحمته ، وهناك تجد من سرور النفس وجورها هذا الذكر الجليل في هذه البيئة الخالقة ما يحذو الصالحون إذا ذكروا في الملا الأعلى

ليتك تبكى كلما وضع نظرك على محزون أو مفؤود^(١)
فتبسم سروراً ببكائك ، واقتبلا بدموعك . لأن الدموع
التي تتحد على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور
من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان
إن السماء تبكى بدموع النمام ، ويحقق قلبها بلمعان
البرق ، وتصرخ بهدير الرعد ، وإن الأرض تنهز بحفيف الريح
وتضج بأمواج البحر ، وما بكاه السماء ولا أتت الأرض إلا
رحمة بالإنسان . ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأتيناها
إن اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق
الدماء والتي تشرح الصدور أترقب من التي تبقر البطون .

(١) مؤدود ومفؤود .

فالحسنُ أَفْضَلُ من القائد، وأشرفُ من المجاهد، وكَمِ يَنْ
 من يُجِىءُ اللَّيْتَ ومن يَمِيتُ الحَيَّ
 إِنْ الرَّحْمَةُ كَلِمَةٌ صَغِيرَةٌ وَلَكِنْ بَيْنَ لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا مِنْ
 الْفَرْقِ مِثْلُ مَا بَيْنَ الشَّمْسِ فِي مَنَظَرِهَا، وَالْخَمْسِ فِي حَقِيقَتِهَا
 إِذَا وَجَدَ الْحَكِيمُ بَيْنَ جَوَانِحِ الْإِنْسَانِ صَالَتَهُ مِنْ
 الْقَلْبِ الرَّحِيمِ وَجَدَ الْمَجْتَمِعُ صَالَتَهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ
 لَوْ تَرَأَى النَّاسُ لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ جَانِحٌ وَلَا عَارٌ وَلَا مَذْبُوحٌ
 وَلَا مَهْضُومٌ، وَلَا أَقْرَبُ الْجَفْوَةِ مِنَ الدَّلَامِيعِ، وَلَا أَمَانَتُ
 الْجَنُوبِ فِي الْمَضَاجِعِ مَوْلَهْتَ الرَّحْمَةُ الشَّقَاءَ مِنَ الْمَجْتَمِعِ كَمَا
 يَحْمِلُ لِسَانُ الصَّبَاحِ مَدَادَ الظُّلَامِ

لَمْ يَخْلُقِ اللهُ الْإِنْسَانَ لِيُقْتَرَعَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ . وَلَمْ يَقْذِفْ بِهِ
 فِي هَذَا الْمَجْتَمِعِ لِيَمُوتَ فِيهِ جَوْعًا ، بَلْ أَرَادَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ
 يَخْلُقَهُ وَيَخْلُقَ لَهُ فَوْقَ بَسَاطَةِ الْأَرْضِ وَتَحْتَ ظِلَالِ السَّمَاءِ
 مَا يَكْفِيهِ مَوْتُهُ ، وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ ، وَلَكِنْ سَلَبَهُ الرَّحْمَةُ
 فَبَنَى لِمَعْنَاهُ عَلَى بَعْضِ وَعَدَرِ الْقَوَى مَا لَمْ يَصِفْ وَاحْتَسَنَ

دونه رزقه فتغير نظام القسمة العادلة، ونشوة وجهها الجميل، ولو كان للرحمة سيدٌ إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل الفرد هو المجتمع وإنما يتعدّد بتعدّد الصور، أتدري متى يكونُ لانسَانِ إنسانًا. متى عَرَفَ هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه بخفق طُبعه خفقان القلوب وسكن أسكونها، فاذا انقطع ذلك السلك الكهربي بينه وبينها فترد عنها وستوحش من نفسه. وإذا كان الأُنسُ مأخذًا^(١) لانسَانٍ لمجتمع فالوحشة مأخذُ الوحش المنقطع وجماع افول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرجل وشقوة الأتقياء في مكان واحد إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملكُ الرحيم، والشيطانُ الرجيم

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والاحسان فلا يفعل. فاذ مشى مشى متدفقا مندكًا^(٢) لا يلوى على شيء، مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا

وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب
 في الضحك سُخرية به ويذاتة ثوبه ودلمة خلقه، وإن من
 الناس من إذا عاثر الناس عاثرهم ليعرف كيف يحتلب
 درتهم^(١) ويمتنع دماهم ، ولا يعلمهم إلا كما يعمل
 شويحاته وبقراه ، لا يُطعمها ولا يسقيها إلا لما يتوقّب من
 الربح في الاتجار بألباتها وأصولها ، ولو استطاع أن يهيم
 بيتاً ليربح حجراً لقمل ، وإن من الناس من لا حديث له
 إلا الدينار ، وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل
 إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيلة لفراره ، بيت
 ليلة حزينا كئيباً لأن يخرزاته ينقصها درهم كان بتحيل
 في يفتله أو يحل في منامه أنه سيأتيه غداً فيقتضله ، وإن
 من الناس من يؤذي الناس لا يحلب نفسه بذلك منفعة
 أو يدفع عنها ضرر بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا

(١) الدرهم هو لها كثر وسيل

يُعرفُ وجهَهُ أو يُضَرِّي^(١) نفسه بالأذى غفافةً أن ينساه
عند الحاجة إليه ، حتى لو لم يبق في العالم شخصٌ غيره لكانت
نفسُهُ مدبَّ عقاربِهِ وغرض سهامِهِ ، وإن من الناس من إذا
كشَف لك عن أُنْيابه رأيتَ الدمَّ الأحمر يترقرقُ فيها ،
أو عن أظافره رأيتَ تحتها مغالبَ حادةٍ لا تسترها إلا
الصورةُ البشريةُ ، أو عن قلبه رأيتَ حجراً صلباً من
أحجار الغرائث لا يبيضُ^(٢) بقطرة من الرحمة ، ولا تتخلَّص
إليه نسمةٌ من العظة

فيا أيُّها الإنسانُ احذر الحذر كله أن تكون واحداً
من هؤلاء فإنهم سباعٌ مفترسة وذئابٌ صارية ، بل أعطك
ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه فربما بداله أن
يأْكُلَكَ فأَكَلَك غير حافل بك ، ولا آسف عليك
أيها الإنسان : إرحم الأرملة التي مات عنها زوجها
وذا تترك لها غير ربيبةٍ صغراء وذموعٍ غزار ، إرحمها قبل

(١) يقال أضرب أو أضربك بالمدح وبضربك باللعن وبضربك بالهزيمة وبضربك بالهزيمة

(٢) من البياض

أَنْ يَنَالَ الْيَأْسُ مِنْهَا وَيَبِثَّ لَهَا بِقَلْبِهَا فَتُؤَثِّرَ الْمَوْتَ عَلَى
الْحَيَاةِ

إِرحمِ الْمَرْأَةَ السَّاقِطَةَ لَا تَزِينْ لَهَا خِلَافَهَا وَلَا تَشْتَرِ
مِنْهَا عِرْضَهَا عَلَيْهَا تَعْجِزُ أَنْ تَجِدَ مَسَالُومًا يَسَاوِمُهَا فِيهِ
فَتَمُودَ بِهِ سَالِمًا إِلَى كَسْرِ يَتِّهَا

إِرحمِ الزَّوْجَةَ أُمًّا وَلَدًا وَقَبِيحَةً يَبْتَئِكُ وَمَرْأَةً تَفْسِكُ
وْخَادِمَةً فَرَاثَكَ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ وَلِأَنَّ اللَّهَ قَدْ وَكَّلَ أَمْرَهَا
إِلَيْكَ وَمَا كَانَ لَكَ أَنْ تُكَذِّبَ بِمَقْتَتِهِ بِكَ

إِرحمِ وَلَدَكَ وَأَحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَى جِسْمِهِ وَنَفْسِهِ فَإِنَّكَ
إِلَّا تَفْعَلْ قَتَلْتَهُ أَوْ أَشَقَيْتَهُ فَكَأَنَّهُ أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ

إِرحمِ الْخَافِلَ لَا تَحْبِسْ فُرْصَةً مَحْزُومَةً عَنْ الْإِتِّصَافِ
لِنَفْسِهِ فَتَجْمَعَ عَلَيْهِ بَيْنُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ . وَلَا تَتَخَذْ عَقْلَهُ
مُسْتَجَرًّا تَرْتَبِّحُ فِيهِ لِيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ

إِرحمِ الْحَيَوَانَ لِأَنَّهُ يَحْمُسُ كَمَا تَحْمُسُ وَيَتَأَلَّمُ كَمَا تَتَأَلَّمُ
وَيَبْكِي بِبُغْدِ دُمُوعٍ وَتَتَوَجَّعُ وَلَا يَكْأَدُ يُبَيِّنُ . إِرحمِهِ وَكَفِّ عَنْهُ

يقول إن الإنسان طُبع على ضرائب لئلا يؤم ألقاها أنه يقبل
يد ضاربه ويضرب من لا يعد إليه يداً

إرحم الطير لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهم في فضاءها
حيث تشاء، وتقع حيث يظيب لها التفريد والتتقير، إن
اندوهمها فضاء، لانهاية له فلا تمتصها حقها فتضمها في محبس
لا يسع مد جناحها، أطلق سبيلها وأطلق ممتك وبصرك
وراءها لتسمع تفردها فوق الأشجار وفي التنايل وعلى
شوامئ الأنهر وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء
فيخيل إليك أنها أجل من منظر الفلك الدائر والكوكب
السيار

أيها السعداء، أحسنوا إلى البائسين والفقراء،
ومسحوا دموع الأشتياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم
من في السماء

رسالة الخمران^(١)

· غفوت إغفامة طويلة لا علم لي بمدتها ولا بما وقع لي فيها ثم صحتُ فرأيت قصي في صحراء مَدِّ البصرِ مكتظة^(٢) بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً، فملتُ أتى بمثل وأه يوم القيامة فساورني^(٣) من اللحم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سنى القيامة وقلتُ من لي بالمعبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأً وجوعاً، ويعترق نحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا فيذ طهره فتماسكت بضمة أشهر ثم لم أجِدْ بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً فزيتُ لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى مصوان عارٍ الختان، وكنف أحمل شهادة التوبى في يدي لأسترحه وألتبس منه الأدن

(١) فخرى رسالة طه في هذا الصدد - - - (٢) بكاء محموم

(٣) ساورة محموم، أي ملته وتلك نصه

بالسُخول قبل انقضاء الحشر، فازلتُ أرقيه بمصائد
 المدح المُسوِّمة^(١) باسمه كما كنت أرقى بأمثالها أمثاله من
 عطاء العاجلة وساداتها فأتبه^(٢) لى ولا فهم كلمة بما أقول،
 فانصرفتُ عنه إلى خازن آخر اسمه زُفْرُ فكان شأنى معه شأنى
 مع صاحبه إلا أنه كان أرقى منه وألين جانباً، فأشار على
 باللهاب إلى النبي الذي أتبه وأفهمنى أن الأمر موكولٌ
 إليه، فمدتُ وبين جنى من الحسرة والألم ما الله عالمٌ به،
 فينا أنا آنخلُ الصفوف، وأزلحمُ الوقوف، إذ وقع نظرى
 على حلقة من النار تحيطُ بشيخٍ هَرِمٍ أنمتُ النظرَ فيه
 فلذا هو الشيخُ أبو على الفارسيُّ النحويُّ وإذا بالمحتفين به
 جماعةٌ من شعراء العرب كلُّهم يخاصمه وكلهم يقيمُ عليه،
 هذا يقول له رويت بيتي على غير وجهه، وذلك يقول أمربته
 على غير ما ردتُ وذهبتُ، فدفعنى الفضولُ كما دفعهم
 إلى النزول في أيديهم ثا فرغنا من الرفع والنصب والزيادة

(١) مسودة خطه (٥١) حـ.

والحذف حتى أدركتُ شوْمَ ما قُلتُ ، وعلتُ أن شهادةَ
التوبة قد سقطتُ ؛ منى في ذلك المعرك ، قُلتُ قبح الله
الشمرَ والإعراب ، واللغة والآداب ، إنها شوْمُ الآخرةِ
والأولى

وقعت أحير من ضبّ في حمارة^(١) قبّل لا أدرى
ما آخذُ ولا أدعُ حتى رميتُ بعطري فلذا بأمر المؤمنين
على بن أبي طالب في ليف من العترة الطاهرة النبوية
فدَلّفتُ^(٢) إليه وأبثنته^(٣) أمرى وأمرَ الشهادة المفقودة
قال : لا عليك ، ألك شاهدٌ بالثبوت ، قلتُ نعم ، فتودى
بشهودى فشهدوا بتوبتى . فقال تربتُ^(٤) قليلا حتى تمرَّ
فاطمة بنتُ محمدٍ فَنَسَأَلَهَا في مُرك . هى نمتُ إلى
أيها بما لا تمتُ به^(٥) وكانت ممن سمع لهم دُخُولُ لجنة
قبل فصل القضاء ، إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم
على أيها ثم تعودُ إلى مستقرها . فانا لكذلك وإد نناد

(١) الحمارة : القفص الذي فيه الحمار (٢) دَلّفتُ : دَلّفتُ (٣) أبثنته : أبثنته (٤) تربتُ : تربتُ (٥) نمتُ : نمتُ

ينادى أن غَضُوا أَبْصَارَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَوْفِقِ حَتَّى نَعْبُرَ فَاطِمَةُ
 بِنْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَرَعَتْ إِلَيْهَا فَرَأَتْهَا رَاكِبَةً
 مَعَ إِخْوَتِهَا وَجَوَارِيهَا عَلَى أَفْرَاسٍ مِنْ نُورٍ وَتَقَدَّمَ مِنْ وَعْدَنِي
 بِسُؤَالِهَا فِي أَمْرِي فَأَجَبْتُ وَعَدَهُ ، فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْرَاهِيمَ
 دُونَكَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ تَمَلُّقُ بَرَكَاتِي فَتَمَلَّقْتُ فَطَارَتْ الْأَفْرَاسُ
 فِي الْهَوَاءِ قَطَعُ الْأَجْيَالَ وَتَنَخَّلُ رُيُوسَ الْقُرُونِ حَتَّى
 وَافَيْنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّفَقَا لِشَهَادَةِ الْقَضَاءِ فَقَصَصْتُ
 عَلَيْهِ فَاطِمَةُ مَا عَلِمْتُ مِنْ أَمْرِي ، فَرَاجَعَ الدِّيْوَانَ الْأَعْظَمَ
 فَوَجَدَ اسْمِي فِي التَّائِبِينَ فَشَفَعَنِي لِي فَعَمِلْتُ فِي رَكْبِ فَاطِمَةَ
 فَرِحَا مُسْتَبْشِرَا وَمَا كُنْتُ أَقْدَرُ أَنْ يَبْنَى عَقِبَةَ
 الصَّرَاطِ . فَلَمَّا وَافَيْتُهُ وَجَدَنِي لَا أَسْتَمْسِكُ عَلَيْهِ لِرَقَّتِهِ ،
 فَأَمَرْتُ فَصْلَةَ جَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا أَنْ نَعْبُرَ مَعِيَ فَأَمْسَكْتُ
 يَدِي . مَشَيْتُ أَرْبَعُ ذَوَاتِ الْيَمِينِ وَذَوَاتِ الشَّامَلِ . وَخَفْتُ
 السَّقُوطَ فَقُلْتُ لَهَا احْمِلْنِي زَفْوَنَهُ ، فَقَالَتْ وَمَا زَفْوَنُهُ ؟
 فَلَمْتُ أَمَا سَمِعْتَ نَوْدَ الْجَحْجَحِ لَوْلَ . مِنْ أَهْلِ كَفْرِ طَاب :

صَلَحَتْ حَالَتِي إِلَى التَّلَفِّ حَتَّى

صَرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَنْقُونَهُ

قَالَتْ مَا صَمْتُ زَنْقُونَهُ وَلَا الْجَمَجُولُ وَلَا كَفَرُ
طَلَبٍ ، قُلْتُ أَلَيْ يَدِي فَوْقَ كَتِفَيْكَ وَأَجْمَلُ بَطْنِي إِلَى
ظَهْرِكَ ، غَضَبْتَنِي وَجَلَّزْتَنِي الصَّرَاطُ كَالْبَرْقِ لِنَاطِفٍ حَتَّى
صَرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَرُمْتُ الْمَخُولَةَ فَوَقَفْتُ رِصْوَانَهُ
فِي وَجْهِهِ وَقَالَ أَيْنَ جَوَازُكَ^(١) قَبَلْتُ^(٢) بِالْأَمْرِ ثُمَّ رَأَيْتُ
فِي دَهْلِيزِ الْجَنَّةِ شَجَرَةً مَصْفُوفَةً فَاحْتَمَيْتُ عَلَى أَنْ يُعْطِنِي
مِنْهَا وَرَقَةً أَعُودُ بِهَا إِلَى الْمَوْقِفِ لَأَسْتَكْتَبَ عَلَيْهَا الْجَوَازَ
فَأَنِّي ، قُلْتُ وَهَذَا مَلِكُ الْهَمِّ عَلَى رَشْدِي وَصَوَابِي أَمَا وَاقِعُهُ
لَوْ أَنَّكَ حَارِسٌ عَلَى أَبْوَابِ السُّكْرَمَاءِ - أَوْ خَارِجٌ لِنُفَرَاتَيْنِ
الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ ، وَلَمَّا وَصَلَ شَاعِرٌ إِلَى دَرَمٍ وَلَا سَائِلٌ إِلَى
سُحُنُوتٍ^(٣) وَلَهْلَكَ الْفُقَرَاءُ وَنَسَا وَحُوعًا ، فَسَمِعْتُ لِإِبْرَاهِيمَ

(١) الجواز مك للسافر (٢) قبل بأمره يرم به ثم يرم به (٣) صح فيه

(٢) لسحوت في الأصل السوي القليل القليل ثم المطلق عن قيس - طلل

عليه السلام حوارى^(١) فجذبني جذبة حصّلتني بها في الجنة
وصاحبي ينظرُ إلى شَرَرَا ، فدخلتُ فرأيتُ ما لا عينُ
رأتُ ، ولا أذنُ سمعتُ ، ولا خطرَ على قلب بشر

رأيتُ أنهاراً من الماء المذهبِ أصفى من أديم السماء ، وأصقلَ
من مرآة الحسناء تنصبُ فيها جداولُ من الكوثر إذا جرعَ
الشاربُ منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوقَ كأسَ الموتِ
مرة أخرى ، ورأيتُ جداولَ تفيض بالراح فيضاً قد زُيّنَتْ
حوافها بأباريق من المسجد . وكوثر من الزبرجد ، فإ
نهلتُ منها نهلةً حتى قلتُ لو كشف لأهل الحاجة عما في هذه
الخزنة من اللذة لآلِشوا بها كدّر . والنشوة التي لا يمتعها
مخار^(٢) ما باعوا طرة منها بكل ما تشتملُ عليه بابل
وطُربُلُك^(٣) من البواصِ^(٤) والدنانير . ولو نظر الأقيسرُ
الأسدَى^(٥) بعين النيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجدِ

(١) حوار : مرحة سكاره (٢) حمر : صديق حميم (٣) حمر : مرادف لعمدة
حمر (٤) حمر : حمر (٥) حمر : حمر (٦) حمر : حمر (٧) حمر : حمر

تلك الكؤوس تلجل من نفسه أن يقول :

افنى تلادى وما جفنت من شَبَب

فرعُ القوازيذ^(١) أفولة الألبرق

وفى تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على مَحوَر
الطيور كالكراكى والطواويس والبط والسندليب ينحدرو
من منافيرها شرباً ، أرق من السراب ، وتسبح فيها أسماك
من الذهب والياقوت

يسمن فيها بأوساط مجنحة^(٢)

كالطير تفتش في جوف خواضها

ورأيت أنهاراً من لبن وأنهاراً من صل لا يدركُ الوم
كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها
وأثمارها

رأيت جميع تلك الآثار مكدرة ثم تثلث في أخرى
مضمرة ، فإذا هي سطور ، من النور ، وأحرف يغشاء ،

(١) القوازيذ جمع قوز وهو قذح يقرأ (٢) مجنحة دجاجة

في صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وعد
المتقون فيها أنهارٌ من ماء غير آسن ، وأنهارٌ من لبن لم يتغير
طعمه ، وأنهارٌ من خمر لثمة للشاربين ، وأنهارٌ من عسل
منصّفى ، ولهم فيها من كل الثمرات »

ظلت أمتي فأأكد أخطو خطوة حتى أرى منظراً
عجيباً يُنسى السابق ويشوق إلى اللاحق ، فوددت لو
طلوت لى الارض طياً فأعجل النظر إلى ما غاب عني من
الجنة وبدائعها . فأأخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى
رأيت بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً
فعلمت أني قد سيمت وأنا الأمانة التي كنت أعتاها
فعلوت ظهره ونمزة نمزة خرج بها خروج الودق^(١) من
السحاب . والسيف من القراب^(٢) . وعلى ما جهدته لم
يشك إلا ما نكاه جواد عترة التبنسئ إليه في قوله :

فأروّز من وضع الفنا ببايه وشكا إلى بعبرة وتحمم

أو ما شكاه جوادُ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ إليه في قوله :

تشكى الكُئيْتُ الحرى لما جهدته

ويقال لو يستطيعُ أن يكلمنا

ذكرتُ أنى وأنا فى الدار الفانية كنتُ أسمعُ بذكر
الذاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرؤلة قاسفُ على
أن لم أكنُ فى زمنهم أراهم وأحضرُ مجالسهم قتلُ ليت
شعرى ما فعل الله بهم فى هذه العمار، وهل سعدوا أو شقوا،
وهل يقبضُ لى من رؤيتهم فى دار البقاء ، ما لم يقبضُ
فى دار الفناء ؟

ثم ربيتُ بطرفى فإذا غارسٌ يحضرُ هرسة^(١) فى الهواء
إحضاراً حتى تقاربنا فهاست الركبُ واختلفت الأعناقُ
فقال أتسبُ ، قتلُ فلان ، ومن أنت يرحمك الله وقد
فعل ، فقال عدى بنُ زيد المبادى ، فلهشتُ وقلت عدى

(١) نسر الغرس لربيع فى عدوه

ابنُ زيد في الجنة بعد الزَّيغ والضلال ، فقال أنا عيسويُّ
وأنت محمدى وليس لصاحبك على أحد حُجةٌ إلا بعد
ظهوره وبلوغِ دعوته ، قلتُ لا نكران ولكن كيف لم
يقعد بك فسقك وشرائك ، وأين استهتارك في قولك :

بكرَ الماذنون في وضح الصبح

يقولون لى أما تستفيق

ودعوا بالصُّبح غرا فجاءت

مينته في عينها أبرق

قال غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلتُ هل لك علمٌ بجماعة
الشعراء والرؤاة قد عثيتُ على الله أن أراه فكنت عُنوانَ
الكتاب وقائعةَ الاجابة ، فقال اصحبتى ، فطارت بنا الخيل .
قلتُ له هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة
من لزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لى عَصْدا
أو ساقا ؟ فنبسه وقال أين يُنهبُ بك نحن في دار
الخلود والبقاء .

مردنا برّوضة من رياض الجنة يحترقها غديرٌ أخرى
على شاطئه جمعٌ كثيرٌ على سُرومقابلين ، أوعى الأرائك
متكئين ، فهوئى صاحبي بغرسه فهوئى هويةٌ وقلنا سلامٌ
عليكم بما صبرتم فثم عقي النار ، فرحبوا بنا وهشوا لقائنا
واتسبنا فتعارفنا ثم أخفوا فيما كانوا فيه فإذا الأسمى
يُنشدُ مروياته وأبو عبيدة يسردُ وقائع الحروب ومقاتل
الفرسان وإذا سيبيو والكسلنى متصافيان بعد أن وقع
بينهما فى مجلس البراسكة ما وقع وأحمد بن يحيى لا يصمر
لحمد بن زيد من الموجد ما كان يصمر ، وأخفت تهب
من ناحية النهار نقعة عطرية ذكرتنى قول الأعشى ميمون
«مثل ربح المسك ذاك ربحها» وعلى ذكر الأعشى ذكرت
«مصرعه وشقابه» وقلب فى نفسى لولا أن فريشا صدته
عن الإسلام لكان اليوم يتنا فى مجلسنا هذا ، فسمعت
ها تقامن ورائى يقول أنا ينكم وفى مجلسكم ، فالتفت فاد
الأعشى ميمون ، فلم أدر من أى مدخله ^(١) «عجب ! أم من

مَدْخَلَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، أَمْ مِنْ مَدْخَلِهِ إِلَى تَقْصِيٍّ ، وَعَلَيْهِ بِمَا هَجَسَ
 فِي صَدْرِي ؟ ضَلَمْتُ أَنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُلْهِمُونَ ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ كَيْفَ
 غُفِرَ لَكَ فَقَالَ سَجَّيْتُ الزَّبَانِيَّةَ إِلَى سَقَرٍ فَرَأَيْتُ فِي عَرَصَاتِ
 الْقِيَامَةِ رِجَالًا يَتَلَاؤُا وَجْهَهُ تَلَاؤُ الْقَمَرِ وَالنَّاسُ يُهْتَفُونَ
 بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : الشَّفَاعَةُ يَا مُحَمَّدُ ، فَأَخَذْتُ إِخْذَهُمْ ، وَهَتَفْتُ
 هَتَافَهُمْ ، فَأَمَرَ أَنْ أُدْنُوهُ مِنْهُ فِدْنُوْتُ فَسَأَلَنِي مَا حُرِّمَتْكَ ؟
 فَقُلْتُ أَنَا الْقَاتِلُ :

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ أَيْنَ يَتِمُّ
 فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدًا
 فَأَلَيْتَ لَا أُرَى لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
 وَلَا مِنْ وَجَعٍ حَتَّى تَلْقَى مُحَمَّدًا
 مَعَ مَا تَنَاقَشِي عِنْدَ بَلْبِ ابْنِ هَاشِمٍ
 تَرَاحِي وَتَلْقَى مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَا
 نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا زَوْنَ وَذِكْرَهُ
 غَايَرُ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَاتِّجَادُ

فقال ما سمعنا منك قبل اليوم ، قلتُ خذني عنك
الناسُ بعد ما شدت راحتي إليك وكنتُ رجلاً أحب
الشرابَ وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه ، فضع لي .
فدخلتُ الحنة على ألا أذوق فيها الحرّ بقتمتُ بالشراب ،
عن الشراب . وبماء الثمر المنضود ، عن ماء العنقود .
ورأيت بجانبه شاباً رقيق الشَّباب فسألتُ عنه فقيل لي
زهيرُ بنُ أبي سُلَيْمٍ فأكدتُ أُصدقُ أنه القاتلُ :

سمعتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يمش

ثمانين حولاً لا أباً لك يسأه

فقلتُ له بئسَ عُرافةً لك ، فقال كنتُ في جاهليتي
أترقبُ مبيتَ عمِّدٍ وأتمنى البقاء حتى أراه لخل بيني وبينه
الموتُ فأوصيتُ به ابني كعباً وبُجيراً . وكنتُ أومن
بالحسابِ فما قضى شيءٌ ما قضى قولي :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومها يكتم الله بعد

يؤخر فيوضع في كلب ويدخر

ليوم الحسب أو يُقْتَم فَيُتَم
وإلى جانب زهير عبيد الأبرص فسأله عن مصير
أمره فقال كتبت لي النارُ فما زال الناسُ يَتَفَوْن بقولي :
من يسألُ الناسَ يَحْرِمُوهُ وسألتُ اللهَ لا يَحْزِبُ
والعذابُ يُخَفَّفُ عني شيئاً فشيئاً حتى خرجتُ ببركة
هذا البيتِ من الجحيم ، إلى النسيم

ذهبنا في الحديثِ كُلِّ مَذْهَبٍ وَذَهَبُ بَعْضُنَا إِلَى
ارتشافِ الحَرِّ ، من التهر ، في آنيةِ الدُّرِّ ، فانتشينا جميعاً
فما أَفْقَنَّا إِلَّا عَلَى حَفِيفِ رَقٍّ^(١) من إوزِ الجنةِ تَزَلُّ بنا ثُمَّ
اتتَفَضُّ عَنْ كَوَاسِبِ أَتْرَابٍ يَنْفِنُ بِالْمَزَاهِرِ وَالْآلَاتِ
الثَقِيلِ وَالْخَفِيفِ وَالْمَرْجِ مَا أَتَيْنَ عَلَى الْأَلْحَانِ الثَّمَانِيَةِ حَتَّى
دَارَتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفُضَاءُ ، وَحَتَّى مَلَكْنَا مِنَ الطَّرِبِ
مَا يَسْتَحْفُ الْخُلُودِ . وَيَطِيرُ بِالْهَمُودِ . وَهَلَّا لَوْ عَلِمَ جَبَلُهُ

(١) لَمْ يَلِجْ مِنْ حَرِّ

ابنُ الأبهيم بما نحن فيه لَقَرَعَ السَّنَّ عَلَى أَنْ يَأْجِ دِينَهُ بِسُرُورٍ
مَحْدُودٍ، وَأَسْ مَحْدُودٌ، وَدَفَّ وَغُودٌ

ذَكَرْتُ جَبَلَةً فَذَكَرْتُ لَذَكَرَهُ النَّارُ، وَغَوْلُهُ تَمَلَّى
د. فَاطَمٌ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ، فَتَمَنَيْتُ أَنْ أُطْلِعَ فَأَرَى
الْمَعْذِينَ كَمَا رَأَيْتُ الْمُتَمَعِينَ، فَأَلْهَمْتُ الْإِنْدَ فَأَشْرْتُ لِصَاحِبِي
فَقَامَ وَقَتٌ وَرَكِبْنَا فَرَسَيْنَا فَطَارَتَا بِنَا حَتَّى اتَّهَمْنَا إِلَى سَوْدِ
الْجَنَّةِ فَرَأَيْنَا عَنْدهُ مِنَ الدَّخْلِ كَوَخَا يَسْكُنُهُ شَيْخٌ رَرِيٌّ
الْهَيْئَةُ فَأَشْرَفْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ لَا تَسْجُبُوا الشَّأْنِي أَنَا الْخَطِيئَةُ وَوَاللَّهِ
لَوْلَا أَنِّي صَدَقْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِي فِي صَوْبِي :

أَرَى لِي وَجْهًا شَوْهَ اللَّهِ خَلَقَهُ

فَقِيحٌ مِنْ وَجْهِهِ وَفِيهِ حَامِلُهُ

لَمَّا دَخَلْتُ الْحَيَّةَ، وَلَمَّا أَذْرَكْتُ كَوَخَا وَلَا جُفْرًا،
فَتَرَكْنَاهُ وَطَلَعْنَا فَمَا رَأَيْنَا أَهْلَ النَّارِ حَتَّى صَجُّوا بِصَوْتِ
وَاحِدٍ « أَنْ أَفِضُوا عَسَا مِنْ مَاءٍ وَمِمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » فَرَأَيْنَا
مُلُوكًا وَأَكَاكِرَ يَتَضَاوَعُونَ^(١) فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَعْلَالِ

(١) يَتَضَاوَعُونَ: يَتَضَاوَعُونَ: يَتَضَاوَعُونَ: يَتَضَاوَعُونَ

ويقولون « ربنا أربعتنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل »
 فيهتف بهم هاتف « أولم نذكركم ما يتذكر فيه من تذكر
 وجاءكم التنذير فنفووا فما للظالمين من نصير »

ورأيت يجاني امرأة تبيثها فاذا هي الخنساء تطلع
 مثلنا قترى رجلا كالجيل الأثم على رأسه شعلة من النار
 فتمتمض وتقول يا صخر هذا تأويل مولى فيك من قبل :
 وأن صخر التأتمة الهداه به كأنه علم في رأسه نار
 ورأيت هناك كثيرا من أمثال امرئ القيس وعنترة
 وعمرو بن كلثوم وصرفه بن العبد ورأيت بشارا بن بُرد
 تفتح عيناه بكلايب من نار وكلما اشتد به الألم رفس إبليس
 برجله وقال له ما كنت لأدخل النار لولا مولى فيك :
 إبليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا ياممشر الأشرار
 النار عنصره وآدم طينه والطين لا يسو سمو النار
 وجزعنا من المنظر فهمتا بالرجوع وإذا إبليس يهتف
 بنا يا أهل الحنء بنوا عني آياكم آدم أتى لم أدخل النار بسببه

حتى أخفْتُ مَعِيَ أَكْثَرَ وَلَهْمَ وَأَفْلَاحَ كِبَرِهِ . فَلَا يَهْنَأُ
 كَثِيرًا بِمَصِيرِي . فَقَلْنَا قَبْجَهُ أَفْقَهُ مَا يَرَالِ يَنْفَسُ عَلَى آدَمَ
 نَعْمَتُهُ حَتَّى الْيَوْمَ فَمَا كَانَ لَنَا مُمْ بِمَدِّ رَجُوعِنَا إِلَّا لِقَاءُ
 أَيْمَانِنَا عَلَيْهِ السَّلَامَ فَلَقَيْنَاهُ فَبَلَّغَنَا الرِّسَالَةَ فَقَالَ وَارْحَمَهُ لَهُ ،
 مَا كَانَ يَنْتَهِي وَيَبِينُ الْإِيمَانَ إِلَّا الْقَلِيلُ ، فَأَرَادَهُ الْحَسَدُ
 فَكَانَ مِنَ الْمُهْلِكِينَ . فَقَبَّلْنَا يَدَهُ وَانْصَرَفْنَا إِلَى مَا أَعَدَّ
 أَفْقَهُ لَنَا مِنْ مُلْكٍ كَبِيرٍ وَجَنَّةٍ وَحَرِيرٍ . وَخُورٍ وَوَلَدَانِ ،
 كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ، حَمَدْنَا أَفْقَهُ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا .
 وَمَا كُنَّا لَنَنْتَهِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ



عبرة الدهر

بني فلان في روضة من رياض بساينته الزاهرة قصرًا
فخماً يتلألاً في تلك البقعة الخضراء تلالؤ الكوكب
المنير في البقعة الزرقاء، وطاول بشرفته السماء، أفلاك
السماء، كأنه نسر محلق في الفضاء، أو قرط معلق في أذن
الجوزاء، وكان شرفاته آذان تقضى إليها النجوم بالأسرار.
وطاقته أبرج تنقل فيها الشمس والأقار

شاده مرمرًا وجلله كلساً^(١) فلقطير في ذراه وكور
ولم يدع ربة لمصور ولا ليقية^(٢) لرسم إلا أجراها
في سقفه وجدرانها. وطاقته وأركانها، حتى ليخيل إلى
السالك بين أهبائه^(٣) وحجراته، ومحاريبه وعرصاته^(٤)

(١) الكلس لصروج من (٢) بقعة النواة صحتها وتحتها الرسم
صالح أحاطه م. (٢) جمع جو وهو البيت للتم ألم البيت
(٣) شرفه م. م. اليم والدمج جمع عرصه وهي ساحة الدار
(٤)

أنه ينتقل من روضة تزهر بالورود الحمراء . والأشجار
البيضاء ، إلى بادية تسع فيها القثب النبراء ، والنخوز
الزرقاء . ومن ملب تصيد فيه الطباء الأسود ، إلى غلب
تصيد فيه الأسود الطباء . وأنشأ في كبرى ساحله ،
وأوسع بلاده ، صهر يحامن المرمر مستديرا يضم بين
حاشيته فؤارة تمر منها الماء ضحدا كأنه سيف عجزد ،
أو سهم مسد ، فيخيل إلى الرائي أن الأرض تثار لنفسها
من السماء . وتقاصها ما أرافت منها من الماء ، تلك
تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تعارب بالسهم والقصب ،
وعرس حول دائرة الصهرينج دولر من سجرت ، مؤنفت
ومختلفات . وغصان ، صنوان وغير صنون . يد رحنها
سائم الأسحار ، رفعت فوق ساط الأهر وتعب
طلال الآثار . ففتت على رصصها لأخبار ، غناء لأعابد
لاغناء الأولر . واتخر فيه لعبه ودينيته " ماس . نه

أَنْ يَدْخَرَ مِنْ فَضَائِدٍ^(١) وَمَقَاعِدَ ، وَوَسَائِدَ وَمَسَائِدَ ،
وَفَرَشٍ وَعَرْشٍ ، وَكَلَلٍ^(٢) وَحَبَلٍ^(٣) ، وَتَمَائِيلَ وَتَهَاوِيلَ^(٤)
وَصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ، كَاللَّهَبِ ، وَأَكْوَابٍ مِنْ بُلُورٍ .
كَالنُّورِ . وَأَقْصَاصٍ لِلْحَيَاثِمِ وَالنُّسُورِ ، وَمَقَاصِيرَ لِلسَّبَاعِ
وَالنُّمُورِ ، وَعَرَبَاتٍ وَسَيَاحِلَاتٍ ، وَجِيَادٍ صَافِيَاتٍ ، وَوَصَائِفَ
وَوَلَائِدَ . تَحِيطُ بِالْمَجَالِسِ وَالْمَوَائِدِ ، إِحَاطَةً الْقَلَائِدَ ، بِأَعْنَاقِ
الْخُرَائِدِ . وَخُدَمَ حِسَانٍ ، تَتَنَقَّلُ فِي التَّرَفِّ وَالْقِيَمَانِ ،
تَتَنَقَّلُ الْوُلَدَانُ فِي غُرَفِ الْجَنَانِ

فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الشِّتَاءِ حَالِكَةِ الْجِلْبَابِ ، غَدَاقِيَّةٍ^(٥)
الْإِهْلَابِ ، أَفَاقِ صَاحِبِ الْقَصْرِ مِنْ غَشِيَتِهِ فَتَحْرُكُ فِي سِرِّيهِ
وَفَتَحَ عَيْنِيهِ فَلَمْ يَرِ أَمَامَهُ غَيْرَ خَلَامِهِ « بِلَالٌ » وَهُوَ خَصِيٌّ
أَسْوَدُ مِنْ ذَوَى الْأَسْنَانِ رَبَاهُ صَغِيرًا وَكَفَلُهُ كَبِيرًا . وَكَانَ
يَجْمَعُ بَيْنَ فَضِيلَتِي الذِّكَاةِ وَالْوَفَاءِ . فَأَنَارَ إِلَيْهِ إِشَارَةَ الْوَالِدِ

(١) الصَّائِغُ صَدَقَ وَهُوَ الْوَسَادَةُ (٢) حَمَلَهُ بِالْكَسْرِ وَهُوَ السَّرَقَاتِيقُ
(٣) حَمَلَهُ صَحَابَ وَهُوَ سِرٌّ مَرُوسٌ فِي حُجُوفِ الْبَيْتِ (٤) التَّهَاوِيلُ
لِلْفُؤُوسِ وَالنُّسُورِ نَابِ تَهْوِيلٍ مِنْ سِرِّهَا (٥) الْغَدَاقِيَّةُ الْبُرْقُ الْأَسْوَدُ وَإِلَيْهِ
عَدَامَةُ شَبْهَةٍ ٤

المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء ، فقام بها فتسند على قوسه حتى
شرب وكأن الماء قد حلَّ عُقْدَةً لسانه فسأله في أي ساعة
من ساعات الليل نحن يا بلال ! فأجابته نحن في المزيغ الأخير
يا سيدي ، فقال ألم تَعدْ سيدُك إلى الآن ! قل لا .
فامتض لمتامسا شديدا وزَقَرَ زفرةً كادتْ تَحْتَرِقُ حجابَ
عليه ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدثُ نفسه ويقول : إنها تعلمُ أي
مريضٍ وأتى في حاجة إلى من يسهر بجاني ويتعهدُ أمري
ويُرَفُّهُ ^(١) عني بعض ما أعالجه ، وليس بين سكان القصر من
هو أولى بي وأقوَى عليَّ منها ، أين وفاتها التي كانت ترعنه
وتقيم لي بكلِّ عرجة من الأيمان عليه : أين حبها التي
كانت تهتف به في مباحها ومسلتها وبكويرها وأمانها
أين النسيمُ الذي كنت أفلبها في أعصاه والعيشُ الرغدُ الذي
كنتُ أرشِفها كئوسه : أأن عِلِمْتُ أني أصبحتُ بين
حيلةٍ لا أرجوها وموتٍ لا أجدُ السبيلَ إليه رِمْتُ ^(٢) في

(١) راعه عنه لحيته وظفره (٢) روم به شدة وصبر به

واستقبلت غلى واستبطأت أجلى واستعالت ضجعى فعى
تفر من وجهى كل ليلة إلى حيث تجذ لذات العيش ومواطن
السرور. آه من العيش ما أطولهُ ، وآه من الموت ما أبعدهُ !!
وما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث حتى هاج
ساكنه واضطربت أعصابه فعادته الحصى وغلى رأسه
بنارها قليلاً القدر بماثها ، فسقط على فراشه ساعة تخرج
فيها من كأس الموت جرعا مريرة يئد أنه لشقاؤه لم يأت
على الجرعة الأخيرة منها

أفاق من غشيته مرة ثانية فلم ير بجانبه تلك التى تسيل
نفسه حسرات عليها . فسأل الخادم ألا تملأ أين ذهبت
سيدتك يا بلال ؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي وألا
تألمها فى بعدها عنك فإن لها عند بعض الناس ديتا فعى
تخرج كل ليلة لتقاضاه . قال ما عرفت قبل اليوم أن بينها
وبين أحد من الناس شيئا من ذلك ، ومتى كان الدائن
يتقاضى دينه فى مثل هذه الساعة من الليل . وهل أعياما

أَنْ تَجِدَ مَنْ يَقُومُ لَهَا بِذَلِكَ فَعَى تَوَلَّاهُ بِنَفْسِهَا : وَهَلَا فَرَعَتْ
 مِنْ أَمْرِ دَيْتِنَا بَعْدَ اخْتِلَافِهَا إِلَيْهِ سِتَّةَ كَامِلَةٍ ؛ قَالَ إِنَّ فِيهَا
 وَبَيْنَ غَرِيْمَا حَسَا مَكْتُوبَا أَنْ يُوْدَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ
 نَجُومًا^(١) فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نَجْمٌ ، عَلَى أَنْ تَتَنَاوَلَهُ يَدَاهَا ، وَأَنْ تَكُونَ
 مَوَاعِيدُ الْوَفَاءِ أُخْرِيَتِ اللَّيَالِ . قَالَ مَا سَمِعْتُ فِي حَيَاتِي
 بِأَغْرَبَ مِنْ هَذَا الدِّينِ وَلَا بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا الصِّكِّ . وَمَنْ
 هُوَ غَرِيْمَا ؛ قَالَ أَنْتَ يَلْسِدِي . فَفَطَرَ إِلَيْهِ نَظْرَهُ الْخَائِرَ
 الْمَشْدُودَ^(٢) وَقَالَ إِنِّي أَكَادُ أَجْنَ لِنَرَاهُ مَا أَسْمَعُ . وَاحْتَسِبُ
 أَنَّكَ هَازِلٌ فَمَا تَقُولُ أَوْ هَازِلٌ . فَعَدَمَانَهُ الْخُلْدُ وَقَالَ وَاقِهِ
 يَلْسِدِي مَا خَزِنْتُ فِي حَيَاتِي وَلَا هَدَيْتُ . أَلَا تَذْكُرُ كَيْفَ
 اللَّيَالِ الطُّوَالَ الَّتِي كُنْتُ تَقْعُصُهَا خَارِجَ الْمَرْزَلِ بَيْنَ شَبْوَةٍ
 تَطْلُبُهَا ، وَكَأْسٍ تَشْرَبُهَا . وَمَلَاعِبَ تُجَرِّدُ فِيهَا أَذْيَالَكَ .
 وَمَرَامِصَ تَهْتِكُ فِيهَا أَمْوَالَكَ . تَارَكََا زَوْجَتَكَ فِي هَدْمِ
 الْفَرْقَةِ عَلَى هَذَا السَّرِيرِ نَشْكُو الْوَحْشَةَ ، وَتَبْكِي الْوَحْدَةَ .

(١) النجوم الاقسط (٢) المشدود المغموش

وتغلب على آخر من البحر شوقاً إليك ، ووجداً عليك ،
 فلا تمود إليها إلا إذا شاب غرابُ الليل . وطار نسرُ
 الصباح ، إنك سلبتها تلك الليالي السالفة فأصبحت غريماً
 فيها فهي تستردّها منك اليوم ليلة حتى تأتي عليها ،
 ذلك هو ذنبها وهذا هو غريمها ، ألا تذكرُ أنك كنتَ
 في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتعليكها عليه
 وهو واقفٌ موقفك هذا في حسرتك هذه يبكي ماتبكي
 وينذب ما تندب ، ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم
 حقه وبأقٍ إلا أن يأخذه عينا بعين وتقدّا بنقد ، فهو
 يفجئك في زوجتك كما كنت تقجّمه في زوجته ويقض^(١)
 مضجك كما كنت تقض مضجعه ، وأنا أعيدك بمهلك
 وإنصافك أن تكون من لواة الدين أو تكون من الظالمين
 قال حسبك يا بلال فقد بلغت مني ، وإن لي في حاضري
 ما يشغني عن ماضى فدع لي ولدي . قال لم يد يسدي

من الوجه إلى بستان فيه حتى الآن ، قال لا أذكر أني كنت
في وجه ما وأين ذهب ؛ إلى الحانة التي يختلف إليها .
ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ،
إنني طالما وقتت بين يديك يا مولاي صارعا إليك أن تحول
بينه وبين خلطاء السوء ، وعشرته الشر حتى لا يمسدوه عليك
فكنت تعرض عني إعرض من يرى أن تدليل الولد
وترقيته ^(١) وإرضاء النان له عنوان من عناوين العظمة
ومظهر من مظاهر الأنفة والحلال . كنت أسألك أن
تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق
الحانة ، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم إنما هو الذي
يرزق منه . وأن ولك عن ذلك من الأغنياء ، فلا شك
من عمل يديك . ولا تبك من جنابة هسك عليك ، فأنت
الذي أرسلته إلى الحانة وأنت الذي أقيته فيها إلى مثل هذه

الساعة من الليل، وأنت التي أبمدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى فصل الليل من خضابه واستعل الميض في مسوده وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين النكلى فقدت واحدها، فقال السيد هات يدك يا بلال واحملني إلى جوار النافذة لا روح عن نفسي بعض ما ألم بها أو أودع إلى جانبها نسيت الحياة، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة فجلس على متكا طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب النيرة من خلال الشجوب المتقطعة. وآهما متحابين متعاطفين لا يتعاتبان ولا يتشاحنان^(١) ولا يشكوان هما ولا يندبان حفظاً، وآهما مويين نشيطين يعمرى دهما في عروقهما صافياً

(١) من المشقة وهي المحسنة والمحمد

متسللا وكأنهما يحاولان أن يخرججا من إهابهما^(١) مَرَحًا
 وشاكًا ، وآهاريصين بما قسم الله لهما من خُشونة اللبس
 وجُشوبة^(٢) المَلَم فلا يتشيان ولا يتنيان ولا ينظران
 إلى ذلك القصر الشامخ المطلّ عليهما نظرات الهم والحسرة
 سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجته :
 والله لو ذهب في هذا القصر برباطه وبساتينه ، وآبائه
 ونَحْوِيته^(٣) ، على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الفادحة
 لفعلت العيش فوق صخرة في منقطع العمرن . على البقاء
 في مثل هذا مكان . ألقى تلك الهموم والأحزان ،
 فقالت لا أحسب أن سيدنا ينجو من حصر هذا المرض
 قد مرّه على حاله تلك عام كامل ، وهو يردّ كل يوم ضعف
 ونحوًا . هل قد علمت أن الطبيب قد معى يده من لرجاء
 فيه وأصر البأس منه ولا عجب في ذلك فانه ما زال يشرف
 على نفسه ويذهب بها مُذهب كاهن حتى قتها . هاب

(١) زعمه (٢) حقه (٣) حقه (٤) حقه (٥) حقه (٦) حقه (٧) حقه (٨) حقه (٩) حقه (١٠) حقه

ما أنشأه . أكانت نفسه عدوةً إليه فبقي عليها هذا الشقاء . وذلك البلاء . قال ما كان عدواً لنفسه . ولا كانت منه عدوةً إليه . ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغروراً ، غره شبابه . وماله . وعزه . وجأحه . ففطن أنه قد أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء . فاصطلق في سبيله لا يلوى على شيء . مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه . قالت أنعلم لماذا يكون حال هذا القصر من حده . قال لا أعلم إلا أنه سيكون لولده . قالت ولكني أعرف أنه سيكون لفلان ، قال إن فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه . قالت إنه ليس لصديق السيد بل صديق السيد فهو ضابط وجهه قبل وفاته ، وزوجها بعد وفاته .

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً وسقط عن كرسيه وهو يقول : أشهد أني من لأشقى . ومزق في عثبته تلك حتى صمخ صخرة الموت وفتح عنه فرأى من يديه هد منظر مخزى الموت :

رأى ولده لأهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر .
 ورأى زوجته تضاحك تراً من أترابها وتمزحها بطرفها
 أن قد حان حينه ودنا أجله ، ورأى صديقه أو ولي عهد
 يأمر في القصر وينهى وتصرف تصرف السيد المطاع ،
 ورأى نفسه يُعالجُ سكرات الموت ويُعدّ عدته للانتقال
 من القصر إلى القبر . وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من
 السماء ويقول أيها الرجل . لو وفيت لزوجك لو فت لك ،
 ولو أدبت لعداء أمرك . ولو أحسفت اختيار صديقك
 ما خانك . ولو رحمت نفسك ما خمرت حياتك . فأنغمض
 عينيه وهو يقول « فتكن مشيئة الله »

وهكذا فارق هذا المسكين حياته معجوعاً بروحه
 وولده . وصديقه ونفسه ، وشتته وقصره .

رب ركب قد آنأخو حواك يسرون الحُرّ بالاء لزلال
 عصف الدهر بهم فاقترصوا وكذك الدهر حال حدحال

أفسدك قومك

يها مجرم لماك الذي يسلب الخزائن نقائسها .
ولأحسام رواسها . لست أحمل عليك من العنب فوق
ما يحتمله دُبُّك . ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك
القاصي الذي صا في حكمه عليك ، لأنني أعتقد أن لك
شركاء في حريتك . فلأندي من ثأصصك . وبن
كنت لا أستطيع أن أعتك

شريكك في الحرية أبوك لأنه لم يتهمدت بالزبه
في مسرته ود يحل ينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيرا
ما كان صحيح^(١) لك إذا رأك هجعت على تربك وضرته ،
ويعفق لك . دني لك فدتكنت من اختلاس درهم من
جيب أخيك . أو تحصف اقمية من يده . فهو الذي عرس

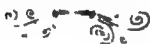
الجريرة في قسك وتهدّها بالسّقيّا حتى أينت ومنت وأثمرت لك هذا الجبل الذي أنت معلق به اليوم ، وهاهو ذا الآن ^(١) يذرف عليك المرات ، ويصعد الرفرات . ولو عرف أنها جريمته وأنها غرس يمينه لصحك مسرورا نغلة الشرائع عنه وسجد لله شكرا على أن لم يكن حبك في عنقه وجاءت لك في يده

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الماسد الذي أغراك بها ، ومهد لك السيل إليها ، فقد كان يسميك شجاعا إذا قتلت . وذكيّا صك إذا سرقت ، وعلم إذا احتلت ، وعاملا إذا خدع ، وكان يهانك هيته للعاصي . ويملك أحلامه للعاصيين ، وكثير ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته وترى وجهها أبيض ، صا فتتقن أن لو دام لك هذا جمال ولو أنه كان يور نصحك ويصدقك الحدث عن نفسك مثل لك حريتك بصورتها الشوهاء .

وهناك رعا وددت نَجْدَعِ الْأَنْفَ لَوْ طَوَاكَ بَطْنُ الْأَرْضِ
 عَمَّا، وَحَالَتِ الثَّيَّةُ مِنْكَ وَبَيْنَهَا
 نَرَكُكَ فِي الْحَرِيمَةِ حُكُومَتُكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ
 حَرِيمَةَ هِيَ الْحَقُّ لِأَحْيَاةٍ مِنْ سِلْسِلَةِ كَثِيرَةِ الْحَلَقَاتِ
 وَكَأَنَّ رَكَّ تَمَسُّكَ بِهَا حَاقَّةٌ حَلَقَةٌ وَتَعْلَمُ مَا سَيَنْتَهِي إِلَيْهِ
 مُرْكٌ فَلَا تَعَصِرْ عَلَى يَدِكَ، وَلَا تَعْتَرِضْ سَبِيلَكَ وَلَوْ أَنَّهَا
 هَمَّتْ لَمَّا حَتَرْتِ، وَلَا وَصَلَتْ إِلَى مَا إِلَيْهِ وَصَلَتْ
 كَانَتْ حُكُومَتُكَ تَسْتَعِصُ بِعَدْلِكَ وَتَهْدِي بِفَسَادِكَ،
 وَتَنْقُصُ بِإِدْرِكَكَ تَوْبَ حُلَامَاتٍ وَمَوْخِرٍ، وَتَنْحَوُّ
 بِسُكُونٍ وَمَحَاضَةٍ لِأَشْرَارِ الْعَادَةِ عَنْكَ وَتَشْرُدُهُمْ فِي عَدَاهِ
 الْأَرْضِ وَمَحَارِمِهَا. وَتَنْتَهِيكَ^(١) عَلَى قَتْلِكَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ
 حَقْدُكَ عَلَيْهِ مَسْغَةً مِنْ هَمَلِكَ وَأَنْ تُحَسِّنَ نَادِيكَ فِي الصَّنِيرَةِ،
 قَبْلَ أَنْ تَعْلَمَ الْكَبِيرَةُ. وَلَكِنَّمَا أَغْفَلْتَ أَمْرَكَ فَتَنَامَتْ
 عَنْكَ وَمَا طَوَّلَ إِلَّا حَتَّى إِذَا هَمَّتْ فَمَلَّتْكَ اسْتَبَقَضَتْ عَلَى

صوت صُراخ المقتول، وشمِرتْ عن ساعدها لثقلَ منظر
من مناظر الشجاعة الكاذبة ، فاستصرختْ جندها .
واستنصرت قوتها . وأعدتْ جذعها وحلادها ، وكان
كلُّ ما فعلتْ أنها أعمتْك حياتك

هؤلاء شركاؤك في الجريمة ، وأصمِّم لو كنت قاصيا
لأعطيتك من العقوبة على مدرّسهم في الجريمة ، ولحملتْ
تلك الحذوءَ قسمةً بينك وبين شركائك ، ولكني
لأستطيع أن أنفكك ، فبأها القتل المظلومَ رحمة الله عليك



الصدق والكذب

حافظ هذا لكتاب من أحد الفضلاء

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق وما وعد الله به الصادق من حسن
الثواب وحريص الآخر وسمعت بالكذب وما أعد الله
للكاذب من سوء العذاب . وأيم العذاب . وقرأت ما كتبه
حكيم الأمم من عهد آدم إلى اليوم وجمعه . صدق
فصيلة المعصيات . والأصل الذي تنفر عنه جميع الأخلاق
التبريمه والعصيات الكريمة . وأنه ما تمسك به متمسك إلا
كان النجس في أعماله ألصق به من ظله وأعلق به من
مسه . سمعت هذا وقرأت ذلك فلا يبق في نفسي ريب
في أن الصدق هو في حقني من الشقاء . وعيشي من

الضنك، وحياتي من المموم والأكدار، إنما جرّه على
شؤم الكذب، وأن ما كنت أُنخِله قبل اليوم من أن هناك
مواقف يكون فيها الكذب أقبح من الصدق وأسلم عاقبة
إنما هو ضربٌ من ضروب الوم الباطل. ونزعة من
تزعّت الشيطان، ضاعبت الله وقسى ألا أكذب
ماحييت. وأعدت لتلك القسم العظيم عذته من شجاعة
نفس وموة عزيزة بعد ما وجهت وجهي إلى الله تعالى وسأله
أن يمدني بموته ونصره

وهناذا ذاكرتك لك مواقف الصدق التي وهبها بمد
ذلك المهد وما رأيته من آثارها ونتائجها

لموقف الأول : جلست في حافتي فواقف في مسود
إلا صدقته القوي في لمن الذي اشترت به سلمه وريح
التي أريد له المصير، والذي لا يستطيع أن أعد مسي
راني إذ تجلوت عن نصه. فيأتي في الحصة (١)

فَأَبَاهَا عَلَيْهِ ، فَيَنْصَرِفُ عَنِ اسْتِقْطَالِ الثَّمَنِ وَاسْتِظْمَامِ
لِقَمَرِهِ ، وَمَا هُوَ إِلَى الرِّبْحِ الَّذِي اعْتَلَّتْ أَنْ آخِذَهُ مِنْهُ
فِي مِثْلِ تِلْكَ الصِّفَةِ ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَكْذِبُ عَلَيْهِ فِي أَصْلِ
ثَمَنِ فَيَعْتَرُ فِي نَظَرِهِ الرِّبْحُ ظِلًّا مَدَّكَتُهُ عَنْهُ أَعْظَمُهُ
وَيَنْصَرِفُ عَنِّي إِلَى سَوَايَ ، وَلَمْ أَتَزَلْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى
أُطْلِيَ اللَّيْلُ وَلَمْ يَمْتَحِ اللَّهُ عَلَى بَقْوَتِ يَوْمِي ، وَمَا هِيَ إِلَّا
يَأْمٌ فَلَا تِلْكَ حَتَّى غَرِمْتُ فِي السُّوقِ بِالصُّعْمِ وَالْمَخَالَةِ فَأَصْبَحْتُ
لَا يَهْرُقُ نَابٌ حَذَوِي طَارِقٌ

وهو الثاني : حاسنتُ في مجلس تصديرة شيخ من
أخبار معون لصيغة معروفين بمسألة تصرف ومدهدح به
جماعة من عبدة وسدنه "هيكلة فسعته يشرح لهم معنى
"توكيد حرجا غريباً يذهب فيه إلى أنه التعمود عن العمل ،
وهذا حال هذا لوجوده على غاربه ، والإعراض عن كل سمي
وذي وسعد في هذيانه هذا على آيات يؤولها

كما يشاء ، وأحادثَ لا يستندُ في صحتها على مُستند سوى
أنه مممها من شيخه . أو قرأها في كتابه ، وأكثر ما كان
يدور على لسانه حديث : « لو توكلتم على الله حق توكله
لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصاً وتروح بطاناً »^(١)
فقلت له وقد أخذ النبط من قسي ما أخذه ياشيخ أردت
أن تحتج لنفسك فاحتجبت عليها ، أتعد إلى حديث
يُستدل به رواته على وجوب السمي والعمل ، فتستدل به
على البطالة والكسل . ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما صمن
للطير الرواح بطاناً إلا بمد أن أمرها بالندو ، وهي التي
تروىها القصرة ، وشبعها الحبة ، فكيف لأمر الإنسان
بالسمي وهو من لا تسمى مضايه . ولا تنتهي رعيته

أيها القوم ، إنكم تقولون بالسننكم ما ليس في علومكم ،
إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم إلى الكسل . وأردتم أن
تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هابن الوصتين فسميت

(١) الخراسان جمع جمع وهو صاحب النص وأما جمع عين وهو مجزئ

ما أنتم فيه توكلا. وما هو إلا المجزُ الفاضح، والاسفَافُ
 الدقي، وهنا رفر الشيخُ زفرة الخيظ ونادى في قومه أن
 أخرحو هذا الرنديقَ الملعون من مجلسي. فتألبوا على تأليبهم
 على فصاع الثريد. وأوسعوني لصا وصفا، ثم رموا بي خارج
 الباب. فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كفت. فما مرت
 بعد ذلك بضاعة من الممة إلا رموني بالنظر الشرر،
 وعاذوا بالله من رؤى كما يعوذون به من الشيطان الرجيم
 نوحف يلى: لا كشمك ياسيدتى في كنت أنفض
 وحق لمصا يتصدع به القنب غير أنى كنت أصانها
 وتودذ إياها وأصحها من ساني. يس به تزي في مدي. مدوبه
 لحدوقه عى، محتوه يفتى من ضبابه مان كانت لها،
 فربك ذلك كذب الكذب وأبعده. فأليت على
 عسى لا أشد مد لوء من دونها حجابا يحول بينها
 وبين سريري، مدوع عن سمعها ذلك السبيل العذب.
 من كلمات حب، فموسو حسب منى. وفتله، ينى وينها، فتا

هي إلا عشيّة أو ضحاها حتى وهنت تلك القعدة وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق ، بآية الطلاق

الموقف الرابع : حضرت مجتمعا يضم بين حاشيته جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجئون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون أن يبشروا دفتن صدورهم ، ويتغلغلوا في أعوارهم^(١) سرارهم ، وينالون في ذلك مغالاة الكيلاني في تحيله وتركيبه . فرأيهم يتناولون بالسنتهم رجلا عظيما من أصحاب الآراء السياسية لا يعتقد أن من السالكين مسلكه والآخذين إخذته من خلص لأمنته خلاصه . ووقف الموقف المشهود وموقفه . أو لاق في ذلك السبيل من سمعات الدهر وضربات الأيام مالا يراه . سمعهم يسمونه خاك فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إلى من أن يتهم البريء ، أو يجازي المحسن سوءا على إحسانه . سمعت ماء

(١) أطول القرب طريحه ومكابر ص

أمكن نفسي معه قتلته يافوه : أظالمون من كتاب
الحرية مائة صفحة ويبدأ^(١) ثم لا تزالون عبيد الأوهام
أترى خيالات سراعاً إلى كل داع ، شمة مع كل ساع ،
نصرون بغير روية ، وتحكمون بغير علم ، إنكم بملككم هذا
ترهقون المحسن في إحسانه ، وتلقون الرعب في قلب كل
عسى يعمل لأحكم ، وتبطلون همه كل من يحدث نفسه
بخدمتكم وحده نصبتكم ، أليس مما يلقي في النفس اليأس
من حاكم ، وصلاح حاكم ، أن تراكم طعمة كل آكل .
وأعنه كل لاعب ، سهويكم الكاذب بالكلمات التي
سهوى بها مرصعت فصحتهن ثم مدعوكم في مذوبة
امصادق فمنعوا لأوب وذكم وبخلامكم . والثاني
نصكم وه وحديكم ، خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها
حير لهم . فأردوا شراً في . فما خلصت من بينهم إلا .
وأنس رشي على لأعد أين مكاب من عتي

الموقف الخامس : قابلي في الطريق شاعرٌ يعمل
 في يده طوماراً^(١) كبيراً وكنتُ ذاهباً إلى موعد
 لأبدلي من الوفاء به فمرص على أن يُسمعن قصيدته من
 طريق شعره ، وأنا أعلمُ الناس بطريقه وتليده ، فاستميتُه
 بعد أن كاشفته بمذري قافي ، فاتحيتُ به ناحية من الطريق
 فأنشأتُ رنمه بالقصيدة بيتاً بيتاً ، وأنا أشعرُ كأنما يجرعني
 السم قطرة قطرة ، حتى تمنيتُ أن لو ضرني بها جملة
 واحدة يكون فيها اقتضاء أجلى ليربحني من هذا العذاب
 المتقطع والتمثيل المفضيح وكأني على بنتٍ منها أهدى على
 وجهه ، وطال النظر في وجهي ، وحدثني عيني ، أعلم
 كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رُئى تعصب وجهي
 فله تعصب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر في شائه
 حتى أشد نحو حمسٍ بيت ، ثم وقف وقال هذا هو القسم
 الأول من قسم القصيدة ، فقلت وكم عدد أسماها رحلت

(١) طومار : صحنه

الله ، قال عشرة ليس فيها أسفر من أولها . قلت أتأذن لي أن أقول لك ياسيدى إن شعرك فيبح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذلك صوتك الخشن الأجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أنى من صحافه الرئى وفساد التوق بحيث يصحى مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل على قوات الغرض لئنى ما خرجت من منزلى إلا لأجله . فتلقانى بضربة يجمع يده ^(١) فى صدرى . فتلقته بمثلها . وما زالت أكفنا أخذ مأخدها من خدودنا وأهانتنا حتى كلف . فرفعت عصاى وضرت به عى راسه ضربة ما أردت بها يده الله إلا أن أصيب مركز الشعر من عنقه فأسده عليه . فسقط منشيا عليه . وسقطت القصيدة من يده . فأرعبت إليها ومزقتها ، وأرحت قصى منها ، وأرحت الناس من مثل صيبتى بها ، وكان الشرطى قد وصل إلينا فاحتملنا جميعاً إلى الخفر ثم فى السجن حيث أكتب إليك كتابى هذا

فيا صاحب النظرات أفتى في أمرى وأزُرْ ظُلْمَةَ قَسَى
فقد أشكل على الأمر، وأصبحتُ أسوأ الناس بالصدق
علناً، بعدما رأيتُ أنى ما وقعتُ موقفه في حياقي إلا خمس
مرات فكانت نتيجة ذلك إفلاسى وخراب بيتى واتهاوى
بالخيانة مره والزندقة أخرى، ذلك إلى ما أقاسيه اليوم
في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأسقام



أيها السجين :

كسبت إلى مسيح الله ما بك، وألهمت صواب الرأى
في حاليك تشكو من جنايه الصديق عليك ما وقف بك
موقف لشك في أمره، وكاد يرائى بك إلى الاعتقاد أنه
رذيلة الرذائل لأفضيلة الفضائل، وما كان لك أن تجعل
للناس هذا السبيل إلى نفسك، وأن يبلغ بك الجرعة من
نكبات العيش وضربات الأيام، مبلغا يذهب مرشدته .

ويطير بلبك ، فما أنت بأول صادق في الأرض ولا بأول
من لقي في سبيل الصديق شراً ، وكابد ضراً

، لك لو همت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على
مرارتها حتى 'صدر لذمت من حلاوتها ما تَقَطَّعَ دونه
عناقُ رجال

'يمت السعي له وسيلة من وسائل العيش أو كسب
المال ، وإنما هي حانه من حالات النفس سمو بها إلى
أرق درجات الانسايه وتبعها غابة الكل

إن الذي يطلب الفعيلة يستكثر بها ماله ويرفه بها
عيشه ، يحتقرها ويردريها . لأنه لا يفرق ، بين سمعه
التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه
مبزاناً يزن به أخلاقه ، فإن اتسع عيشه طمانتها . وإن
ساق أساء الضن بها ، فكم رأينا بين الفاصلين 'سقياء .
وبين لأبدان كثير من ذوى النعمة والثراء

لا يستطيعُ الرجلُ الفاضلُ أن يبلغ غايته من عبثه
إلا إذا استطاع أن ينزل من قوس النلى منزلَ الحب
والأكرام . ولن يستطيعَ ذلك إلا إذا عاش بين قوم
يمرفون الفضيلة ويمطون شأنها ، ولن يكونوا كذلك
إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباهَ فضلاء . والسواد الأعظم
الذى يسك يده أسباب العيش وعملك بتايعه سوادُ أبله
ساذج ينفذ الصادق لأنه يصادقه في ميوله وأهوائه
ويتقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يرل
يزن له أهـره حتى يحب اليه نفسه . فلا بد للصادق من
صدر يسمع هموم العيش وقلب يحتل بمعى القلوب ليبلغ
غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يدلُّ لجاهد حناته
ودمه ليبلغ غايته من التميز والتمسار

الصدق جنة حطب بالمكايده . فان كان للصادق في حنة
الصدق أربط طبعين في سبيبه ما حمه الأبناء

والمرسلون والحكام والقائمون بإصلاح المجتمع الانساني
ودعاة المطالب الدينية والسياسية

كما أن خود بمقر والاقلام قتال، وكما أن اكل
قصيلة من الفصائل آفة من الآفات توغر طريقها وتبعد
مها لاعى لدى عمارين ضلعيين، كذلك للعشق آفة من
مصادمة الكاذب والاكثرون، للمصادقين والاقول
تردتها لرحل أن سمى صادقاً وأن نال أشرف
فب يستصعب ليداه شرو أن يوفيت بعد مائة مدعة
دور أن تدل في ساحة شت من ماله ورحلتك ؟

إليك إن ردت ذلك وعدية في نسيك تضر نفسيّة
طه يث وترحص فيها وتنفق بها في مديح اشرف
ونحن موصى لنعان

بحر بك بصرف لأعياء عن حاورتك أو اتهامك
بالمزبدقه ولاجلاد أو لروق وانجانه ويرى أن ذلك كثير
في سبيل بلوغك مرة العشق وإحرار ميسيه، ونسب

تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت .
 في سبيل الحرز ما أحررت ، فاندموا ولا حزنوا
 أيها السجن الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لك البنص
 الذي تحتله ، وهنيئاً لك العيش الذي تعالج همومه . فوالله
 لَأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يمدح
 الناس سمعاً ، وبسموهم عظماً .

لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الضمير . وكن
 أحرص الناس على ولائه ومودته . وإياك أن يخذلك عنه
 خادع ، وأمبر قليلاً بمشرك عرسه . ويمتد عليك طله .
 وهناك نجد في غسك من اللثة والمبلة ما لبذل فيه
 ذوو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم . لم
 استطاعوا إليه سبيلاً

النظامون

ما هوؤلاء النظامين لا يهدمون ساعة واحدة عن
 صديق رهوسا وتمزيق أفدتنا بهذه العواقر التي عطرونها
 عينا كل يوم من سماء المصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة
 ورأيت في وسطها حدوداً أيضاً مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء
 ففرعنا وألقينا المصحفة كما ألقاها الشاعر المتلس لينجو
 بنفسه ويسر نحيتة

من في ذلك القلم 'مرض' ثنى يكتب به كتاب
 المصحف السياسية عناوين مقالاتهم في 'مرض' اليهود
 والتفخيم فأكتب به إلى هؤلاء الساكنين هذه الكلمة
 الآتية :

أيها القوم ، إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه
 الكلام الموزون المتقن يكونوا شعراء ولا أدباء ولا

يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه
ونصريته ، وانما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض
الذين لا مناص لهم من أن يقولوا في تعريف الشعر عند
هذا القدر مادام لا يتعلق لهم غرض منه بتغير أوزانه
وفوائده ، وعظه وزخافاته

لا تضنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لاستطاع كل
قارئ بل كل فاضل أن يكون شاعرا ، لأنه لا يوجد
في الناس من يمجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها
من أخصر طريق

أيها القوم - ما الشعر إلا روحٌ يودعها له صوره
الإنسان من مبدئ شأته ولا تزال كما ته به ككون الشعر
في الزند حتى يدشد " فست على أسلأت قلامه " (١) كما
تميعس الكهروء على نه لا کہا . فمن حسن منكم بهده

(١) شاعر صريحي . منتهى الشعر (٢)
بعضه .

الروح في نفسه طيحه أنه شاعر، أولاً فليكيف نفسه مؤونة
 التحطيط والتسطير ولنصرها إلى معاناة ما يلائم طبعه
 وباسب طوره من أعمال الحياة، فوته المحراث في يد
 الفلاح والتدوم في يد الحجار والمسير في يد الحداد أشرف
 وأهم من القلم في يد النظماء

فان غمة عليكم الأمر وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك
 لروح الشعريه من فوسكم فأعرضوا أنفسكم على من يرسلكم
 إليكم . ويدلكم عليكم حتى تكونوا على بنه من مكرم



الحرية

استيقظتُ فجر يوم من الأيام على صوت هزة تموء^(١)
 بجنايب فراشي وتمسح بي وتلح في ذلك إلخاء غريباً فراى
 أمرها وأهمني همها وقلت لعلها جائئة فهبنت وحضرت
 لها طعاماً ضافته وأصرفت عنه فقلت لعلها غلابة فأرسلتها
 إلى الماء فترتحل به ونشأت تنظر إلى نظرت تطلق ما
 شتمت عليه من الآلام والأحزان فأثر في نفسي
 منظرها تأثيراً شديداً حتى نمت أُنْ وكسب سنيان. ثم
 أنه الحيوان، لأعرف حاجتها. وفترجج كرسها، وكان باب
 انفرجه، رها هرباً بها نفس انهر، له وشمق في كفا
 رثني نجه نحوه فأدركت عرسها وعرفت أنها يريد أن أفتح
 لها الباب، فأسرعت متحة، شامويع نظرها على السماء.

ورثت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم
 إلى عبه وسرور. وانطلقت تملو في سبيلها، فعدت إلى
 مرثى وسلمت رشي إلى يدى وأنشأت أفكر في أمر
 هذه طرة ونجى شأنها وأصول، ليت شعري هل تفهم
 طره معنى الحرية فهي تحزن لمقداتها وتمرح ببقاياها. أجل.
 يا مهي مهي الحرية حق المهي. وما كان حزنها وبكاؤها
 وإمساكها عن طعام واشرب إلا من جبه. وما كان
 نضرها ورجاؤها ومسحها ورجاها، لا سميا وراء بلوغها
 وقد ذكرت أن كمر من سري لاستبداد من بني
 لاسن لا يعرفون سمره طره محبوبه في تعرفه
 لموحش منفي في ممضى والصبى مفصوص خنث
 من: لأسروصفاءه. ن رتا كان من يسه من لا تفكر
 في وجه خلاص ونجس أسبيل إلى نجاه مما هو به.
 ن رتا كان يسه من يتخى البقاء في هذا السجن ويأس
 ه ويولد بآلامه وأسقامه

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها
 أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً في الحرية من
 الحيوان الناطق، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعاده،
 وهل يحمل به أن يتخلى الخرس والبله ليكون سعيداً بحرته
 كما كان سعيداً بها قبل أن يصيح ناطقاً مدركاً

يخلق الطير في الجو ويسبح السمك في البحر ويهيم
 الوحش في الأودية والجبال ويعيش الإنسان رهين
 الحبسين ومحبسيه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد
 صنع لأسباب لقوى اللانسان اضعف سلاسل
 وأغلالاً وسماها، ثم ناهى وحاً وحراً، ثم لخصه باسم
 العبد ويسب منه جوهره حرمة باسم له موسى وأمه
 سبع به هذه لآه لخصه وركه فقد حذر مروج القلب
 رعد مرعى من من حسه على حسه حرماً ترف
 حركات يده وحصوف رجله وحركات لسانه وحطرب

وهيه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من
 أهديه ، هويل له ما أكثر جهله ، ويح له ما أشد حقه
 وهن يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه
 وحسن صيق من السجن الذي هو فيه

ليست جناية السبند على أسير أنه سلبه حريته ، بل
 خاتته الكبرى أنه فسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن
 لفقد تلك الحرية . ولا يدرك دمة واحدة عليها

لو عرف الأسد قيمة حربه السلوبة منه وأدرك
 حقيقة ما حجب عنه وعقله من القيود لا تنحر كما ينحر
 البس ، إذ حسه لسيده في القفس ، وكان ذلك خيرا له
 من حياه لا يرى فيها شعاعا من شعة حرية . ولا نخلص
 له منه من سجنه

كان في مدخله خنق عريان ، وليس بهدومه
 شبه أن يكون صلة تقيه لمحة الرمضاء ، أو هبة النكباء .
 ومعه في القفاط كما يضعون الطفل وكفتوه كما يكفنون
 موتى وظلوه هدهد ضاء لأرباب .

كان يأكل ويشرب كل ما تشبهه نفسه وما يتم مع طبيعته يحاولينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تفضي به قوانين المادلات والمصلحات لا تسبيل إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حرا مطلقا لا يسيطر على جسمه وعقله ووجدانه وفكره مسيطر لا أثب النفس

أخرية شيء يجب أن نشرف في كل عصر . فمن عرش محروما ، من عرش في مله حاكمه يصل أولها مله لرحم ، وآخرها مله القمر

لحرية هي حياه . ونولها لكاتب حياه الانسان . به
نبي ، حياه الأث المتحركة في يدي الأطفال متحركة . به
السر لحرية في تاريخ الانسان حده . حده .

أَوْ حَارًّا غَرِيْبًا. وَأَنَّمَا هِيَ فَطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا مَذْكَانٍ
وَحَسْبًا يَتَسَلَّقُ السَّخُورَ. وَيَتَعَلَّقُ بِأَغْصَانِ الْأَشْجَارِ

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ لِّطَلْبِ الْحَرِيَّةِ لَبَسَ مِن تَشْوِيلٍ
وَلَا مَسْتَعِدٍّ. وَبَدَا هُوَ يَحْتَلِبُ حَقًّا مِنْ حَقَّقِهِ الَّتِي سَلَبَتْهُ
إِيَّاهَا الْغَايَةُ الْبَشَرِيَّةُ. فَذَنْ خَفَرَهَا فَلَا مَنَّةَ لِلْمَخْلُوقِ عَلَيْهِ،
وَلَا يَدَّ لِأَحَدٍ عِندَهُ

عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء أو الماء أو الهواء أن ما كان يبهز العرب من معجزات الله وحده ، وصبره وإيمانه ، وقوامه وإيثاره ، وصدقه وإخلاصه ، أكثر مما كان يبهزهم من معجزات تسبيح الحمى وانشقاق القمر ، ومشى الشجرة ، ولين الحجر ، ذلك لأنه ما كان يريهم في الأولى ما كان يريهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عرافه العرافين ، وكهانة الكهنة ، وسحر السحرة ، فلو لا صفاته النفسية وغرائزه وكالاته ما نهست له الخوارق بكل ما يريد ، ولا تركت له المعجزات في نموس العرب ذلك الأمر لتنى تركه ، ذلك هو معنى قوله تعالى

« وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »
 كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهب أن
 يدعو في التوحيد قومًا مشركين يملأهم غلاظ جفاة
 شرسوس منخرون ، يفضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم ،
 ويحبون آلهتهم حبهم لأنفسهم

كان صلى الله عليه وسلم من نجاح دعونه فكان يقول لقريش
 « شدوا كاهنهم » وسخرية « بامشرق قريش والله
 لا تأتي عبيدكم مني حتى يفرقوا » ، « شكروا » ، « تحبوا »

كان صلى الله عليه وسلم لا يثق في رعيته . كان هو من
 يؤدونه ويردونه ويسخرونه^(١١) ، « وسخروا » ، « تحبوا » ، « شكروا »
 رأسه ويلقون على ظهره « معاء الشاة »^(١٢) ، « خروا » ، « سجدا »
 في صلاته بل كان يقول « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » .
 كان صلى الله عليه وسلم الأمل كبير المهمة صلب النفس ، لبث

(١١) مثل حيث طار من طائر تنقه (١٢) مثل جمل من جملة النخلة ، الخ

في قومه ثلاثَ عشرةَ سنة يدعو إلى الله فلا يلي دعوته إلا الرجلُ بعد الرجل فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأسُ إلى قلبه ، فكان يقول : والله لو وصعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ولا مطلق تلك الشمس المشرقة فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة ومن طور الخفاء إلى طور الظهور

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره وكانت عبداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجل ذكرى للشبث على الحق وجهاد في سبيل الله لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عنه كبير ومشقة عظيمة فإن قومه كانوا يكرهون هجرته لآمناء به من مخافة أن يحد في دينهم من الأعراس والأعيان

يُعدّ بينهم. كأنما كانوا يشعرون بأنه طالبٌ حقٌّ وأن طالب الحق لا بد أن يعدّ بين المحققين أعواناً وأنصاراً، فوضّحوه عليه ليومٍ وحوسّسوا تخرج من بينهم ليلة الهجرة متذكراً مدامارته في فرشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عث بهم وتسلّوا لهم عن اللحاق به ومشي هو ومأخذه أو كثر رضي الله عنه يتسلّقان الصخور وينسربان في الأعور والكهوف ويلوذن بأكناف الشجرات والخصاب حتى تقصع عهما أصعب وتنه لهما ما رَدَّ بعضُهم وأثابت على الحق

بِحضاه التي متى نه عنه وسير أعظم من حب أن حثته مسطور الوصول في اتخاف أسير لأخلاق وحسن ما كره خصال وأحسن مديسه بحب أن يمدو بها كيف يكون العبد في القول والأخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى النجاح ، وكيف يكون حماد في سبل الحق سبباً في علوه على الباطل ،

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان ، وحكام
الرومان ، وعلماء الافرنج . فلهذا في تاريخنا حياة شريفة
مملوءة بالجد والعمل . والصبر والثبات . والحب والرحمة ،
والحكمة والسياسة ، والذرف الحقيقي . والانسانية
الكاملة . وهي حياة نبينها على الله عليه وسد وحسنها وكفى



الانصاف

إذا كان لك صديقٌ تحبُّه وتواليه ثم هجمتَ منه على ما لم يحل في نَفْرِكَ ، ولم يتفق مع ما علمتَ من حاله وما اطَّردَ عندك من أعماله . أو كان لك عدوٌّ تَهْمُ طِبَاعَهُ ، وتَنَقُّمُ منه شَوْوَهُ ، ثم برقتَ لك من جانب أخلاقه بِلَرَقَةٍ خَيْرٍ ، فتحدثتَ عما قام في نَفْسِكَ من مؤاخفة صديقك على انخلة التي ذممتها ، وخذتَ عدوكَ على الخلة التي حميتها ، عندك الناسُ متلونوا ومخادعون ، أو ذا وجهين ، تمدحُ اليوم من تَهْمُ بالأمس . وتندمُ في ساعة من عدخ في أخرى . وقالوا : إنك تَقْلَهُرُ ما لا تصبر ، وتحقق غير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لا عجبوا بك وبصدقك . ولا كبروا سلامتك من هوى النفس وصلالها ، ولستوما بدا لهم منك اعتدالا لا قافا ، وإصافا لا خداما . لأنك لم تَقْلُ في حب صديقك قُلُوبًا من يسميه الهوى عن رؤية حيوه ، ولم تتسكَّ

من صدقته بالسبب الضعيف ، فُنِيتَ بجهل أخلاقه ،
وتفقدَ خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واخرج
من الأخرى

إن صديقك القوي يسمُّ لك في حال مرضك وغضبك ،
وحلمك وجوعك ، وصوابك وسخطك ، ليس ممن يُنتبِط
بمودة ، أو يوثق بصدائته . لأنه لا يصلحُ أن يكون
مرآتك التي تراهي فيها فتكشف لك عن نفسك ، وتصدقك
عن زينك وشينك ، وخُلوِّك ومركك ، وهو إما جاهلٌ
متهورٌ في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد أن ترى
نفسه . لا ما يجب أن تراه . وإما منافقٌ عنادٌ مدَّ علم
أن هواك في الصمت عن عيوبك وتحرير الذبول عليها .
فجارك فيما يريد . لينبغ منك ما يريد

فها أنت ذا ترى أن الناس يكسون القضايا ، وقلوبون
الحقائق ، فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ، ولكن
الناس لا يعلمون

الملفية العربية

سأودع في هذه النظرة الخيال والشعر وداع من
بعم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يثبت فيه
العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بللزل أشبه منها
بالحد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه
لا في مواطن جدّه وعمله

إن في أدينا معشر الكتاب من قوس هذه الأمة
وديمة يحب علينا نهجها والاجتفاظ بها والحبيب عليها
حتى تؤذيها إلى أخلاقنا من بعد ما كما أداها إلينا أسلافنا
سالمة غير مأروسة^(١) ولا متأكدة. كان معنا فذاك من
أولاً، فرحة الله على الصديق والوفاء، وسلام على الكتاب
الأمناء

(١) المحف للروس هي أمك لاروس

ك (الأمة للمصرى أمة مسلمة شرعية فيجب أن يبقى لها
دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها
في مجلتها، حتى يبدل الأرض غير الأرض والسماوات
إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى التبر تدني
إليه أجله وتذنيه من مهوى سحيق يُقبر فيه قبراً لا حيلة له
من بعده إلى يوم يمشون

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم
أن يكون من الدنية الثرية إن دانتها إلا كالنمريل من
دقيق الخبز. يملك خشاره، وفقدت لبابه، أو الراوق^(١)
من الحجر. يحتفظ بمقامه ويستمر في حقيقه، فيرله أن يتجنبها
بجهد. وأن يفر منها فرار السليم من الأجر
يريد المصري أن يفلح الثرى في نشاطه وخفته، فلا
يتشغل إلا في غدواته وروحاته. وقدمته وهومته. فإذا جد
الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المتاحة

(١) الراوق النمد.

إلى قليل من العبر والجلد دبّ الملوك إلى نفسه ديباً
الصبا في الأعف، والكري بين أهلب الجفون
يريد أن يقلده في زاهيته ونعته فلا يفهم منها إلا
أن الأولى الثابت في الحركات، والثانية الاختلاف إلى
مواضع المسق ونحائي الفجور

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نبيقها
وحبها. وصحبها وصغيرها، فاذ قيل له هذه المقدمات
فإن النتائج، سند رجليه إلى لراح الأربع واستن في فراره
لستنان المهر الأرن^(١)، فاذ اسمع صغير الصافر مات وجلا.

يريد منه في مسحه، فلا ربا يترقب فصل
الصيف رمف الأرض الميند فصل لريم، حتى إذ حان
حسه طاري، دد وربا طير أن حمه ثم حله لا يصبر سيك
مما حونه. ولا يلوي على نسي. مما وراءه، حتى يقع على مجامع

اللهو ومكلمن الفجور . وملاعب التمار ، وهنا ينزل من عقله وماله ما يعود من بسده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمل في أوتيه ولا من الثاني أكثر من الجمالة التي يحتملها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوالت صحيفته . حادثة عودته . موشاة ينحل الإجلال والاحترام . مطرزة بوشائع الأكرام والأعظم

يريد أن يقلده في الطرف فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شديه ترديدا لا يلجأ فيه إلى ركن من المد وثيق . ولا يتصمم به من جهل شئ من جبرته

يريد أن يقلده في لاحسان والبر فيترك حير بهوجرته طوون حنا الضعوع على معد . تنهيب من أخوع التهايا حتى إذ سمع دعوة إلى الكتاب وصحة زات في القطب الشماي أو كناية أنت بسد باجوج ومأجوج حن اسمه في قاتحة الكتاب . ويرسده في مسهل حريده الحساب

يريد أن يلقاه في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعهم من علمها
مقالة تكسب في جريدة ، أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن
ريها التفتن في الأزياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ،
واستلاب الألباب

هذا شأنه في العضائى الغربية يأخذها صورة مشوهة
وفضية معكوسة ، لا يعرف لها مبتزى ، ولا ينتجى بها
مقصدا ، ولا يذهب فيها إلى منهب ، فيكون مثله كمثل
جملة المتدينين الذين يمتدور السيف الصالح في تطهير
نبياب ، وهو نهج ملائى بالأفذار والأكدار ، ويخارونهم
في آد ، سور ، صدقات ، ون كانوا لا يمتنون عن غشاء
ولا عن منكر ، وكثير الذين يشبهون بغير في ترفيع
الشباب ، وإن كانوا حرموا على الدنيا من حياقة
الجهود

ما شأنه في ردائها فانه أقدر الناس على أخذها كما هي
مبتحرم كابتحر التربي ويلجأ كما يلجأ ويستتر في الفسوق
فدنى

استهتاره، ويترسم في الفجور آثاره

إن في المصريين عيوباً جمة في أخلاقهم وطباعهم -
ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لابد لنا من السوء إلى
إصلاحها، فلندعُ إلى ذلك باسم المدينة الشريفة - لا باسم
المدينة الفرية

نحن

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة
بغداد وقُرطبة وثبّة وفينيقيا، لا يباريس ورُومة وسويسرة
ونيو يورك. وإن دعوناهم إلى مكشوفة، فلتلُ عنهم آيات
الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه. لا آيات رُسُو
وباكون ونيوتن وسبسر. وإن دعوناهم إلى حرب - فف
تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير
وصلاح الدين، ما يغني عن تاريخ نابليون ولنجتون
وواشنطن ونلسن وبلوخر، وفي وقائع القادسية ومحمورية
وإفريقية والحروب الصليبية. ما يغني عن وقائع ورو
وترافلغار وأوسترلitz والسبعين

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرق
في مصر من تاريخ نوبارت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن
العامر. ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ
من تاريخ زمامه محمديه. ومن مبادئ ديكرات وأبحاث
ديون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وبحث ابن رشد،
وزيروي من السراشكسبير وهو جو ما لا يروي للمتنبي
والمرتضى

« لا مانع من أن يعرف أن العربون المفيد النافع من
مؤلفات علماء العرب وخذ المتبع من أدب كتابهم
وسميتهم على ما تعرفه العرب لما يحب مستند لا ضعيف
تستدل، فلا أحد كل قصة عليه فضيه مسمة. ولا
يجرب لكل معنى ذوق عربا مشهور، ولا مانع من أن
يعلم إلى ما ففون شد من عادات الغربيين ومصنوعاتهم
في مدنيته على أن يعرف أنه يعرف من يريد التسلط
في العلم وتوسيع في شعرة والاختبار، لا على أن

تقلد ما و نلتحلها و تتخذها قاعداً لنا في استحسان ما نستحسن
 من شؤوننا ، و نستحسن ما نستحسن من عاداتنا))
 و بعد فليكن كتاب هذه الأمة و قادتها أنه ليس
 في عادات الفريين و أخلاصهم الشخصية الخاصة بهم ما يخدم
 عليه كثيراً ، فلا يخدموا أنفسهم عن نفسها ، ولا يفسدوا
 عليها دينها و شريعتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية
 ترينها يرؤوها في استقلالها النفسى . بعد ما رأتها السياسة
 في استقلالها الشخصى
 أنظر

يوم الحساب

سأهزأ الكوكب ليلة رأس حتى ميني ومطلته
وساق كل ما صاحبه ذُرْعاً . وقد وقف الهمُّ بيني وبين
الكريُّ حدُّه فبدعه . وذنيه فيبعده ، حتى أسلس
فياده وسكن محامه

أخافه حتى سبه الكريُّ حتى خيل بي في قد
تقلب من له لأوب في حاء شق ورأى كافي بحث
بعد موت وكان لنا آده عنعمون في صعيد وحد
يحسبون على نعمهم فأطهب ثم موهب الخسر وتنه
يوم حساب

نشأت مني سبه خائر لدهل لأعرف في
مدد ولا صغر ولا حد من أخذ بيدي ويدلني على

نفسى ، فى هذا الموقف الذى ينفذ فيه كل ذى نفس حسه
 فلا يجد إليها سبيلا . فطلقت أنصفت وجهه الواقفين ،
 وأقبلت النظر فى القادين والرائحين . على أحد صديقى
 أستأنس به فى وحدتى . وأستعين بمراقبته على وحشتى ،
 فلا أرى إلا خلق غريبا . ومنظر عجيبا . ووجوها ما رأيت
 لها فى حياتى شيئا ولا ضرب . ولولا أنى أعلم أن الحساب
 خاص بالإنسان لظننت أن الله يحاسب فى هذا الموقف
 جميع أنواع الحيوان

هناك وقد بلغ البأس وطعمهما من مسمى ريت
 على البعد وجهي . سمى ويدو مى زويد . زويدا فأبليت
 حوره حتى بقتة ود صدق . ولان . وإد وجهه يلا لأ
 لا أؤ الكوكب فى عتية السماء . فسأله ما حصل له به .
 فقال حاسبي حساب . يسر ثم عفرى ، وهأخذ ذهب إلى
 ما أعد الله لعباده الصالحين فى حته . من النعيم مقيم .
 سمعت لشأه وهب فى نفسى لقد هن ثم لحسب على

كل عامر بعد ما هان على هذا الذي كنتُ أعرُفه في أوله
لا تبقى ماثمة . ولا يهب منكراً . ولا يخرج من حان إلا
بى . . . ولا يودع مجمع من مجامع الفسق إلا على موعد
من لافده ، فنظر بى بعينه العائب اللائم وابتهم ابتسامته
عنه . . . أن ترجع مدته . . . ثم صمرتته في نفسي فذكرت
. . . قد كشفت لعمري في هذه لدر . . . وأن قدر فع الحجاب
من . . . لا يبر ولا حهر . . . ولا ضن ولا ظهر . . . ولا
فرق من حركات لسان . وحفرت حنان . غرقت تلك
بعينه وهـ لا محب لأمر في هذه لدر فكل ما فيها
محجب . وعيد نته حاسني على كاه . . . كنتُ خذرج من
الآن في لدر لأوى ، . . . لأنه وحده في حريته حسناق
حسنة ذهب بجميع اسبثات . ذلك أنه كان في حارة من
دوى النعمه والثر . . . والصلاح وخير وأروحه وبر كعبه
دهره نكبة ذهب غايه فاهني أمره وأزعجني أن أراه
في مستقيل ظله بالنسب معدما . . . يريق ماء وجهه على أعتاب

الذين كان يسدى إليهم نمتة ، وعلت أقي إن عرست
عليه شيئا من مالى أنجلته وصغرت قسمة في عينه فاحتلت
على أن أدخل في يته خادما كانت في بيتي وجعلت لها جملا
على أن تدس في كبس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث
لا يشعربمائلها ، ولا يقف على سرها . وما زال هذا شأني
وشأنه لا يمل من أين يأتيه رزقه . ولا يشمر أحد من الناس
باستحالة حاله . وذهاب ماله ، حتى فرق الموت بيني وبينه ،
فما تقضى عملي من أعمالى ما تقضى هذا العمل ، وما كان
الإحسان وحده سبب سعادتي . بل كان سببا أنه أصاب
نوصح . وخلص من سائره ربا . فهناك سمع الله عليه
وسكوت إليه وحشنى من لوحده وخوف من الله .
فقال . ما لوحده من فارطك حتى أتى دورك . وأما
خوف فلا حاة لي ولا لأحد من الناس في نقص ما أرم
أق في شأنك ، فقلت أنت من السعد . هو سضيع ث
شجع لي أو نصبى شفاعة من وفى من الأول . وبي

من الأنبياء، قال لا تطلب الحال، ولا تعدن كل ما يقال،
 فقد كنت مغدوعين في لذر لأوني بتلك الآمال الكاذبة
 التي كان بها تذهبون، الذين بئس غلب ولا يتقون الله
 في عبادته وحده. وهه اسفغة لا تظهر من مظاهر
 لا كرمه وسجل شخصه ثم بعض عباده المقربين.
 ولا سمع عنده أحد، لا يذمه. ولا يأخذ بالشفاعة لأحد
 إلا إذا كان من نمل مشعوع له وفي شفاق سريره
 ما فتى إشارته بغيره على غيره من المعاص والمذنبين.
 ونسجد له وحده من حيث ورفعة من الحياه
 وما وصل من حديثه في هذا الحد حتى إن كوكبه
 من ملائكة ادب نحت رحل يساق في النار ودين
 في ذلك واحد منهم مفرقة من خديد بقرع بهر سه وهو
 يصرخ ويقول ههلكتي يا أبا حنيفة «فسألت صاحبي
 ما ذنب لرحل فقال: إنه كان في حياته يتخذ في أعماله
 ما يسموه «الحبل الشرعي» فكان يهب ماله لأحد ولأده

على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول ليتخلص من
 فريضة الزكاة، ويطلق زوجته ثلاثاً ثم يأتي بمطلٍ يحملها
 له فيعود إلى معاشرتها، وكان يُرأى باسم الرهن فلذا جاءه
 من يريد أن يقرض منه مالا أي أن يقرضه إلا إذا وضع
 في يده رهناً فلذا وضع يده على منيته أزمه أن يستأجرها
 منه بمال كثير يُرعى فيه النسبة التي يُرعىها المراءون بين
 الرمح وأصل المال، وكان إذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من
 نافذته، أو لا يأكل رقيقاً أكله إلا لقمة منه، فذنبه أنه
 كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينزِع منها حكمها وأسرارها
 ثم يرفها في أنه مشوراً جوفاً، ليخدعها وينشئ فيها كما
 فعل مع الأطفال والبنه مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو
 غيره من كبار الأئمة أبو حنيفة رُفِع قدره وأهلى بصيرة
 من ث بتخذ الله هذا وسخريه وأن يكون ممن يهدمون
 الدين باسم الدين

وما انقطع عنا صوتُ هذا الشقي حتى رأينا شقيًّا آخر
 ذاك حية طويلة كثرة قد حاط به ملكان وشدا عقه
 سحبه ضويلة دلت حبات كبيرة وقد أخذ كل منهما بطرف
 وهو يهيم بكلمات بيّنة فيقرعه أحدهما على رأسه
 ويومعه تكمير ونسب الحديد قد نوت منه وأتمت
 مصرى وجهه مرفعه فترجت دُغرا وخوفا وصحت
 تكور هد من نص لآخره وقد كان بالأمس من
 نصب لأوى . مبرى ساجي بن هذا لقي كنت
 حسنة في زلده من لأصب كان تكبر ناجر من تبحر
 لدي . وما هذه لاجدة وسحبه ولهممة ولمدة . لا
 حاش كان مصب لأصب عقول الناس ومو لهم ولكن
 الناس لا يعلمون

وما لبث المنصرون من موقف فناء يرون بن
 هذا إلى حته وذلك إلى يده وأنا أسأل عن شأن كل منهم
 واحد هو حد فأرى سميداً من كنت أخسبه شقياً

وشقياً من كنت أحسبه سعيداً، فسجيتُ أن الله سبحانه
 وتعالى يُحاسِبُ الناسَ على قلوبهم ، لا على جوارحهم ،
 ويسألهم عن نياتهم . لا عن أفعالهم . وأن لا سعادة إلا
 بالصدق ، ولا شقاء إلا بالكذب . وعلتُ أن الله لا ينفِرُ
 من السيئات إلا ما كان هفوةً من المفولات . يلهيها صاحبها
 إلماً ثم يندم عليها ، ورأيتُ أن أكبر ما يماقِبُ الله عليه
 جنايةُ المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب
 ماله . وأن أصعب الوسائل إلى الله ذلك الركوعُ والسجود .
 والقيامُ والتمنود فهو أن امرئ يمسى حنانه بين يديه قائماً .
 ومباركاً صائماً ، ثم ينهد طوقاً صميراً في أقمته ختفها من يده
 لاستعالت حسناته في منات . وما غنى عنه سُكَّته من
 أنه شيت

ويشئ . تحدث مسمى بيده الحديث وأصب النضر
 في وجوه تلك المواعظ والمرد إذ قال لي صاحبي أعرِف
 هذين ، وأشار إلى رجلين واقفين حدةً متحيزين ، أحدهما

شيخ جليل أيعر الحية، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط
 مبيضه بسوده. فها هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت
 الرجل المضمير، رجل الإسلام (محمد عبده) ورجل
 المرأة (قاسم مراد) فقلت لصاحبي هل لك في أن ندنو
 منهما، وسنرق نجواهما من حيث لا يشعرا، فقلنا فسمعنا
 لأول بقول الثاني: ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحلت
 نصحي لك عملاً من نفسك، فقد كنت أنهار أن تقابلي
 امرأة انصريه رأت في حجاب قبل أن تأخذ له عذته
 من الأدب والدين، فبني كتابك عليه، ه، حناه من هناك
 حرمهم وعصاها وبذلها ويرى لك بقية لصاحبة التي
 كانت في وجهها من... الحمد... فقد له صاحبه في سرت
 عليها أن تعلم قبل أن أسفر وألا ترفع يدها قبل أن تسج
 لها برقا من الأدب والحياء، قال له ولكن ه بت، كنت
 نبات لك بمن أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل، ووضيعة
 لاتبأ هذا الاستثناء، فكنت كن أعطي الجاهل سيفاً

ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال له أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك إنك قد وصت في مثل ما وصت فيه من الخطأ ، وإنك نصحتي بما لم تنصح به ، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول ، وأنت أردت أن تنهي الاسلام فقتلته إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريعة فأردوا غير ما أردت ، وفهموا غير ما فهمت ، فأصبحوا ملحدين بعد أن كانوا محرفين وأنت تعلم أن دين خرافيا خير من لا دين . وثبت لهم بمص آيت الكتاب فأنخذوا التاويل قاعده حتى أولوا الملك والشيطان ، والخنه والنار . وينت لهم حكم المبادات وسررها وسهبت لهم نهبي لأخذ قسور هادون لها . فتركوها جهنة وحده ، وصب لهم د نوى ، به دخل . والله إله حق ، فأذكروا الألوهيه حقا وباصط . فقبل وجه الشيخ وهو له ما زل يالهم في خراك . مثلك في دبابك . لا تصرب في حجه . ولا تنأ عن تأر ، ما سمع لا تحمل هم . ولا تحش

نر . وثق أن الله سبحانه على نياتنا وسرائرنا ،
 ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، إنا ما أردنا إلا الخير
 لأمننا ، وما بُردنا لها إلا ما نَحْتَمِلُهُ عقولها ، فان
 كذبت فرسنتنا وأخضنا فندبرنا ، فذلك لأن المستقبل
 يبدئ

وه . وصلا من حدثنا إلى هذا الحد حتى تركا
 وذهب شأبه . فقلت لصاحبي هل لك أن
 ترى لبراً وصبراً وخيراً . فني . زلت في شوق
 إلى رؤيته لك لأسم . ورؤيته . ووصفها . رأيتها في
 « حرمه لآخره » . في رسمها . سحرني في بعض
 كتبه . هل أ . مير . فتقدير لأعماله ولوزنه بين
 الحسنة والسيئة . وه . نصرت فهو حينئذ لا سن
 من سماعة أو سقائه . وه . لكنه . ولا فلا عني حتى
 سماعة .

ومما لذلك دسمت صوتاً صارخاً ما فرغ صمعي

في حياقي مثله يناديني باسمي ، فسلمتُ أن قد جاء دوري ،
 فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي ،
 فاستيقظتُ فلم أر حساباً ولا عقاباً ، ولا موقفاً ولا تحسراً
 فسلمتُ أنها خيالاتٌ وأوهام ، أو اصغاثُ أحلام ، وما
 نحن بتأويل الأحلام بمثلين



الشعرية البيضاء

مررتُ صبحَ يومٍ أمامَ المرأةِ فمحتُ في رأسِ شعرةٍ
بيضاءَ تلمعُ في تلكَ المعةِ السوداءِ - لمعانَ شرارةِ البرقِ
في الليلةِ الضلّاءِ.

رَبَّتْ سَعْرَهُ بَيْضَاءُ فِي مَعْرَقٍ^(١) فَتَرَمَتْ لِمَرْآهَا
كَأَنَّهَا حُلٌّ إِلَى نَهْ سَيْفٍ حَرْدَهُ الْقَفْضَاءُ عَلَى رُحَى. أَوْ عَلِمَتْ
يُصْحَ بِحَمَلِهِ رَسُولُ جَاءَ مِنْ عَالَمٍ الْغَيْبِ تُنْذِرُنِي بِاقْتِرَابِ
الْأَحْلَاءِ أَوْ بَأْسِ قَاتِلِ عَرَصِ دُونَ لَأَمِنْ. وَجَنُودُهُ نَبْرٍ
عَنَقَتْ أَهْدَابَ حُلٍّ عَنِيهَا بِالْخُصْبِ الْحَزْنِ. وَلَا يَدَّ لَهَا بِهَا بِهَا
رَفَعَتْ فِي مَسْنَاهَا وَتَأَدَّتْ فِي مَسِيرِهَا مِنْ نَهْ يَنْجُو مَدَهَا
وُخَيْطٌ مِنْ حَبُوطِ السَّكْمَنِ لَتَى مَسْجَعَهُ يَدُ الْمَعْرِ وَتَعَدَّهُ

(١) معروق موصوف مرق شعر

لباساً لجنتى عند ما تجرّدها من لباسها يدُ الغامل
 أيتها الشمرة البيضاء ! ما رأيتُ لباساً أشبه بالسواد
 من يابسائك ، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك ، لقد
 أنفضتُ من أجلك كلَّ يابس حتى يابس القمر ، وكلَّ
 نور حتى نور البصر ، وأحييتُ قبك كلَّ سواد حتى سواد
 الثريان . وكلَّ ظلام حتى ظلام الوجدان
 أيتها الشمرة البيضاء ! ليت شعري من أية ناهض
 خلصت إلى رأسي ، وفي أي مسلك من مسالك البحر
 مشيت إلى فودي .

كيف طاب لك لقاء هذه لأرض نوحته التي
 لا جدي بها أنيسا يسأمرُك ، ولا جليس يساهرُك .
 وكيف رُغ قلبك منصرهد لليل العاصم ، وه يمش
 بصرك في هد الصلاة القاتم

أيتها الشمرة البيضاء ! لقد عيب أمرُك . وحلت^(١)

(١) مل ملين . نرد ، واستكته

بمهلك ، وأصبحتُ لا أعرفُ وجه الحيلةِ في البعد عنك ،
والفرارِ من وجهك

لا يتفنى معك أن أترعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين
أن تعودى إليه ، ولا يُنقذنى منك أن أخضبك بالسواد ،
لأنك لا تلبثين أن تنصلى ^(١) ولأننى لأحبُّ أن أجمع على
نفسى بين مصيبتين ، مصيبة الشيب ، ومصيبة الكذب
أيتها الشعره البيضاء ! يَحِلُّ لى وأنا أنظرُ إليك
أنك من ذوات الحيلةِ والدهاء ، والكيدِ والغيت ، وأنك
تهمسين فى آذان أخواتك السود اللواتى بجانبك تحاولين
إغراءهن بالتشبه بك ، ومتردى بردائك ، وكأنى بك
وقد أشعلت فى هذه البيئةِ المهادئة المطمئنة حرباً شعواء ،
وفتنة صمياء ، يختلط فيها الرامحُ بالنابل ^(٢) والدارعُ بالخاسر ^(٣) ،
ويهلكُ فيها القاعد والقائم ، والمظلومُ والظالم

(١) نصل الشعر حرج من الحجاب (٢) الرمح حبل الرمح والبال دواليل

(٣) الدارع لانس الرمح والمخسر حلاله

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك
السائح الأبيض الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفاً ، فيُصْبِحُ
مستعمراً ، ويدخل أرضها مسلماً ، ويفارقها حرباً ، فأسأل
الله العافية منك ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك ،
فكلاركما مشئوم الطلعة في مقامه وارتحاله ، وكوكب التخص
في وقوفه وتسياره

أيها الشعر الأبيض ! ما أنت ، وما شأنك ، وما وفودك
إلى ، وما مكانك مني ، وما مقامك عندي ؟ إن كنت ضيفاً ،
فأين استئذان الضيف وتلفظه ؟ وتجمله وتودده ، وإن كنت
نذيراً ، فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه إلى نذير ،
فلم يبق إلا أن تكوني أوقع الخلائق وجهاً ، وأصلبها خدّاً ،
وأنت قد نزلت من الساجدة والفضول منزلة لا أرى لك
فيها شبيهاً إلا تلك الحية التي تلج كل جحرٍ من أجحار
الهوام والحشرات تعد جحرها ، وتحسبه بيتها
أبلغ بك الشأن وأنت التي يضربون الأمثال بدقتها

وخفائها ، ويسئون الملاقطَ والمقاربَ وراهما فلا يكادون
يعرفون السبيلَ إلى مدارجها ومكائنها ، أن تملئ من الرعب
قلبا لا يروعه السيفُ المجردُ ، ولا السهمُ المسدد
أيها الشعرُ البيضاء ! هل لك أن تتجاوزى عما
أصأتُ به إليك في إطالة عتيك ، واستتقال ظمك ، فلقد
رجعتُ إلى نفسى فعلتُ أنك أكرمُ الخلاقِ عندي ،
وأعظمها شأنًا في عيني

هنيئًا لك رأسى مصيفًا ومرثيًا ، وهنيئًا لك فودى
مرآدًا ومسرحةً ، فأنتِ رسولُ الموت الذى مازلتُ أطلبه
مذعرته فلا أجده له سيلا ، ولا أعرفُ له رسولا
ما الذى يحمله لك في صدره من الحقود والوجدة رجلٌ
لم ينعم بشبابه ، فيحزن على ذهابه ، ولم ينق حلاوة الحياة ،
فيجزع لمرارة المات ، ولم يستنشق نسمة السعادة فصنا
رطبًا ، فياسى عليها عودًا يابسًا
ما الذى يتقمه من شؤونك رجلٌ يعلم أنك وحى

الأمل الذي يشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من
السعادة والهناء إلا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من
الهموم والأحزان، كما تكدر أقماس الحزن الحارة صفحة المرأة
أليس كل ما أعدّه عليك من الذنوب أنك طليعة الموت،
والموت هو الذي يُخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور
والآثام، الحافل بالآلام والأسقام، الذي لا أحمض عيني
فيه إلا لأفتحها على صديق يندربصديقه، وأخ يخون
أخاه، وعشير يحدد أنيابه ليضع عشيرته، وغنى يرضى على
الفقر بفتات مائدته، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة
الموت فلا يظفر بأمنيته، ومليك لا يفرق بين رعيته
وماشيته، ومملوك لا يميز بين ملك الملك ورويته، وقلوب
تضطرم حقدًا على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلا على لون
حائل، وظل زائل، وغرض باطل، وعقول تهالك وجداً
على نار تحرقها، وأنياب تمزقها، وعيون حائرة، في رهوس
طائرة، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها، وتلعغ ولا تكاد

تبصرُ ما أمامها، إن كان هذا هو ذنبكِ عندى فاستكثري
من ذنوبكِ فإني لك من العافرين

أيتها الشجرة البيضاء ! مرحباً بكِ اليوم ، ومرحباً
بأخوانكِ غداً ، ومرحباً بهذا القضاء المحتىء وراءك ،
أو الكامن في أطوائكِ ، ومرحباً بتلك الترففة التي أخلو
فيها برني ، وآنسُ بنفسى ، من حيث لا أسمعُ حتى دوى
المدافع ، ولا أرى حتى غبارِ الوقائع !
أهلاً بوافدةٍ للشيب واحدةٍ

وإن تراءتِ بشكلٍ غيرِ مودود



الصيد

حدثَ أحدُ الأصدقاء قال: بينما أنا في منزلي صبيحة يومٍ إذ دخل على رجلٌ صيادٌ يحملُ في شبكته فوق عاتقه سمكةً كبيرةً مرضها على فلم أسأله فيها بل تقدته الثمن الذي أرادته ، فأخذه شاكرًا مهلاً وقال: هذه هي المرة الأولى التي أخذتُ فيها الثمن الذي اقترحتُهُ ، أحسن الله إليك كما أحسنتُ إلى ، وجعلك سميداً في نفسك ، كما جعلك سميداً في مالك ، فسررتُ بهذه الدعوة كثيرًا وطِيعتُ في أن تفتحَ لها أبوابَ السماء المنقطة دُوني ، وعجبتُ أن يهتدى شيخٌ عامي إلى معرفة حقيقة لا يرضاها إلا القليلُ من الخاصة ، وهي أن السعادة النفسية شأناً غيرَ شأنِ السعادةِ المالية ، فقلتُ له يا شيخُ وهل توجدُ سعادة غيرُ سعادةِ المال ، فابتسمَ ابتسامةً هادئةً مؤثرةً وقال :

لو كانت السعادةُ سعادةَ المالِ لكنتُ أنا أشقى الناسِ، لأننى
أفقر الناسِ، قلتُ وهل تعدُّ نفسك سعيداً ، قال نعم ،
لأننى قانعٌ برزقى ، مقتبطٌ بعيشى ، لا أحزنُ على فائتي من
العيشِ ، ولا تذهبُ نفسى حسرةً وراءَ مطمعٍ من المطامعِ ،
فمن أى بابٍ يخلصُ الشقاءُ إلى قلبى ؟ قلتُ أيها الرجلُ أين
يذهبُ بك ، ما أرى إلا أنك شيخٌ قد اختلسَ عقله ، كيف
تعدُّ نفسك سعيداً وأنتَ حافٍ غيرُ متعلٍ ، وعارٍ إلا قليلاً
من الأموالِ الباليةِ ، والأطمارِ السحيقةِ ؟ قال إن كانت السعادةُ
لغةَ النفسِ وراحتهَا ، وكان الشقاءُ ألمها وعناها ، فأنا سعيدٌ
لأننى لأجدُ في رثائتي ملبساً ، ولا فى خشونتي عيشى ، ما يولدُ لى
ألماً ، أو يُسبِّبُ لى همّاً ، وإن كانت السعادةُ عندكم أمراً
وراءَ ذلك ، فأنا لا أفهمها إلا كذلك ، قلتُ ألا يُحزنك
النظرُ إلى الأغنياءِ فى أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم
ومراكبهم ، وخدمتهم وخولهم ، ومطعمهم ومشربهم ،
ألا يُحزنك هذا الفرقُ العظيمُ بين حالتك وحالتهم ؟ قال إنما

يُصَغَّرُ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَنَاطِرِ فِي عَيْنِي وَيَهُونُهَا عِنْدِي أَنِّي
لَا أَجِدُ أَصْحَابَهَا قَدْ نَالُوا مِنَ السَّعَادَةِ بِوُجْدَانِهَا ، أَكْثَرَ
مِمَّا نَلْتُهُ بِقُدْرَانِهَا

هَذِهِ الْمَطَامُ الَّتِي تَذَكَّرُهَا إِنْ كَانَ الْفَرَضُ مِنْهَا الْإِمْتَلَاءُ
فَأَنَا لَا أَذْكَرُ أَنِّي بَتُّ لَيْلَةٍ فِي حَيَاتِي جَائِعًا ، وَإِنْ كَانَ الْفَرَضُ
مِنْهَا قَضَاءُ شَهْوَةِ النَّفْسِ فَأَنَا لَا آكُلُ إِلَّا إِذَا جُمْتُ ، فَأَجِدُ
لِكُلِّ مَا يَدْخُلُ جَوْفِي لَذَّةً لَا أَحْسِبُ أَنْ فِي شَهْوَاتِ الطَّعَامِ
مَا يَفْضُلُهَا ، أَمَا الْقَصُورُ ، فَإِنَّ لَدَيَّ كُوْنًا صَغِيرًا لَا أَشْعُرُ
أَنَّهُ يَضِيقُنِي وَبِزَوْجَتِي وَلَدَيَّ فَأَفْرِغَ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ
قَصْرًا كَبِيرًا ، وَإِنْ كَانَ لَا بَدْءَ مِنْ إِمْتِنَاعِ النَّظَرِ بِالْمَنَاطِرِ
الْجَمِيلَةِ فَخَسْبِي أَنْ أَحْمِلَ شَبَكَتِي عَلَى عَاتِقِي كُلَّ مَطْلَعِ غُرْ
وَأَذْهَبَ بِهَا إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ ، فَأَرَى مِنْظَرَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ ،
وَالْأَشْعَةَ الْبَيْضَاءَ ، وَالْمَرْوِجَ الْخَضْرَاءَ ، فَمَا هِيَ إِلَّا لَفْتَةٌ الْجِيدِ
أَنْ يَطْلُعَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قَرَصُ الشَّمْسِ كَأَنَّهُ عَيْنٌ مِنْ

ذَهَبَ ، أَوْ قَطْمَةً مِنْ لُحْبٍ ، فَلَا يَبْعُدُ عَنْ خَطِّ الْأُفُقِ مِيلًا
أَوْ مِيلَيْنِ حَتَّى يَثُرَ فَوْقَ سَطْحِ النَّهْرِ حُلِيَّةُ الْمَتَكْسِرِ ، أَوْ دَرَّةُ
الْمُتَحَدِّرِ ، فَذَا تَجَلَّى هَذَا الْمَنْظَرُ أَمَامَ عَيْنِي يَتَخَلَّلُهُ مَسْكُونُ
الطَّبِيعَةِ وَهَلْوَها ، مَلَأَتْ عَلَى شَعُورِي وَوَجْدَانِي فَاسْتَفْرَقَتْ
فِيهِ اسْتَفْرَاقَ النَّائِمِ فِي الْأَحْلَامِ اللَّذِيذَةِ حَتَّى لَا أُحِبُّ أَنْ
أَعُودَ إِلَى تَقْصِي إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ ، وَلَا أُرْأَلُ هَكَذَا هَاتِمًا
فِي أَحْلَامِي حَتَّى أَشْعَرَ بِجَذْبَةٍ فَوْقِي فِي يَدِي فَأَتْبَعُهُ فَذَا السَّمَكُ
فِي الشَّبَكَةِ يَضْطَرِبُّ ، وَمَا اضْطَرَّابُهُ إِلَّا لِأَنَّهُ فَارَقَ الْفَضَاءَ
الَّذِي كَانَ يَهيمُ فِيهِ مَطْلَقَ السَّرَاحِ وَبَاتَ فِي الْمَحْبَسِ الَّذِي
لَا يَجِدُ فِيهِ مَرَاحًا وَلَا مَضْطَرَبًا ، فَلَا أَجْدَلَهُ شَيْئًا فِي حَالَتِهِ
إِلَّا الْفُقَرَاءَ وَالْأَغْنِيَاءَ ، يَمْشِي الْفَقِيرُ كَمَا يَشْتَهِي وَيَنْتَقِلُ حَيْثُ
يُرِيدُ ، كَأَنَّهَا هَوَاطِرُ الَّذِي لَا يَقَعُ إِلَّا حَيْثُ يُطِيبُ لَهُ التَّغْرِيدُ
وَالْتَقْفِيرُ ، وَلَوْلَا أَنْ تَتَخَطَّاهُ الْعَيُونُ وَتَنْبُو عَنْهُ التَّوَاطُرُ
مَا طَارَ فِي كُلِّ فَضَاءٍ ، وَلَا تَنْقَلُ حَيْثُ يَشَاءُ ، أَمَا الْغَنِيُّ فَلَا
يَتَحَرَّكُ وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا وَعَلَيْهِ مِنَ الْأَحْدَاقِ فُطَاقٌ ، وَمَنْ

الأرصاد أغلالٌ وأطواق ، ولا يخرجُ من منزله إلا إذا وقف أمام المرأة ساعة يؤلفُ فيها من حقيقته وخياله ناظرًا ومنظورًا ، ثم يُطيلُ التفكير هل يقعُ المنظورُ من الناظر موقعًا حسنًا ، حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشى بينهم مشيةً يحرصُ فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ، ولا يفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهد الكون وآياته غافّةً أن يغفل عن إشارات السلام ، ومظاهر الأكرام

فإذا أخذت من السمك كفافَ يومى عدتُ به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل ، فإذا أدير النهارُ عدتُ إلى منزلى فَيَمْتَنِقُنِي ولدى وتبش في وجهي زوجتي ، فإذا قضيتُ بالسمي حق عيالي وبالصلاة حق ربي نمتُ في فراشي نومةً هادئةً مطمئنةً لا أحتاج منها إلى ديباج وحرير ، أو مهدٍ وثير ، فهل أستطيعُ أن أعدّ نفسي شقيًا وأنا أروحُ

الناس بالآء؄ وإن كنت أقلهم مالا ؟

لا فرق بينى وبين النقى إلا أن الناس لا ينهضون
إجلالا لى إذا رأونى؄ ولا يعدون أعنائهم نحوى إذا مررتُ
بهم ؄ وأهون به من فري لأفيمة له عندى ؄ ولا أثر له
فى نفسى؄ وما يَعتننى من أمرهم إن قاموا أو قعدوا ؄ أو
طاروا فى الهواء أو غاصوا فى أعماق الماء ؄ مادمتُ لأعلاقة
بينى وبينهم؄ وما دمتُ لأَنظر إليهم إلا بالعين التى ينظرُ
بها الانسانُ إلى الصور المتحركة

لأعلاقة بينى وبين أحد فى هذا العالم إلا تلك العلاقة
التي بينى وبين ربى؄ فأنا أعبد محقَّ عبادته؄ وأخلص فى توحيد
فلا أعتقد ربويةَ أحدٍ سواه؄ ولا أكتُمك يا سيدى أنى
لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحدٍ
من الناس؄ ولقد أخذ هذا اليقينُ مكانه من قلبى حتى لو
طلع على الملكُ المتوج فى مواكبه وكواكبه؄ وراياته
وأعلامه؄ لما خفتُ له قلبى خفقةَ الرهبة والخشية؄ ولا شغل

من نفسى مكاناً أكثر مما يشغلُه ملكُ التمثيل

ولقد كان هذا اليقينُ أكبرَ سببٍ فى عزائى وراحةِ
نفسى من الهموم والأحزان ، فانزلتْ فى ضائقةٍ ولا
هبتْ على حاصفةٍ من عواصف هذا السكونِ إلا انتزعنى
من بين مغالبها وهونها على حتى لا أكاد أشعر بوفوها ،
وكيف أتألم للصابِ أنا أعلم حقَّ العلم أنه مقدورٌ لا مفرُّ منه ،
وأنتى مأجورٌ عليه على قدرِ احتمالى إياه وسكونى إليه
آمنتُ بالقضاء والقدرِ خيره وشره ، وباليوم الآخرِ
ثوابه وعقابه ، فصفرتُ الدنيا فى عيني ، وصفر شأنها عندى ،
حتى ما أفرح بخيرها ، ولا أحزن لشرها ، ولا أعوّل على
شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها ، وأقسمُ ما خرجتُ
مرةً إلى ضفة النهر حاملاً تبكى فوق عاتقٍ إلا وقع
الشكُّ فى نفسى هل أعودُ إلى منزلى حاملاً أم محمولا
ما العالم إلا بحرٌ زاهر ، وما الناس إلا أمما كهُ
المانجة فيه ، وما ربُّ المتون إلا صيادٌ يحملُ شبكته كل

يومٍ ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك ، وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ، فكيف أغتبط بما لا أملك ، أو أعتد على غير معتمد ، إذن أنا أصل الناس عقلاً ، وأضعفهم إيماناً

قال المحدثُ: فأكبرت الرجل في نفس كلِّ الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعاته واقتناعه بسعادة نفسه ، وقلت له يا شيخ: إن الناس جميعاً يكونون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها ، فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازمٌ من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا في شقاء ، قال لا ياسيدي إن الانسان سعيدٌ بفطرته ، وإنما هو الذي يجلبُ بنفسه الشقاء إلى نفسه ، يشتدُّ طمعه في المال فيتعدَّر عليه مطمعه فيطولُ بكأؤه وعناؤه ، ويمتدُّ أن بلوغَ الآمال في هذه الحياة حقٌّ من حقوقه ، فإذا أخطأ سهمه ، والتوى عليه غرضه أنَّ وشكى شكاةَ المظلوم من الظالم، وبيالغ في حسن

ظنه بالأيام فإذا غدرت به في محبوبٍ لديه من مال أو ولد ،
فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدّر وقوعه ، فثاله من الهجم والألم
ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الأيام علماً وتجربة ،
وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عاريةٌ مستردة ، ووديمةٌ
موقوفة ، وإن هذا الإحراز الذي يزعمه الناسُ لأنفسهم
خُدعةٌ من خُدع النفوس الضعيفة ، ووم من أوهامها
إن كثير ما يصيب الناس من شقوةٍ إنما يأتي من طريق
الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد
يتألم كلما وقع نظره على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر
أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتألم كلما خاب
أمله في مطمع ، والشارب يتألم كلما أفق من سكره ،
والماهر يتألم كلما ناجته بالأنثم سريرته ، والظالم يتألم
كلما سمع ابتهاج المظلوم بالدعاء عليه ، وأحافت به عاقبة طمعه
وكذلك شأنُ الكاذب والتمام والمفتاب وكل من تشتمل
نفسه من رذيلة من الرذائل

من أراد أن يطلبَ السعادةَ فَلْيَطْلُبْهَا بينَ جوانبِ
النفسِ الفاضلةِ ، وإلا فهو أشقى العالمين ، وإن أحرز ذخائرَ
الأرضِ وخزائنَ السماءِ

قال الصديق : فما وصل الصيادُ من حديثه إلى هذا
الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال أستودعك الله
يا سيدي وأدعو لك الدعوةَ التي أحيتها لنفسك وأحييتها
لك ، وهي أن يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك
سعيداً في مالك ، والسلام عليك ورحمة الله .



الانتحار

في كلِّ مَوْسِمٍ من مواسم الامتحان المدرسيّ نسمعُ
بكثير من حوادث الانتحار بين المتخفين من التلاميذ
والراسبين ، ولو رُبِّي التلميذُ تربيةً دينيةً دقيقةً لما هان عليه أن
يخسر سعادته الأخرى خسراناً ميبِئاً أسفاً على أن لم ينل
كلَّ لحظة من السعادة الدنيوية ، ولو رُبِّي تربيةً أدبيةً لما
احتقر حياته الثمينة وازدراها ولَوَّى وجهه عنها لأنها لم تُقدِّم
إليه في لفافة الشهادة المدرسية ، ولو أن أستاذه ملأ قلبه
بنور الايمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن
جناية المرء على نفسه أكبرُ إثمًا عند الله وأعظمُ جرماً من
جنايته على غيره لما خاطر بدينه في آخر ساعةٍ من ساعات
حياته، وهي الساعة التي يُنِيب فيها العاصي إلى ربه، ويستغفر
فيها المذنب من ذنبه ، ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس

الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لاسلعة
 من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته ،
 لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على
 تلك القاعدة الفاسدة « الشهادة بلا علم خير من العلم بلا
 شهادة » ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي وعلمه أن الشرف
 في هذه الحياة على قدر ما يذل الإنسان من الجهد في خدمة
 الأمة أو المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار
 الوزارة ، وفي حاوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما
 أكبر مناصب الحكومة هذا الاكبار ، ولا احتفل بها
 احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه تفت في روعه
 روح الشجاعة النفسية وعوده الصبر والجلد في مواقف
 الشدة والبلاء لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جنّ هذا
 الجنون الذي خيل إليه أن عذاب النزع أهون من
 عذاب الهم

لا ينجي الطالب على نفسه ، وإنما ينجي عليه والده
 وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه

أما الوالدُ فانه يقول له وهو ذاهبٌ به إلى المدرسة
 ستكون غداً يا بُنى مديراً كهذا المدير، ووزيراً كهذا
 الوزير، وكلما أراد أن يُحضّنه على الاجتهاد في طلب العلم
 ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صور له المستقبل المجرد
 من الوظيفة أقيح تصوير وأشمعه، وربما أشار عليه بالانتحار
 من طرف خفي فيقول له إذا لم تنجح في الامتحان فوتك
 أفضلُ من حياتك، وأما الأستاذُ فانه يضرب له من نفسه
 مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله ولم تزل النزلة
 الأولى بين أعمال المجتمع الانساني إذ يراه بعينه يتجرعُ
 مرارةَ النذل ويماني من كبرياء رؤسائه وقسوة السبطين
 عليه عناء شديداً، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجلُ
 الشريف حرصاً على منصبه وإرعاءه عليه، فكأنما يلقي عليه
 درساً عملياً موضوعه « إن من يُخاطر بمنصبه يخاطر بحياته
 لأن المنصب كلُّ شيء في هذه الحياة » أما المجتمعُ فانه يحترم
 الموظفَ الصغير، أكثر مما يحترم العالم الكبير، ويظهر إلى

تهنئته بإقبال المنصب عليه وتمزيته يوم إيداره عنه ، كأن
الكوكب لا يدور إلا في دائرة المنصب نحوماً وسعوداً ،
فاذا رأى الناسى ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار ، ولجّ به
الحرصُ عليها ، والتلصق بها ، وكان سروره وحزنه على
قدر مرئها منه ، أو بعدّها عنه ، فاذا وفق إليها لطم بأفقه قبة
السما ، ودلس بتله هام الجوزاء ، وإن يش منها قتل
نفسه وهو يمثل بقول ذلك الشاعر الأحمق : فإما الثريا
وإما الثرى

أيها الناسى : لقد جهل أبوك وغشك أستاذك ،
وخدعك هذا المجتمعُ الفاسد ، فكن أحسنَ حالاً منهم واعلم
أن شرف العلم أكبرُ من شرف المنصب ، وأن المنصب
ما كان شرفاً إلا لأنه حسنةٌ من حسنات العلم ، وأثر من
آثاره ، فان فأتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر من
أن تشتد في أثره ، أو تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسد
أربابَ المناصب على مناصبهم ، فانما يخذعوك بزُخرف

من القول ، وظاهر من النعمة ، وبهـرج من الابتسام ،
 ووراء ذلك لوعلتَ قلبٌ يقطرُ دماً ، وفؤادٌ يضطرب
 لوعةً وأسى

خذ لنفسك حظاً من العلم والأدب ، ولا تحفلْ بعد
 ذلك بشيء ، فقد ربحْتَ كلَّ شيء



الجمال

الجمالُ هوالتناسبُ بين أجزاء الهيئاتِ المركبة، سواء
أكان ذلك في الماديات أم في المقولات ، وفي الحقائق أم
في الخيالات

ما كان الوجهُ الجميلُ جميلًا إلا للتناسبِ بين أجزائه ،
وما كان الصوتُ الجميلُ جميلًا إلا للتناسبِ بين نغماته، ولولا
التناسبُ بين حبات العقدِ ما افتنت به الحسناء ، ولولا
التناسقُ في أزهار الرّوض ما هام به الشعراء

ليس للتناسب قاعدةٌ مطردةٌ يستطيع الكاتب أن
يُبينها ، فالتناسب في المزيّنات ، غيرُهُ في السموعات ،
وفي الرسوم ، غيره في الخطوط ، وفي الشؤون العلمية ، غيره
في القصائد الشعرية ، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت

الأذواقُ السليمة تُدرك يَفطَرُها ما يلائمها قترتاح إليه ،
وما لا يلائمها فتتفرُّ منه

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنفَ الصغيرَ
في الوجهِ الكبيرِ ، والرأسَ الكبيرَ في الجسمِ الصغيرِ ،
ولا يفرقون بين البرصِ في الجسمِ الأسودِ ، والخالِ في الخلدِ
الأبيضِ ، ويَطْرَبُونَ لتقيق الضفادع كما يطربون لخبر المياه ،
ويفضلون أصواتَ النواخيرِ على أنغام الميذان ، ويُحِبُّونَ
بشعر ابنِ الفارض وابنِ معنوق والبرعي أكثرَ مما يُحِبُّونَ
بشعر أبي الطيب وأبي تمامٍ والبُخَّري ، ويضحكون لما
يبيكى ، ويكون مما يضحك ، ويرضون بما يفضب ،
ويفضبون مما يرضى

أولئك هم أصحابُ الأذواقِ المريضة ، وأولئك هم الذين
تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوّهةٌ غيرَ متناسبةٍ ولا
متلائمةٍ ، لأنهم لم يدركوا سرَّ الجمال فيصدر عنهم ، ولم
تألفه قوسهم فيصبحَ غريزةً من غرائزهم

إن رأيتَ شاعراً يتدنى قصائدَ التهتةِ بالبكاءِ على
الاحلال ، ويُدعِ القصائدَ الرثائية ، النكتَ المزلية ،
ويتنزل بممدوحه ، كما يتنزل بمشوفه ، أو متكلم يقتضبُ
الأحاديثَ اقتضاباً ، ويهزل في موضع الجد ، ويحدُّ في موضع
الهزل ، أو صحفياً يضع العنوانَ الضخمَ للخبر التافه ، ويكتب
مقدمةً في السماء لموضوع في الأرض ، أو حاكماً يضع
النَّدَى في موضع السيف ، والسيفَ في موضع النَّدَى ، أو
ماشياً يتلوَّى في طريقه من رصيف إلى رصيف ، كأنما يريم
خطاً متعرجاً ، أو لباساً في الشتاء غلالة الصيف ، وفي الصيف
فروة الشتاء ، فاعلم أن ذوقه مريضٌ ، وأنه في حاجة إلى معالجة
ذوقه ، كحاجة المجنون إلى علاج عقله ، والمريض إلى علاج
جسمه

كما أنه ليس كلُّ مجنونٍ يرحى شفاؤه ، ولا كلُّ مريضٍ
يرجى إبلاله ، كذلك ليس كلُّ من فسد ذوقه يُرجى صلاحه ،
فإن رأيتَ من تُؤمل في صلاحه خيراً وتجدُّ في نفسه

استعداداً لتقويم ذوقه فصلاحه أن تحفه بأنواع الجمال
وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤلفاته ، وإن استطعت
أن تُعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى
فأفضل ، فإنها للقوِّماتُ للأذواق ، والتارساتُ في النفوس
ملكاتِ الجمال



الكذب

كَذِبُ اللِّسَانِ مِنْ فَضُولِ كَذِبِ الْقَلْبِ، فَلَا تَأْمَنُ
الْكَاذِبَ عَلَى وَدٍّ، وَلَا تَتَّقِ مِنْهُ بِمَعْدٍ، وَاهْرَبْ مِنْ وَجْهِ
الْمُهْرَبِ كُلِّهِ، وَأَخُوفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ خُلُطَائِكَ
وَسَجَرِ الْمَكْرِجِ الْكَاذِبِ

عَرَفَ الْحَكَمَاءُ الْكَذِبَ بِأَنَّهُ مُخَالِفَةُ الْكَلَامِ لِلْوَاقِعِ،
وَلَعَلَّهُمْ جَارُوا فِي هَذَا التَّعْرِيفِ الْحَقِيقَةَ الْعَرَفِيَّةَ وَلَوْ شَاءُوا
لَأَضَافُوا إِلَى كَذِبِ الْأَقْوَالِ كَذِبَ الْأَفْعَالِ

لَا فَرْقَ بَيْنَ كَذِبِ الْأَقْوَالِ وَكَذِبِ الْأَفْعَالِ فِي
تَضْلِيلِ الْعُقُولِ وَالْعَبَثِ بِالْأَهْوَاءِ وَخَذْلَانِ الْحَقِّ وَاسْتِعْلَامِ
الْبَاطِلِ عَلَيْهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فَيَقُولَ إِنِّي
ثِقَّةٌ أَمِينٌ لَا أَخُونُ وَلَا أَغْدُرُ فَأَقْرِضْنِي مَالًا أَوْ ذِمَّةً إِلَيْكَ ثُمَّ

لا يؤدبه بمدلك. وبين أن يأتيك بسبحة يحمهم بها فتتق
سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ،
فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى ، لا بل يستطيع
كاذبُ الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذبُ
الأقوال مرة واحدة ، لأنه لا يكتفى بقول الزور بلسانه
حتى يُقيم على قضيته ينه كاذبة من جميع حركاته وسكناته
ليس الكذب شيئاً يستهان به ، فهو أسُّ الشرور ووذيلة
الردائل ، فكأنه أصلُ الردائلُ فروعُه له ، بل هو الردائلُ
نفسها ، وإنما يأتي في أشكال مختلفة ، ويُمثل في صور متنوعة
المنافق كاذبٌ لأن لسانه ينطق بنير ما في قلبه ،
والمتكبر كاذبٌ لأنه يدعى لنفسه منزلة غير منزلته ،
والفاسق كاذبٌ لأنه كذب في دعوى الإيمان وتقضى
معاهدة الله عليه ، والنمام كاذبٌ لأنه لم يتق الله في فتنته ،
فيتحرى الصدق في غيمته ، والمتلق كاذبٌ لأن ظاهره
ينفعك ، وباطنه يلدعك

لقد هان على الناس أمرُ الكذب حتى أنك لتجدُ
الرجلَ الصادقَ فتمرضُ على الناسِ أمره وتطرفهم بحديثه
كأنك تمرضُ عجائبَ المخلوقات ، وتحدثُ بخوارقِ
العادات

فويلٌ للصادق من حياة نكدة لا يجدُ فيها حقيقةً
مستقيمةً ، وويلٌ له من صديقٍ يخونُ العهدَ ، ورفيقٍ
يكذبُ الوُدَّ ومستشارٍ غير أمينٍ ، وجاهلٍ يُفشي السرَّ ،
وعالمٍ يُحرِّفُ الكلامَ عن مواضعه وشيخٍ يدعى الولايةَ
كذباً ، وتاجرٍ ينشئُ في سلعتهِ، ويبحثُ في أيمانه، ويصنعُ
يتجرُ بمقول الأحرار، كما يتجرُ النخاسُ بالمبيد والإماء ،
ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كلِّ صباحٍ
ومساء



غرفة الاحزان

كان لى صديقٌ أُحِبُّهُ لفضله وأدبه أكثر مما أُحِبُّهُ
 لصلاحه ودينه ، فكان يَرُوقِي مَنْظَرُهُ وَيُؤْنَسِي مَحْضَرُهُ ،
 ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، أو فسقه
 واستهتاره ، لأننى ما فكرتُ قط أن أتلقى عنه علومَ
 الشريعة أو دروسَ الأخلاق

قضيتُ فى صحبته عهداً طويلاً ما أنكرُ من أمره ولا
 ينكرُ من أمرى شيئاً حتى سافرتُ من القاهرة سَفراً طويلاً
 فتراسلنا حيناً ثم انقطعتْ عني كُتُبُهُ فرابنى من أمره
 ما رابنى ، ثم رجعتُ فجعلتُ أكبرَهمى أن أراه فطلبتَه فى
 جميعِ المواطنِ التى كنتُ ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبتُ إلى
 منزله فحدثني جيرانه أنه هجره من عهدٍ بعيدٍ وأهم

لا يعرفون أين مصيره ، فوقفتُ بين اليأسِ والرجاءِ برهةً
من الزمان ، يغالبُ أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنتُ أن قد
قدتُ الرجلَ ، واني لن أجدَ بعد اليوم إليه سبيلا

هنالك ذرقتُ من الوجدِ دموعاً لا يذرفها إلا من
قلَّ نصيبه من الأصدقاء ، وأقرر ربّعه من الأوفياء ،
وأصبح غرضاً من أغراض الأيام ، لا تُخطّطه سهامها ، ولا
تُنبئها آلامها^(١)

بيننا أنا عائدٌ إلى منزلي في ليلةٍ من ليالي السرار^(٢)
إذ دفنى الجملُ بالطريق في هذا الظلام المدهم إلى زقاقٍ
موحش مهجورٍ يحيلُ للتأمل إليه في مثل تلك الساعة التي
مررتُ فيها أنه مسكنُ الجان ، أو مأوى الفيلان ، فشعرتُ
كأنني أخوضُ بحراً أسود يزخرُ بين جبلين شامخين ، وكأنَّ
أمواجه تُقبلُ بي وتُدبرُ ، وترتفعُ وتنخفضُ ، فاقوسطتُ

(١) نغمه الالم جملہ جیتا ہند چین (٢) ليالى السرار ليالى الاخيرة من العہر

لُجَّته حتى سمعتُ في منزلٍ من تلك المنازل المهجورة أَنَّهُ تَرَدَّدُ
 في جوف الليل ثم تلتها أختها ثم أخواتها فأثر في نفسي مسممها
 تأثيراً شديداً وقلتُ يا للعجب! كم يكتم هذا الليلُ في صدره
 من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين، وكنتُ قد عاهدتُ
 الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقفَ أمامه وقفةً المساعدِ
 إن استطعتُ، وألباكي إن عجزتُ، فلتَمَسْتُ الطريقَ إلى
 ذلك المنزل حتى بلغتُه فطَرَقْتُ البابَ طَرَقاً خفيفاً فلم يُفْتَحْ
 فطَرَقْتُهُ أُخْرَى طَرَقاً شديداً ففتحت لي فتاةٌ صغيرةٌ لم تكْذُ
 تسَلِّحُ العاشرةَ من عمرها فأملتُها على ضوء المصباح الضئيل
 الذي كال في يدها فلذا هي في ثيابها الممزقة، كالبدوراء النجوم
 المتقطعة، وقلتُ لها هل عندكم مريضٌ، فزفرت زفرةً كاد
 يتقطع لها نياطُ قلبها، وقالت أذكرك أبي أيها الرجلُ فهو
 يُعالجُ سكراتِ الموت، ثم مشت أُمِّي فتبعَتْها حتى وصلتُ
 إلى غرفة ذات بابٍ قصيرٍ مُسَمَّى فدخلْتُها فغيل إلى أني قد
 انتقلتُ من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة

قبرٌ والمرىضَ ميتٌ، فدنوتُ منه حتى صرتُ بجانبه، فاذا
قفصٌ من العظم يترددُ فيه النفسُ تردّدَ الهواءِ في البُرجِ
الخشبيِّ، فوضعتُ يدي على جبينه ففتحَ عينيه وأطالَ
النظرَ في وجهي ثم فتحَ شفّتيه قليلا قليلا وقال بصوتٍ
خافتٍ: «أحمدُ اللهَ فقد وجدتُ صديقاً» فشعرتُ كأنَّ
قلبي يتمشّى في صدري جزءاً وهلمّا وعلمتُ أنّي قد عثرتُ
بضالتي التي كنتُ أنشدُها، وكنتُ أعني ألاّ أعثرَ بها وهي
في طريقِ الفناء، وعلى بابِ القضاة، وألاّ يُجددَ لي مرّاًها
حزناً كان في قلبي كيناً، وبين أعضالي دفيناً، فسألته ما باله،
وما هذه الحالُ التي صار إليها، وكان أنسَه في أمدٍ مصباحَ
حياته الضئيلَ بقليلٍ من النور فأشار إلى أنه يُحبُّ النهوضَ
فددتُ يدي إليه فاعتمدَ عليها حتى استوى جالساً وأنشأ
يقصُّ عليّ القصةَ الآتيةَ: —

منذُ عشرينَ كنتُ أسكنُ أنا ووالدتي بيتاً يسكنُ
بجانبه جارتنا من أربابِ الثرل والنعمة، وكان قصره يضمُّ

بين جناحيه فتاة ما ضمت القصورُ أجنتها على مثلها حسنا
 وبهاء ، وروثقا وجمالا ، فألمَ بنفسى من الوجدِ بها ما لم
 أستطعُ معه صبرا ، فازلْتُ بها اعالجها فتمتّعُ ، وأستزِلُّها
 فتعذرُ ، وأتأقّى إلى قلبها بكلِّ الوسائل فلا أصلُ إليه ، حتى
 عثرتُ بمنفذ الوعدِ بالزواج ، فأنحدرتُ منه إليها ، فسكن
 جاحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتُها قلبها وشرَّفها في يوم
 واحد ، وما هي إلا أيامٌ قلَّائلٌ حتى عرفتُ أن جنينا يضطربُ
 في أحشائها ، فأستقط في يدي ، وطفقتُ أرثى بين أن أفي لها
 بوعدها ، أو أقطعَ حبلَ ودِّها ، فأثرتُ أخراها على أولاهما ،
 وهجرتُ ذلك المنزلَ إلى المنزل الذي كنتُ تزورني فيه ،
 ولم أعدُ أعلمُ بمد ذلك من أمرها شيئا

مرت على تلك الحادثة أعوامٌ طوالٌ وفي ذات يوم
 جاءني منها مع البريد هذا الكتابُ ومد يده تحت وسادته
 وأخرج كتابا بالياً مصفراً فقرأتُ فيه ما يأتي : —

.... لو كان بي أن أكتب إليك لأجد عهداً دارساً،
أو ودّاً قديماً، ما كتبت سطرّاً، ولا خطت حرفاً، لأنّي
لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك النادر، وودّاً مثل وُدّك
الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه
فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي ناراً تضطرم،
وجنينا يضطرب، تلك للأسف على الماضي، وذلك للخوف
من المستقبل، فلم تبّل بذلك وفررت مني حتى لا تحمل
نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف
يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن
أتصور أنك رجل شريف، لا بل لا أستطيع أن أتصور
أنك إنسان، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة
في قموس المجاوات وأوايد الوحش إلا جمعتها في نفسك
وظهرت بها جميعها في مظهر واحد.

كذبت عليّ في دعوالك أنك شجيّ، وما كنت شجيّة

إلا نفسك ، وكلُّ ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيلَ إلى
إرضائها فررتَ بى فى طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرفتَ
لى بابا ، ولا رأيتَ لى وجهاً

خُنتنى إذ عاهدتني على الزواج فأخلفتَ وعدك ذهاباً
بنفسك أن تزوجَ امرأةَ مجرمةٍ ساقطةٍ ، وما هذه الجريمةُ
ولاتلك السُّقطةُ إلا صنعةُ يدك ، وجريئةُ نفسك ، ولولاك
ما كنتَ مجرمةً ولا ساقطةً ، فقد دافعتك جهدى حتى
عَيتُ بأمرِك فسقطتُ بين يديك سقوطَ الطفلِ الصغيرِ ،
بين يدي الجبار الكبير

سُرقتَ عفتي ، فأصبحتُ ذليلةً النفسَ حزينةً القلبَ ،
أستقلُّ الحياةَ وأستبطئُ الأجلَ ، وأيةُ لذةٍ فى العيشِ
لامرأةٍ لا تستطيعُ أن تكونَ زوجةَ رجلٍ ، ولا أمًّا لولدٍ بل
لا تستطيعُ أن تمبشَ فى مُجتمعٍ من هذه المجتمعاتِ البشيرةِ
إلا وهى خافضةُ رأسها ، مُسبلةُ جفنها ، واضعةُ خدِّها على
كفها ، ترتدُّ أوصالها ، وتنبؤُ أحشاؤها ، خوفاً من
صبتِ المايين ، وبهمكُم المتهكمين

سلبتني راحتي، لأنني أصبحت مضطربة بعد تلك الحادثة
إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعاً فيه بعشرة
أبي وأمي، تاركاً ورثتي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش
الرغد إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرُق
بابه طارق، لا أقضى فيه الصباية الباقية لي من أيام حياتي
قتلت أُمي وأبي، فقد علمتُ أنهما ماتا، وما أحسب
موتهما إلا حزناً لفقدى، وبأساً من لقاء

قتلتني، لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك،
والهمم الطويل الذي عالجته بسببك، قد بلنا مبلغهما من
جسمي ونفسي، فأصبحتُ في فراش الموت كالذئبالة المحترقة
تتلاشى نفساً في نفس، وأحسبُ أن الله قد صنع لي، واستجاب
دعائي، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء، إلى دار
الحياة والمناة.

فأنت كاذبٌ خادعٌ، ولصٌ قاتلٌ، ولا أحسبُ أن
الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك

ما كتبتُ إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً، أو
أخطبُ إليك ودّاً، فأنت أهونُ علىّ من ذلك، على أنّي
قد أصبحتُ على باب القبرِ وفي موقفِ وداعِ الحياة بأجمعها
خيرها وشرّها، سعادتها وشقتها، فلا أملَ لي في ودّ، ولا
متسعَ لهدوءٍ، وإنما كتبتُ إليك لأنّ لك عندي وديعةً وهي
فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك
منها رحمة الأبوة فأقبلْ إليها وخذها إليك حتى لا يدركها
من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها

فاأتمتُ قراءة الكتاب حتى نظرتُ إليه فرأيتُ
مدامعةً تتحدّرُ على خديّهِ فسألتُهُ وما ذاتم له بعد ذلك، قال
إنّني ما قرأتُ هذا الكتاب حتى أحسستُ برعدةٍ تمشي
في جميع أعضائي، وخُيلَ إليّ أنّ صدري يحاولُ أن ينشقَّ
عن قلبي حزناً وجزعاً فأسرعتُ إلى منزلها وهو هذا المنزلُ
الذي تراني فيه الآن فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير
جثة هامدة لا حراك بها، ورأيتُ فتاتاً إلى جانبها تبكي بكاءً

مَرَّ أَفْصَعْتُ لَهَوْلَ مَا رَأَيْتُ، وَتَمَثَّلْتُ لِي جِرَائِي فِي غَشِيَّتِي
كَأَنَّمَا هِيَ وَحُوشٌ صَارِيَةٌ، وَأَسَاوِدُ مُلْتَفَّةٌ، هَذَا يَنْشَبُ
أُظْلَافُهُ، وَذَلِكَ يُحَدِّدُ أُنْيَابَهُ، فَمَا أَقْبْتُ حَتَّى عَاهَدْتُ اللَّهَ الْآ
أَبْرَحَ هَذِهِ الْغُرْفَةَ الَّتِي سَمَّيْتُهَا «غُرْفَةُ الْأَحْزَانِ» حَتَّى
أَعِيشَ فِيهَا عَيْشَهَا، وَأَمُوتَ مَوْتَهَا

وَهَذَا أَمُوتُ الْيَوْمَ رَاضِيًا مُسْرُورًا فَقَدْ حَدَّثَنِي فَلْي
أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِي سَيِّئَاتِي بِمَا قَاسَيْتُ مِنَ الْعَنَاءِ، وَكَابَدْتُ
مِنَ الشَّقَاءِ

وَمَا وَصَلَ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ حَتَّى انْعَقَدَ لِسَانُهُ
وَكَفَهُرَ وَجْهُهُ وَسَقَطَ عَلَى فِرَاشِهِ فَأَسْلَمَ الرُّوحَ وَهُوَ يَقُولُ:-
ابْنِي يَا صَدِيقِي، فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ سَاعَةً قَضَيْتُ فِيهَا مَا يَجِبُ عَلَى
الصَّدِيقِ لِصَدِيقِهِ، ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَمَعَارِفِهِ فَخَضَرُوا
تَشْيِيعَ جَنَازَتِهِ، وَمَا رُئِيَ مِثْلُ يَوْمِهِ يَوْمٌ كَانَ أَكْثَرِيَا كِيَّةً وَبَا كِيًا
وَلَا حُثُونًا التُّرْبَ فَوْقَ ضَرْيَعِهِ

جَزَعْنَا وَلَكِنْ أَيْ سَاعَةً مَجْزَعٍ

يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي أَكْتُبُ قِصَّتَهُ ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْسِي مِنَ
الْبُكَاءِ وَالنَّسِيحِ ، وَلَا أَنْسَى مَا حَيَّيْتُ نَدَائِهِ لِي وَهُوَ يُودِّعُ
نَسَمَتِ الْحَيَاةِ وَقَوْلَهُ : « ابْقِي يَا صَدِيقِي »

فَيَا أَقْوِيَاءَ الْقُلُوبِ مِنَ الرِّجَالِ ، رَهْفًا بِضُمُقِهَا النَّفُوسِ
مِنَ النِّسَاءِ ، إِنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ حِينَ تَخْدَعُونَهُنَّ عَنْ شَرَفِهِنَّ
وَعَفَّتِهِنَّ ، أَيَّ قَلْبٍ تَفْجَمُونَ ، وَأَيَّ دَمٍ تَسْفِكُونَ



الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء
 ما من عاملٍ يعملُ في هذه الحياة إلا وهو يطلبُ
 في عمله الشرفَ الذي يتصوره أو يُصوره له الناس ، إلا
 أنه تارةً يُخطئ مكانه وتارةً يُصيبُ

يَقْتُلُ القاتِلُ وفي اعتقاده أن الشرفَ في أن ينتقمَ
 لنفسه أو عِرضه بإزالة هذه الكية من الدم ، ولا يُبالى
 أن يسميه القانونُ بمد ذلك مجرمًا ، لأن البيئة التي يعيشُ
 فيها لا توافقُ على هذه التسمية ، وهي في نظره أعدلُ من
 القانونِ حُكمًا ، وأصدقُ قولاً

يفسقُ الفاسقُ وفي اعتقاده أنه قد نقض عن نفسه بعمله
 هذا غبارَ الحولِ والبله الذي يُظلل الأعمى والمستقيمين ،

وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدمُ عليه إلا كلُّ ذى حِذْقٍ
وبراعةٍ، وشجاعةٍ وإقدامٍ

يَسْرِقُ السَّارِقُ وَيَزُورُ الْمُزُورُ وَيَخُونُ الْخَائِنُ ، وَفِي
اعتقاد كلِّ منهم أن الشرفَ كلُّ الشرفِ في إحراز المال وإن
كان السبيلُ إليه دينيًّا وسافلاً ، وأن للذهب رينتًا تَخَفِيتُ
بجانب صوته أصولُ المعارضين والناقدين شيئًا فشيئًا ، ثم
تَنَقَّلُ حَتَّى لَا يُسْمَعَ بِجَانِبِهِ صَوْتُ سِوَاهُ

هكذا يتصورُ الأدياءُ أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون
الشرفَ ويخطئون مكانه ، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين
أحاطوا بهم من سجراتهم وخططاتهم وذوى جامعتهم ،
أولئك الذين يحترقون الموقرَ حَتَّى يَنْسِلَ النَّسَمَ بِالنَّسَمِ فَيُعْظَمُونَهُ ،
وَيَنْعَوْنَ عَلَى الرَّجُلِ الْهَفِّ الْمُسْتَقِيمِ بِلَاهَتِهِ وَخَمُولِهِ حَتَّى
يَفْجَرُ وَيَسْتَهْتَرُ فَيُطْرُونَهُ وَيُجْلُونَهُ ، وَيُكْرِمُونَ صَاحِبَ
الذهب ولو أن كلَّ دينارٍ من دنانيره حُجِّمٌ مِنَ الدَّمِ ، وَأُولَئِكَ

الذين يسمون الفقير سافلاً، وطيب القلب مُغفلاً، وظاهر
السريّة بليداً، والحليم عاجزاً

لا تمجّب إن سمعت أن جماعة الأغنياء والجهلاء
تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرم ثوباً
غير ثوبها، وتراعى في لون غير لونها، فإن بين الخاصة
الذين نمتدّ بقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق
بين الرذيلة والفضيلة، حتى انه ليكاد يفخر بالاولى ويستحي
من الأخرى

لولا فسادُ التصوّر ما افتخر قائدُ الجيش بأنه قتل مائة
ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة،
ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد
التصوّر ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء
العلماء والحكماء والأطباء خدّمة الانسانية وحلّة عرشها
وأصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة
واحدة، ولولا فسادُ التصوّر ما جلس القاضي المرتضى فوق

كرمى القضاء يقتلُ شاربيه ، ويُصمِّرُ خدَّيه ، وينظرُ
 نظراتِ الاحتقارِ والازدراءِ إلى المتهمِ الواقفِ بين يديه
 موقفُ الضَّراعةِ والذلِّ ، ولا ذنبَ له عنده إلا أنه جامعُ
 وضاعتْ بهِ مذاهبُ العيشِ فسرقَ درهماً ، وهو يسرقُ
 الدنانيرَ في جميعِ آثامِهِ وأوقاته ، ولولا ما توهَّم وهو اللصُّ
 الكبيرُ ، أنه أشرفُ من هذا اللصِّ الصغيرِ ، ولوباتا
 عند قذرتيهما لَوَقفاً مما في موقفٍ واحدٍ أمام قاضٍ عادلٍ
 يحكمُ بإدانةِ الأولِ ، لانه سرقَ مختاراً إِرْفَهَ عيشه
 وبراعةِ الثاني ، لأنه سرقَ مضطراً ، لِيُنْقِذَ حياته من
 براثنِ الموتِ

فمن شاء أن يَهْدِبَ أخلاقَ الناسِ ، ويقوِّمَ مُعْوجَّها
 فليَهْدِبِ تصوراتِهِمْ ، وليَقوِّمَ أَفْهَامَهُمْ ، يوافِهِ ما يريدُ من
 التهذيبِ والتَّقْوِيمِ

ليس من الرأى أن يُشيرَ المعلمُ على المتعلم أن يجعلَ
 هذا المجتمعَ الانسانيَ ميزاناً يزنُ بهِ أعماله ، أو مِرآةً يرى

فيما حسنته وسبباته ، فالمجتمع الانساني مصابٌ بالسقم
في فهمه ، والاضطراب في تصوّره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا
ثقة بوزنه وتقديره

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب
في حياته الشرف الاعتباري ، فليس كل ما يعتبره الناس
شرفاً هو في الحقيقة كذلك

الأترام يمدّون أشرف الشرف أن يتناول الرجل
من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحملها صدره ، وربما
كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهرى
حليتها

لا شرف إلا الشرف الحقيقي ، وهو الذى يناله الانسان
ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشرى جميعه
أو خدمة نوع من أنواعه

فالعالم شريف ، لأنه يحاول صدأ العقل الانسانى ويصقل
مبادئه ، والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف ، لأنه

يحمي مواطنيه فائلاً الأعداء، وقيهم عادية الفناء، والمحسن
الذي يضع الإحسان في موضعه شريف، لأنه يأخذ بأيدي
الضعفاء، ويحمي أنفس البؤساء، والحاكم العادل شريف،
لأنه رسول العناية الإلهية إلا المظلومين ينعمهم أن ينحى
عليهم الظالمون، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف، لأنه
يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخطائه،
ويبقى عليهم بالقوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق
والآداب، والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا
أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا
المجتمع البشري ويحملون في سبيل ذلك ما يحملون من
المؤونة والمشقة حذراً عليه من التهاون والسقوط

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من
هؤلاء فاعلم أنك شريف، وإلا فاسلك طريقهم جهلك،
فإن لم تبلغ غايته، فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن
لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصصاً أحدُ الكتاب ،
موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام ثم عاد
إليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال ووجوههم
ومن ذوى الأخلاق الكريمة والأفئس العالية ، فوجده
حزيناً كئيباً على غير ما يعمدُ من حاله قبل اليوم ، فاستفهم
منه عن دخيلة أمره فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يُحبها
ويُحِبُّها ويُهدئها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعة ولم ترع عهدَه
وأنها فرّت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضعيع النسب ،
فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرف منها سرّ فرارها
من بيت زوجها فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت لها عن
فعلتها بأنها لا تُحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي

لم تبلغ العشرين ، وقالت إنها جرت في ذلك على حكم
الشرائع الطبيعية ، وإن خالفت الشرائع الدينية لأن الأولى
عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت إن ما يسميه الناس بالزنا والحياة
هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، لأن أساسه الحب ، وكل
ما كان أساسه الحب فهو طاهر شريف ، وإن كان في أمين
الناس عيباً وعاراً ، وقالت : ما الخيانة ولا الجريمة ، ولا الفس
ولاحيداع إلا أن تأخذ المرأة زوجها الذي تكرهه بالإمام
بها الإمام الأزواج بنسائهم مادامت لا تحبه ولا تألف عشرته
وقالت : لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا
أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها
ربما تعد المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها
طاهرة ، إذا كانت تكرهه الأول وتحب الثاني

هذا ملخص القصص على طولها ، وأحسبها قصة
موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر
رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب ، لأن

الكاتب قد أعذر^(١) تلك الفتاة فيما فعلت ، وافتتح بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها^(٢) وقضى لها فيما كان بينهما

وسواء أكانت القصة حقيقة أم خيالية ، فالحق أقول إن الكاتب أخطأ في وضعها ، وما كنت أحسب إلا أن مذهب الاباحية^(٣) قد مضى واقتضى باتقضاء المصور المظلمة حتى فرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية فتالني من الهم والحزن ما الله أعلم به قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أوسائق حاجة ثم ثاب إليها رثها وهداها ، قفلنا لا بأمن يهوينهم ذنباً جسسته العادة ، وألبسته ثوباً أوسع من ثوبه ، ولا بأمن برحتهم فتاة مذنبه تحاول الرجوع إلى ربها ، والتوبة من

(١) امرها قتل عدوها (٢) أعداها عليه انتص لما منه (٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً

ذنبها، وبأبي المجتمع البشري إلا أن يسدَّ عليها أبواب السماء.
المنفتح للقاتلين والمجرمين

أما وقد وصل الحدُّ إلى ترين الزنا الزانية وتهورين
إثمه عليها وإغراء المصيفة الصالحة بالتردد على زوجها والخروج
عن طاعته كلما دماها إلى ذلك داعٍ من الهوى فهذا ما لا يُطاق
احتماله، ولا يستطيع قبوله

إن فتاة الرواية لم تهفُ في جريعتها قط كما يهفو غيرها
من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد،
وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت رُوحها باقية
في جسدها، ولم يسفها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح
أن تكون الشهوة البشرية عنرا يدفع مثلها إلى مثل
ما صنعت، لأنها فرت من فراش زوجها، لا من وحشة
خلوتها، ولا سائق جوع، لأنها كانت أهنأ النساء عيشاً،
وأروحهن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة

والتقلب في أعطاف العيش البارد لم ترَ مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فعلى امرأة مجرمة لا يمتحها المدل من الرحمة ما منع المرأة الساقطة

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللثة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم لأنها لا تُسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة ، والخير والصالح ، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواقير لأنها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ، ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً ، فإذا جاز لكل زوجة أن تقر من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى

النظام البيئي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام
 أيها الكاتب: ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك
 ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصدّ
 كره النّداة ومرّ العشيّ حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة
 أن تراه زوجته غير أهلٍ لعشرتها إذا علمت أن في الناس من
 هو أصغر منه سنًا وأكثر روقًا وأنضر شبابًا
 إن الضجر والسّامة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة
 من طبائع النوع الانسانيّ فهو لا يصبرُ على ثوب واحد
 أو طعام واحد أو عشيّ واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى
 ذلك منه وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بنى على رجلٍ
 وامرأة تدوم عِشرتهما ، ويطولُ اثلاهُما ، فوضع قاعدةَ
 الزواج الثابت ، ليهدمَ بها قاعدةَ الحبّ المضطرب ، وأمرَ
 الزوجين أن يعتبرا هذا الرّباطَ رباطًا مقدّسًا حتى يحولَ
 بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما ، ودّعاها في أمر الزوجية

مذهبهما في الطعام والشارب، من حيث الميل لكل جديد،
والشفغُ بكلِّ غريب

هذا هو سرُّ الزواجِ وهذه حكمتُه، فمن أراد أن يجعلَ
الحُبَّ قاعدةَ العشرةِ بدلا من الزواجِ فقد خالف إرادة الله
وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادةَ البتيةَ
آية امرأةٍ متزوجةٍ بأجلِ الرجال لا تحدُّها نفسها
بالرغبة في استبداله بأجل منه ، وأى رجلٍ متزوجٍ بأجلِ
النساء لا يمتنى أن يكون في منزله أجلٌ منها ، لولا هذا
الرِّباطُ المقدسُ رِباطُ الزوجية ، فهو الذى يعالج أمثال هذه
الأماني . وتلك الهواجسِ وهو الذى يُعيدُ إلى النفوسِ
الثائرةِ مكنونها وقرارها

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عَقْدِ الزواجِ من وجود
الصفةِ المحبوبةِ لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس
أن تصنع المرأةُ صنيعه ، ولكن لا على معنى أن يكون
الحُبُّ الشهْوَى هو قاعدة الزواجِ ، يحيا بحياته ، ويموت

بموته ، فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى أن
 يكون كل منهما الصاحبه صديقاً ، أكثر منه عشيقة ،
 فالصدقة ينمو بالوادة غرسها ويمتد ظلها ، أما الحب فظل
 ينتقل ، وحال تتحول



الاسلام والمسيحية

ما عجتُ لشيء في حياتي عجي لهؤلاء الذين يمجون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الاسلام كأنما كانوا يتوفمون من رجل يدين بدين غير دين الاسلام ويضنُّ به ضنُّه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية ، ويعتدق الرسالة المحمدية ، وقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلاً

إن اللورد كرومر يمتدُّ كما يمتدُّ كلُّ مسيحي متمسك يسوعيته أن الاسلام دينٌ موضوعُ ابتداعه رجلٌ عربيٌّ بدويٌّ أميٌّ ماقرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدينة الرُّومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والأعران

هذا مبلغٌ مُتَقَدِّمٌ في ذلك الرجل فكيف يرى نفسه بين يديه أصغرَ من أن ينافسه ويُناظره ويُخطِّئه فيما وضعه للناس من الشرائع والأحكام ، وكيف يسمح لنفسه أن ينظرَ إليه بالعين التي ينظرُ بها المسلمُ إليه من حيثُ كونه نبياً مُرسلاً مُوحىً إليه من عند الله تعالى بكتابٍ كريمٍ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، أما ما قرؤوه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الاسلام وإطراء أحكامه وآياته فهو مكتوبٌ بأقلام قومٍ مؤرخين قد أذوا للتاريخ حقَّ الأمانة والصدق ، فلم يعبث التعصبُ الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروحُ المسيحيةُ في أقلامهم ، ولا رَبَّ في أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيلَ إليه أنه يسمعُ صوتَ راهبٍ في صومعته قد لبس قلنسوته ومُسوحه وعلّق صليبه في زناره

فهل يحقُّ بعد ذلك لأحدٍ من المسلمين أن يندعشَ

أو يذهبَ به العجبُ كلَّ مذهبٍ إذا رأى في كتاب اللورد
 كرومر ما يراه كلَّ يوم في كتب المبشرين الانجيليين،
 وجرائدِهم ومجلاتِهم ، من الطعنِ على الاسلام وعقائده
 وشرائعه

بلغ التمسُّبُ الدينيُّ بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود
 اللحنِ في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتابٌ عربيٌّ نظمه
 على حسب مُتقدِّم رجلٌ هو في نظرهم أفصحُ العربِ ،
 وليستْ مسألةُ الإعرابِ واللحنِ مسألةً عقليةً يكونُ
 للبحثِ العقليِّ فيه مجالٌ ، وإنما الإعرابُ ما نطق به العربُ ،
 واللحنُ ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطَلَحوا على نصبِ
 الفاعلِ ورفعِ المفعولِ مثلاً لكان رفعُ الأولِ ونصبُ الثاني
 لحناً ، ولكنَّ جهلةَ المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه
 المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحنِ في القرآن بقواعد
 النحو التي مادونُها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب
 وتبموا تراكيه وأساليبه ، وأكبرُ ما اعتمدوا عليه

في ذلك هو القرآنُ المجيدُ، فالقرآنُ حجةٌ على النحاة، وليست
النحاةُ حجةً على القرآن، فاذا وجد في بعض تراكيب القرآن
أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاةُ حكمنا
بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء، على أنهم ما قصرُوا
في شيء من ذلك، وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً
ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم، فلا القرآنُ يُلْحَنون، ولا
النحاةُ مقصرون، ولكنَّ المبشرين جاهلون، فإذا كان
التعصبُ الديني أطلق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة
فليس بغير أن نسمع من هذا الرجلِ التشبيهَ بهم هذا
الطعنَ على الإسلام في عقائده وأحكامه

إنا لا ننزعُ اللوردَ كرومرَ ولا أمثاله من الطاعنينَ
على الإسلام في مُتَقَدِّمِهِمْ، ولكننا نُحِبُّ منهم ألا ينازعونا
في مُعْتَدِنَا، وأن يُعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه
لأنفسهم

يقول اللورد كرومر: إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدينة الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعي، ويقول إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الاسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين

في أى عصر من عصور التاريخ كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدينة والعمران ؟ أفى العصر الذى كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليك تارة وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيمة اسود لها لباس الانسانية، وبكت الارض منها والسماء؟ أم فى العصر الذى كانت إرادة المسيح فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل فلا يعلم إلا ما تعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقى عليه، فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه بكفر أو إيمان، وبهيمة أو إنسانية، فيكاد يتخيل فى نفسه أن له ذنباً متحركاً

وخيشوما طويلا وأنه يمشی على أربع إذا قال له الكاهنُ
 أنت كلبٌ أو قال له إنك لستَ بإنسان، أم في المصر الذي
 كان يعتقده فيه المسيحي أن دخولَ الجملِ في سَمِّ الخياط
 أقربُ من دخول النخ في ملكوت السموات ؟ أم في المصر
 الذي كان يحرم فيه الكاهنُ الأعظم على المسيحي أن ينظر
 في كتابٍ غير الكتاب المقدس، وأن يتلقى علما في مدرسةٍ
 غير مدرسة الكنيسة ؟ أم في المصر الذي ظهرت فيه
 النجمة ذاتُ الذنبِ فذُعرَ لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى
 البابا عرائضَ الشكوى فطردها من الجوفولت الأديار ؟
 أم في المصر الذي أهدى فيه الرشيدُ المباشي الساعةَ الدقاقةَ
 إلى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعبُ المسيحي وسمع صوتهَا
 فرَّ من وجهها ظنا منه أنها تشتعلُ على الجن والشياطين ؟
 أم في المصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لحاكمه المتهمين
 بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين
 ألفا بالقتل حرقا أو صلبا ؟ أم في المصر الذي أحرق فيه

الشعبُ المسيحيُّ فتاةٌ حسنةٌ بعدما كسَّطَ لها وعرقَ عظمها
لأنها كانتْ تشتغلُ بعلومِ الرياضةِ والحِكمةِ ؟؟

هذا الذي نعرفُه أيها الفيلسوفُ التاريخيُّ من تاريخِ
العلمِ والعرفانِ والمدنيةِ والمُمرانِ في المصورِ المسيحيةِ ، ولا
نعلمُ أكانتْ تلكَ المسيحيةُ التي كانَ هذا شأنُها وهذا مبلغُ
سعةِ صدرها صحيحةً في نظركَ أم باطلةً ، وإنما نريدُ أن
نستدلَّ بالمسيحيين على المسيحيةِ وإن لم تقفْ على حقيقتها ،
كما فعلتْ أنتَ في استدلالك بالمسلمين على الإسلامِ وإن
لم تعرفْ حقيقتهِ وجوهره ، على أن استدلالنا صحيحٌ
واستدلالك باطلٌ ، فإنَّ المدينةَ الحديثةَ ما دخلتْ أوروبا إلا
بعد أن زحزحتْ المسيحيةَ منها لتحلَّ محلُّها كالماءِ الذي
لا يدخلُ الكأسَ إلا بعد أن يطرُدَ منه الهواءُ لأنه
لا يتسعُ لها ، فإن كان قد بقي أثرٌ من آثارِ المسيحيةِ اليومِ
في أكوأخِ بعضِ العامةِ في أوروبا فبقي إلا بعد أن
حَفَّتْ عنه المدينةُ ورَضِيَتْ بالإبقاء عليه ، لا باعتبارِ أنه دينٌ

يجبُ لإجلالهِ وإعظائمهِ ، بل باعتبار أنه زاجرٌ من الزواجرِ
النفسيةِ التي تستعينُ الحكوماتُ بها وبقوتها على كسرِ
شَرِّةِ النفوسِ الجاهلةِ ، فلا علاقةَ بين المسيحيةِ والتمدينِ
الغربيّ من حيثُ يُستدلُّ به عليها ، أو باعتبار أنه أثرٌ من
آثارها ، ونتيجةٌ من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقةٌ
ما اقتصرتْ عنه خمسة عشرَ قرناً كانت فيها أوروبا وراء
ما يتصوره العقلُ من الممجيّةِ والوحشيةِ والجهلِ ، فإ
قمتها مسيحيتها ، ولا أغنى عنها « كهنوتها »

أما المدينةُ الإسلاميةُ فإنها طلعتْ مع الإسلامِ في
صلو واحدٍ من مطلعٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ ، ثم سارت
إلى جانبه كَتِفًا لكَتَفٍ ما يُنكرُ من أمرها ولا تنكرُ من
أمره شيئاً ، فالتعبُدُ في مسجدِهِ ، والفقهاءُ في درسه ،
والمُعَرَّبُ في خزانةِ كتبه ، والرياضيُّ في مدرسته ، والكيميائيُّ
في مَعْمَلِهِ ، والقاضي في محكمته ، والطبيبُ في عَمَلِهِ ،
والفلكيُّ أمامَ إسطرلابهِ ، والكاتبُ بين محابرهِ وأوراقهِ ،

إخوة متصافون، وأصدقاء متحابون، ولا يختصمون ولا يقتلون، ولا يكفرون بعضهم بعضاً، ولا يبنى أحد منهم على أحد

أيها الفيلسوف التاريخي: إن كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالدنية الغربية اليوم أثر من آثار الاسلام بالأمس، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى واليك البيان: —

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه، ودينه وآخرته، وما يفيدُه منفرداً، وما ينفعُه مجتمعا

هذب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله والاسفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان وإحناؤه الروس بين أيدي رؤساء الأديان، وأرشدته إلى الايمان بالوحيه إله واحد لا يشرك به شيئاً، ثم أرشدته إلى تسريح عقله ونظرة في ملكوت السموات والأرض ليتقف على حقائق الكون وطبائمه

وليزداد إيماننا بوجود الإله وقدرته وكمال تديبره وليكون
 اقتناعه بذلك اقتناعاً قسياً قلبياً ، فلا يكون آلة صماء ،
 في يد الأهواء ، تقبل به ما تشاء ، ثم أرشده إلى مواقف
 تُذكّره بربه وتنبهه من غفلته ، وتطرّد الشرور والخواطير
 السيئة عن نفسه كلما اتفت إليها سبيلاً ، وهي مواقف العبادات ،
 ثم أطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه إلا من الشرك
 بالله والإضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بمد ما كان يحلها
 وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ، وضعيفها
 ورفيعها ، وضعيفها وقويتها ، وأن الملك والسوقة ، والشرف
 المهشمي ، والعبد الزنجي ، أمام الله والحق سواه ، وأن
 الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضرر ، والثواب
 والعقاب ، والرحمة والنفران ، يد الله وحده لا يتأزعه فيها
 منازع ، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين ،
 والملائكة المقربين ، ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلى محاسنها ،
 وقره من مساوئها ، حتى علمه آداب الأكل والشرب ،

والنوم والمشى، والجلوس والكلام، والتحية والسلام، ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبرُّ الابنُ أباه، ويرحمُ الوالدُ ولده، ويمطفُ الأخُ على أخيه، ويكرمُ الزوجُ زوجته، ويُطيعُ الزوجةُ زوجها، وكيف يكونُ التراحمُ والتواصلُ بين الأقرباء وذوى الرَّحم، ثم نظر في شؤونهِ الاجتماعيةِ فقررَ عليه الزكاةَ التي لوُجِعتْ ووُضعتْ في مواضعها المشروعةِ لما كان في الدنيا بائسٌ ولا فقيرٌ، ونذبه إلى الصدقةِ ومساعدةِ الأقوياء للضعفاء، وعطفِ الأغنياء على الفقراء، ثم شرع له شرائعَ للمعاملةِ الدنيويةِ، ووضع له قوانينَ البيعِ والشراءِ والرَّهنِ والهبةِ والقرضِ والتجارةِ والاجارةِ والمزارعةِ والوقفِ والوصيةِ والميراثِ، ليعرفَ كلُّ إنسانٍ حقَّه، فلا يفتنُ أحدٌ أحداً، ثم قرر له عقوباتَ دنيويةَ تمنعه أن يفتنَ بفضله على بعضٍ بشتى أوسبٍ أو قتلٍ أو سرقَةٍ أو انتهاكِ حُرمةٍ أو مجاهرةٍ بمعصيةٍ أو شروعٍ في فتنةٍ أو خروجٍ على أميرٍ أو سلطانٍ، ثم نظر في شؤونهِ السياسيةِ فقرر الخِلافةَ وشروطها،

والقضاء وصفاته ، والامارة وحدودها ، وقر كيف ياملُ
المسلمون مخالفهم في الدين ، البعيدين عنهم ، والتأرجحين
إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسألة لهم
وجملة القول أن الدين الاسلامي ما غادر صغيرة ولا
كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميدان
هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحدده إلا مديده إليه وأتار
له مواقع أقدامه وأرشدته إلى سواء السبيل

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء الغرب فلأت
الكون نوراً وإشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين
معتري بها ، ومنكري لوجودها ، ولكنهم كانوا جميعاً سواء
في الاتضاع بنورها ، والاستنارة بضياؤها ، على تفاوت
في تلك الاستنارة ، وتنوع في ذلك الاتضاع

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء
إلى أوروبا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا فأبصرها
(٣٦ ل - الطراد)

عدو قليل من أذكىاء الغربيين فانتبهوا من رقبتهم ،
واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية
وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت
نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع
الشرقي النابض واليقظ ، فقالوا أيمكن أن يعيش الإنسان حراً
على ظهر هذه المسكونة لا يستعبد ملك ولا يسترقه
كاهن ، أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته
هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقد لا يروّعه دولا ب المذاب
ولا سيف الجلاد ، أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر
إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاوتها ،
أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو
ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد
يرى بمضنا بعضاً

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكىاء
هي الخطوة الأولى التي مشتها أوروبا في طريق المدنية والعمران

بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوروبا ومطالعة كتبهم ، ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم، ثم أخذوا يعلمونها الناس سرّاً ويشيئونها في قلوبهم تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون في سبيل نشرها عناوئ شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة ، والمهمجية القديمة

أيها الفيلسوف التاريخي : إنك لابد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية إذا وسعت غيرها فأحربها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفالك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله في نفسه

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الاسلامية أو أمرد لك أسما علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة

والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب
والحكمة والأخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها
وجامعاتها ومراصدها في الشرق والغرب ، أو أصف لك مدنها
الزاهرة ، وأصبارها الزاهرة ، وسعادتها وهنائها ، وعزتها
وسطوتها ، فانت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخا كما تقول
غير أني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون
الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من
الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب في ذلك الاسلام
كما تتوهم بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي
قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام
وتروا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من قلوب ملوكه
الضعفاء ، وأمرائه الجاهلاء ، فأمدوم بشيء من السطوة
والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم
الخرافية بين المسلمين حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم
وأوقموا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح

الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان
كل ما تراه اليوم بين المسلمين من الخلط في عقيدة
القضاء والقدر وعقيدة التوكل وتشديد الأضربة وتجميع
القبور وتزيينها والترامي على أعتابها والاهتمام بصور
المبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها وإسناد النفع
والضرر إلى برؤساء الدين وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية
الاولى وليس من الاسلام في شيء

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل إنا متمصبون
تمصباً دينياً فانك قد أسأت إلينا وإلى ديننا فلم نبدأ من
الغيب عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار
علينا فيما تقول ، وهل التمسب الديني إلا اتحاد المسلمين
يداً واحدة على الدود عن أنفسهم ، والدفاع عن جامعتهم ،
وإعلاء شأن دينهم ونصرتهم حتى يكون الدين كله لله
إن كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضى

أهناه أم عزاء

فارق مصرَ على أثر إعلان الستورِ العثمانيّ كثيرٌ من
 فضلاء السُوريين بعدما عمروا هذه البلادَ بفضائلهم وما تُرِم
 وصيّروها جنةً زاخرةً بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين
 تلك الدروسَ العالية في الصحافة والتأليف والترجمة، وبمد
 ما كانوا فينا سفراء خيرٍ بين المدينةِ الغريبةِ والمدينةِ
 الشرقية، يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من
 الأخرى، وبمد ما علموا المصريّ كيف ينشط للعمل
 وكيف يحدّ ويحتهد في سبيل العيش وكيف يثبتُ ويتجلّد
 في معركة الحياة

قضوا بيننا تلك البرهةَ من الزمان يحسنون إلينا
 فنسىء إليهم، ويطلقون علينا فتسميتهم تارة دخلاء، وأخرى

تقلاء، كأنما كنا نحسب أنهم قومٌ من شذاذِ الآفاقِ أو
 نفاياتِ الأممِ جاءوا إلينا يصادروننا في أرزافنا، ويتطفلون
 على موائدنا، ولو أنصفناهم لعرفناهم، وعرفنا أن أكثرهم
 من بيوتاتِ المجدِ والشرفِ، وإنما ضاقتْ بهم حكومةُ
 الاستبدادِ ذرعاً، وكذلك شأنُ كلِّ حكومةٍ مستبدّةٍ مع
 أحرارِ النفوسِ وأبائِ الضميرِ، فأخرجتْ صدورهم، وضيقتْ
 عليهم مذاهبهم، فقرّوا من الظلمِ تاركين وراءهم شرفاً
 ينعام، ومجداً ييكي عليهم، ونزلوا يبتنا ضيوفاً كراماً،
 وأساتذة كباراً، فما أحسنّا ضيافتهم، ولا شكرنا لهم نعمتهم
 وبعد فقد مضى ذلك الزمنُ بخيره وشره، وأصبحنا
 اليومَ كلما ذكرناهم خفقتْ أفتدُّتنا غارقةً أن يلحقَ باقيهم
 بماضيهم، فلا نعلمُ أنشكرُ للمستور أن فرّجَ عنهم كربهم،
 وأتمهم على أنفسهم، وردّهم إلى أوطانهم، أم نتقمُ منه أنه
 كان سبباً في حرماننا منهم بعد أنسنا بهم، واغتيالنا بحسن
 عشرتهم، وجيلِ مودتهم، ولاندرى هل نحن بين يدي

هذا النظام العثماني الجديد في هـاء أم في عزاء؟؟
 فيا أيها القومُ المودعون ، والكرامُ الكاتبون :-
 اذُكرونا مثلَ ذِكرانا لكم
 ربِّ ذِكرى قُربت من ترحا
 واذاكروا صبأ إذا غنى بكم
 شربَ السمع وعاف القدحا



الزوجتان

حدثني أحدُ الأصدقاء قال : سأفصُّ عليك قصةً
ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين
أُريتُ إلى مَضْجِي في ليلةٍ من ليالي الشتاء حالكةِ
الجليب ، غداً في الإهَاب ، فاستقبلتُ أولَ طليعةٍ من
طلائعِ النَّوْمِ حتَّى قُرِعَ بابُ غُرْفِي فتسمعتُ فإذا الخادمُ
يقول : إن امرأةً سيئةَ الحالِ رثَّةَ الثيابِ في زِيِّ المتسولات
تُلحُّ في طلبِ مقابلتك وتقول : إن لها عندك شأنًا ، فقلتُ
في نفسي لا شأنَ لي مع امرأةٍ وربما كانت ذاتَ حاجةٍ
وكانت حاجتها إلى أكثرَ من حاجتي إلى النوم ، على أن
النومَ لا يفوتني ، قليلُ الشتاء ، أطولُ من يومِ القضاء ،
فارتديتُ ردائي ورتلت فإذا فتاةٌ في مُلَامَةٍ باليةٍ وخمارٍ خلَقَ
(٣٧ - الطرقات)

يَنَّمُ بِجَمَاهَا كَمَا يَنَّمُ السَّحَابُ الْمُتَقَطِّعُ بِضَوْءِ الشَّمْسِ ، وَإِذَا هِيَ تُرْعَدُ وَتَضْطَرِبُ وَقَوْلُ بِصَوْتٍ شَجِيٍّ : أَمَا فِي النَّاسِ آخِرُهُمْ وَمُرُوءَةُ يَمِينُ عَلَى السَّهَرِ النَّادِرِ وَيُطْفِئُ هَذِهِ الْجَنُودَ الَّتِي تَتَأَجَّجُ بَيْنَ أَضَالَمِي بِقَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الرَّحْمَةِ ، فَقُلْتُ مَنْ أَنْتِ يَرْحُكُ اللَّهَ ؟ قَالَتْ أَنَا فَلَانَةُ زَوْجِ فُلَانٍ ، فَدَهَشْتُ وَغَصَصْتُ بِرَفْقٍ حَتَّى مَا أَجْدَ بِلَّةٌ أُحَرِّكُ بِهَا السَّاقِيَّ لِهَوْلِ مَا مَمَسْتُ ، وَسَوْءَ مَا رَأَيْتُ ، وَقُلْتُ يَا الْمَجْبُوبُ ! زَوْجُ فُلَانٍ عَلَى عِظَمِهِ وَعِظَمِهَا ، وَجَلَالِهِ وَجَلَالِهَا ، تَخْرِجُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِزَّةِ ، وَسَأَلْتُهَا مَا شَأْنُكَ يَا سَيِّدَتِي وَمِمَّ تَبْكِينَ ؟ قَالَتْ لَا تَحْدِثْ نَفْسَكَ بِرَبِيبَةٍ وَلَا تَذْهَبْ بِكَ الظَّنُّونُ مَذَاهِبَهَا فَوَ اللَّهِ مَا جِئْتُ إِلَيْكَ تَحْتَ سِتْرِ اللَّيْلِ إِلَّا وَأَنْتِ أَوْثَقُ النَّاسِ عِنْدِي ، وَأَرْقَمُهُمْ فِي عَيْنِي ، وَلَوْلَا شِدَّةُ أَفْلَقْتُ مُضْجِي وَفَرَقْتُ مَا بَيْنَ جَفْنِي وَالْكَرَى مَا خَضْتُ إِلَيْكَ سِوَاةَ اللَّيْلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ وَلَا احْتَمَلْتُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مَا احْتَمَلْتُ ، قُلْتُ عَهْدِي بِسَيِّدَتِي رَخِيَّةُ الْبَالِ

ناعمة العيش سعيدة الحظ بزواج عذب الأخلاق كريم
 السجايا لا يؤثر هوى نفسه على هواك ولا يمدل بك أحدًا
 قالت إنك تقص على حديث الأُمس وقد مضى به الفلك
 الدائر ، والكوكبُ السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :
 أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وانه كان منذ ثلاثِ أعوام
 وأن أُنِي قد آثرته وفضله على جميع المخاطبين إليه من عليّة القوم
 وجلتهم وأنا لا ألومُه على ذلك رحمة الله عليه ، فما أراد بي شرًا
 ولا أعتمد أن يُسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلًا طيبَ
 السريرة طاهر القلب غفدهم الخادعون عني ، ومن ذا الذي
 لا يندعُ بشاب متعلم مهذب من ذوى المناصب الكبيرة
 والرتب المالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج
 بيننا فاعتبطت به واعتبط بي بُرهة من الزمان حسبته دأنة
 لا انقطاع لها حتى يُفرّق بيننا الموت ، وكنتُ امرأة أجمع
 في نفسى جميع ما يمتُّ به النساء إلى الرجال ، فاخته ولا ضقت
 ذرما به ، ولا قطبتُ في وجهه مرة ، ولا أثلفتُ له مالا ،

ولا تقصنت له عهداً ، فجازاني بالاحسان سوءاً ، وكفر بنعمة الله بمد الإيمان ، وخان ودي ، وتقض عهدي لا لذنبٍ جنيته ، أو وصية يصيني بها ، ولكنه رجلٌ ملولٌ متبرمٌ ، ولا تغضبُ يا سيدي إن قلت لك إن قلب الرجل متقلبٌ متلونٌ يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب ، وإن هذه المرأة التي تحترقونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بحققة عقلها وضعفٍ عليها أوثقُ منه عقدًا ، وأمنن ودًا ، وأوفى عهدًا ، ولو وفَّى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين فليهما إلا ربُّ النون ، قلت أنا لا أغضب لشيءٍ إلا للإنسانية أن يحقرَ ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت مات أبي كما تعلم وخلف لي مالا أمكنت منه زوجي فأثلقه بين الحر والقمر ، فكنتُ أغضي على ذلك رحمةً به وشفقةً عليه واستبقاءً لودّه ، حتى إذا صغرتُ يدي وأضر ربّي أحسست منه مملًا كان يدعو إلى سوء عشرتي وتمذيب جسدي ونفسي ، وكان كثيرًا

ما يتهكم بي ويقول إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها ، وآونة كان يُعرضني قائل إن الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات ، وتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التمريض أحياناً إلى التصريح فيقول كلما دخل على متأففاً متذمراً ، ليت لي زوجة كفلاية فانها تحسن الرقص والغناء والتوقيع على الآلات الموسيقية فكنت أشك في سلامة عقله وأقول في نفسي كيف يفضل الزوجة المتبدلة المستهترّة على الحية المنتمشة ، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس ، وبعد فإزال اللل يدب في نفسه ديب الصبأ في الأعضاء حتى تحول إلى بفضاء شديداً فإ كان يلحطني إلا شزراً ، ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة ثم يخرج لشأه ، فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له

يعد ذلك أن نَقَلَ إلى مَنْصِبٍ أَرْقَى من منصبه في بعض بلاد الأقاليم فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي فلبثت أترقب كتاباً منه يدعوني فيه إلى اللحاق به فإرسل كتاباً ولا رسولا ولا ثقة ، فاستكثبت إليه الكتابَ بحد الكتاب فإسلس قيادته ، ولا طامع عناده فسافرت إليه خاطرةً بنفسى غير مبالية بنقصه لأعلم غاية شأنه معه ، فأنزلت من القطار حتى قبض الله لي من وقفي على حقيقة أمره وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية وتحسن الرقص والفناء والتوقيع على القطع الموسيقية فداخلى من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أئى ساعةً يحزع ، ولأظن إلا أن المدن الآلهى سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التى أرقها في هذا السبيل حساباً غير يسير

وكأنه شعر بمكانى فجاء إلى يتهددنى ويتوعدننى فتوسلتُ

إليه يكاء طفليته التي كنتُ أحملها على يدي وذكّرته باليهود
والمواريقي التي تماقدنا عليها وذهبتُ في استعطافه واستدناؤه
كلّ مذهب فكنتُ كأني أخاطبُ رَكوداً صماءً^(١) أو
أستنزلُ أبوداً عصماءً^(٢) ، ثم طردني وأمر من حملني إلى
المحطة فعدت من حيث أتيت

فما وصلتُ إلى المنزل حتى خلعتُ ملابسي ولبستُ
هذه الثياب وجئتُك متكررةً في ذِمَامِ الليل لأنني وحيدةٌ
في هذا العالم لا أقربُ لي ولا همي، ولأنني أعلمُ كرمك وحميتك
وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن ترى
لي رأياً في التفريق بيني وبينه على أجدُ في قضاء الحرية
منفذاً كسّم الخياط أرتشفُ منه ما أتبلغُ به أنا وطفلي
حتى يبلغَ الكتابُ أجله

فأحزنتني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنتني، ووعدها

(١) الركود من الركود وهو الثبات والسكون . والصغيرة الصماء الصلبة للصنعة

(٢) أبدت البهية توحشت . الصماء من الغلبه التي في ذراعها يابس وسائرهما أسود

بالنظر في أمرها بعد أن هَوَّنتُ عليها بمضَ أحزانها
ولوايحها، فمادتُ إلى منزلها وعدتُ إلى مضجعي أفكرُ
في هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفتني هتان، ثم تلك البائسة
التي لم أر في تاريخ نساء قلباً أشق من قلبها، ولا نجماً
أنحس من نجمها، وثم ذلك الصديق الذي ربحته سنين
عدة وخسرته في ساعة واحدة، فقد كنتُ أغبطُ نفسي
عليه فأصبحتُ أُحزنها عنه، وكنتُ أحسبه إنساناً فاذا
هو ذئبٌ مملَسٌ^(١) تَسْتَرُهُ الصورة البشرية وتواريه البشاشة
والابتسام

هذا ما قصته على ذلك الصديق الكريم، ثم لم أَعُدْ
أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة
ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاف منه أمس
ذلك الكتابُ بعد مرور عامٍ على تلك القصة الغريبة،
وهذا نصه : —

سیدی :

یہی کثیراً اُن اُری یں کتبِ التہنتۃ الی تردُّ الی
 کتاباً منک لا سُرَّ بمشارکتک إیای فی سروری وھنائی
 إنک لا بدّ تذکرُ تلك القصة الی کنتُ قصصُہا
 علیک منذُ عامٍ فی شأنِ تلك الفتاةِ البائسةِ الی خانہا زوجُہا
 «فلان» وغدر بہا وھجرہا الی أخرى غیرہا بحد ما جردہا
 مما كانت تُملکُ یُدھا وما کان من أمرِ حیثہا عندی وبثُّ
 شکواھا الی وریما کنت لا تعلمُ بما کان من أمرہا بحد
 ذلك ، فاعلم أنها دفعت زوجہا الی موقفِ القضاء فضاق
 بأمرہا ذرعاً فطلقہا وکنتُ أفکرُ فی ذلك التاريخ کما تعلمُ
 فی الزواج من زوجٍ صالحۃٍ أجدُ السعادةَ فی العیش یجانہا
 وما کنتُ لأجدَ زوجةً أشرفَ قسماً ولا أکرمَ عنصراً
 ولا أذکی قلباً منہا ، فزوجتُها فامتعتُ نفسی بخیر النساء ،
 وأتقنتُ الانسانیۃَ المعذبةَ من شقوتہا وبلائہا ، وأبشرُک
 أن اللہ قد انتقمَ لھذه الفتاةِ المظلومةِ من ذلك الرجلِ الظالم

انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يُعاني
اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر ، والشقاء الأكبر ،
وأنها امرأة قد أخذت التريّة الحديثة من نفسها مأخذاً
عظيماً فحولتها إلى فتاة غريبة في جميع شؤونها وأطوارها ،
والرجل المصري شقي بفطرتها كائناتاً من كان ، أما غريته فهي
متكلفة متعملة يدور بها لسانه ، ولا أثر لها في نفسه ، فهو
يُقاسى من تلك المرأة الخرفاء ، أضعاف ما كانت تُقاسيه
حينه أشرف النساء ، والسلام



في سبيل الاحسان

الاحسانُ شيءٌ جميلٌ وأجلُّ منه أن يحلَّ محلَّه ،
ويُصيبَ موضعه .

الاحسانُ في مصرَ كثيرٌ ، ووصله إلى مُستحقِّه
وصاحبِ الحاجةِ إليه قليلٌ ، فلوأضافَ المحسنُ إلى إحسانه
إصابةَ الموضعِ فيه ، لما سمعَ سامعٌ في ظلمةِ الليلِ شكَاةَ
بائسٍ ولا آفةَ محزونٍ

ليس الاحسانُ هو العطاء كما يظنُّ عامةُ الناسِ ،
فالعطاء قد يكونَ رفاقا ورياء ، وقد يكونُ أجولةً ينصبها
المطلي لاصطياد النفوسِ وامتلاكِ الأعناقِ ، وقد يكون
رأسَ مالٍ يتجرُّ فيه صاحبه لينذلَ قليلا ويربحَ كثيرا

إنما الاحسان عاطفةٌ كريمةٌ من عواطف النفس تتألم

لمناظرِ البؤسِ ومصارعِ الشقاء ، فلو أن جميع ما يبذله الناسُ
من المالِ ويسمونه إحساناً صادرٌ عن تلك الماطفة الشريفة
لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه

فوضى الاحسان

الاحسانُ في مصرَ فوضى لا نظامَ له ، يناله من
لا يستحقه ، ويحرمُ منه مستحقه ، فلا يؤمّا يرفعُ ، ولا فقرًا
يدفعُ ، فثله كمثل السحابِ الذي يقولُ فيه أبو العلاء : —
ولو أن السحابَ همى بعقلٍ لما أروى مع النخل القتادا»
الاحسانُ في مصرَ أن يدخلَ صاحبُ المالِ ضريحاً
من أضرحةِ المقبورين في يضعُ في صندوقِ النورِ قبضةً من
الفضةِ أو الذهبِ ربما يتناولها من هو أرغدُ منه عيشاً ، وأنعم
بالا ، أو يُهدي ما يسميه نذراً من نعمٍ وشاء الى دفينٍ
في قبره قد شغله عن أكلِ اللحومِ والتفكيرِ بها ذلك السودُ
الذي يأكلُ لحمه ، والسوسُ الذي ينخرُ عظمه ، وما أهدي.

شأنه ولا بقرته لو يعلم إلا إلى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيتُ ليله طاوياً يتشهى ظلفاً^(١) يمسكُ رَمَقَه ، أو عرقوباً يطغى لوعته

وأعظمُ ما يتقربُ به عسنا إلى الله ومحسبُ أنه بلغ من الرِّ والمعروف غايتيهما أن يُنفقَ بضعةَ آلافٍ من الدنانير في بناء مسجدٍ للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثيرٌ من البائسين وذوى الحاجات ، يَنشدون مواطنَ الصَّلَاتِ ، لا أما كن الصَّلوات ، أو يَدنِّي بنيةَ ضخمةٍ نفمةٍ مرفوعةٍ القباب ، فسيحةٍ الرَّحَابِ ، مموَّهةٍ الجوانبِ والأركان ، مُنْهَبةٍ السقوفِ والجدران ، يسميها « سبيلا » ولا يهولُ تلك هذا الاسمُ الضخمُ فكلُّ ما في الأمر أن السبيلَ مكانٌ يشتملُ على حَوْضٍ من الماء ربما لا يكونُ بينه وبين ماء النهرِ إلا بضْعُ خطواتٍ ، على أن الماءَ كالمهواء ، ملءُ الأرضِ والسماءِ ، أو يقفَ الضَّياعُ

الواسعة من الأرض لتُنْفَقَ غَلَّتْهَا عَلَى أَقْوَامٍ مِنْ ذَوِي
الْبَطَالَةِ وَالْجَهَالَةِ نَظِيرَ انْقِطَاعِهِمْ لِتِلَاوَةِ الْآيَاتِ ، وَتَرْدِيدِ
الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه
أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، وَلَوْ عَرَفَ مَوْضِعَ الْإِحْسَانِ لِأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ
بِقَطْعِ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ يَتَعَلَّمُونَ صِنَاعَةً أَوْ مِهْنَةً
يَرْتَقُونَ مِنْهَا رِزْقًا شَرِيفًا ، فَإِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَمَلُّ فِي ذَلِكَ
عَمَلًا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَسْبَأَ
بِعِبَادَةِ قَوْمٍ يَتَخَذُونَ عِبَادَتَهُ سُلْكَ إِلَى طَعَامٍ يَطْعَمُونَهُ ،
أَوْ دَرَاهِمٍ يَتَنَاوَلُونَهُ ، أَوْ يَفْتَحَ أَبْوَابَ مَنْزِلِهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُحْتَالِينَ
الْمُتَلَمِّصِينَ الَّذِينَ يَسْمُونَهُمْ مَشَائِخَ الطَّرِيقِ ، وَلَوْ أَنْصَفُوهُمْ
لَسَمَّوْهُمْ قَطَاعَ الطَّرِيقِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَّا أَنْ هَؤُلَاءِ
يَتَسَلَّحُونَ بِالْبَنَادِقِ وَالْعَصَى ، وَأُولَئِكَ يَتَسَلَّحُونَ بِالسَّيْرِ
وَالسَّائِرِ ، ثُمَّ يَسْقُطُونَ عَلَى الْمَنَازِلِ سَقُوطَ الْجَرَادِ عَلَى
الْمَزَارِعِ فَلَا يَتْرَكُونَ صَادِحًا وَلَا بَاقِعًا ، وَلَا خُفًا وَلَا حَافِرًا ، وَلَا

شيثاً مما تُنبتُ الأرضُ من بَقْلِهَا وَقَتَاتِهَا وَقُومِهَا وَعَدَسِهَا
وبَصْلِهَا إِلَّا أَتَوْا عَلَيْهِ
أَسْوَأَ الْإِحْسَانِ

لم أرَ مالا أضيّعَ ولا عملاً أخيبَ ولا إحساناً أسوأَ
من الاحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرضَ
ويقلبونها ظهراً لبطن ويحتمون في مفارق الطرق وزوايا
السُروبِ وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يُصِمُّونَ الأسماعَ
بأصواتهم المزعجة ، ويُقذِّنون التواظُرَ بمنابرهم المستبشعة ،
ويزاحمون بمنابكهم الفارسي والراجل ، والجالس والقائم ،
فلو أن نجماً هوى إلى الأرض لهُوَّوا على أثره ، أو طائراً
طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه^(١)

وإن شئتَ أن تعرفَ المتسولَ معرفةً حقيقيةً لتعرفَ
هل يستحقُّ عطفَكَ وحنانَكَ وهل ما تُسديه إليه من
المعروفِ تسديه إلى صاحب حاجةٍ فاعلم أنه في الأعم الأغلب
من أحواله رجلٌ لا زوجة له ولا ولد يُنفِقُ عليها ، ولا

(١) القوادم الرىحات التي في مقدم الجبال والجرى التي في إندام الطائر جناحيه حيث

مسكن له يحتاج إلى مؤن ومراقب، ولا شهوة له في مطعم
أو مشرب أو ملبس، حتى لو علم أن الاقتطاع عن ذلك
الخسيس من الطعام، والقنبر من الشراب، لا يقمده عن
السعي في سبيله لا تقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوج
أو يتخذ له مأوى يأوي إليه لفل، ولو جد في حرفته متمسكاً
لذلك، ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو
يتوسل بأنواع الخيل وصنوف الكيد ليجمع ما لا لا فائدة
له من جمعه، ولا نية له في إصلاح شأنه به إذا اجتمع
عنده منه ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى
يُدفن معه، أو لينظمه في سلك مرقعة حتى يرثه الغاسل من
بعده، ولقد يبلغ به الحرص الذي والشره السافل أن يحمل
في سبيل المال ما لا يستطيع مجاهدته أن يحمل في سبيل
الله، فيتمد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداها
ليستعطف القلوب عليه، وكثيراً ما يحسد صاحبه إذا رآه
أكثر منه دماثة وأعظم تشويهاً، كما يحكى أن شحاذاً

مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل
مع آخر كيف البصر فتتافسا في مصيبتيهما أيتها أقدى
للأعين وأقتل للنفوس وأجلب للرحمة والشفقة ، فقال
الأول للثاني لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب
ناظريك أفضل حباله لاصطياد القلوب ، واستفراغ
الجيوب ، فقال له صاحبه وأين يبلغ العمى من هذه التقدم
الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ؟

إن أكبر جرعة يُجرّمها الإنسان إلى الإنسانية أن
يساعد هؤلاء المتسولين بعاله على الاستمرار في هذه الخطوة
الدينثة فيعزى كل من شعر في نفسه بالليل إلى البطالة وإثارة
الراحة بالسعى على آثارهم ، والاعتراف بحرفتهم ، فكأنه
قطع من جسم الإنسانية محضاً كاملاً ، لو لم يقطعه لكان
عضواً عاملاً ، وكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة
التي بدلها الأثنياء والحكام قروناً عديدة لاصلاح المجتمع

الانسانى وتهذيب أخلاقه وتخليصه من آفات الجود
والجود، فهل رأيت معروفاً أقيح من هذا المعروف،
واحساناً أسوأ من هذا الاحسان؟؟

تنظيم الاحسان

ليست كية المال التي يُنفقها المحسنون في سبيل
الاحسان مما يستهان به، فلو قال قائل إنها تبلغ في مصر
وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير
سألت رجلاً من وجوه الرعيين المعروفين بالبر
والاحسان عن كية ما يُنفقهُ كل عام في هذا السبيل
فأطعننى على جريدة حسابه فأريتها هكذا: —

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق

٦٠ ليل في موالد البيومى والمغنى والشطوطى

٧٢ مرات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في

مسجده ومَنزله

٣٠ هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يَسْتَجِدُّونَ

باسم المجد القديم والشرف الدائر

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش

يومياً تقريباً

١٠ توزيع في صناديق الأضرحة

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس تُوزع في المواسم الدينية

٢٤٠ المجموع

فهذه أربعمون ومائتا جنيه يُنفقها في سبيل الاحسان رجلٌ واحدٌ من متوسطى الثروة في عام واحد، وفي مصر مثلاً مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقولون عنه ، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الاحسان بـمليون جنيه يُنفقهُ مُنْفِقُوهُ على غير شئ سوى إغراء الكسلان بكسله ، وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الاحسان عملاً ، وأصاب منه موضعه ، وأُنْفِقَ في سبيل الخير النافعة ، ووجوه البر الحقيقية ، لارتقى بالأمة

المصرية إلى خروجه الكمال، ولما كان له الأثرُ الجليلُ في وصولها إلى ما تنطلقُ إليه من هناء الميش وسعادة الحياة

لذلك أقترحُ في تنظيم الاحسانِ اقتراحاً نافماً وأدعو الكتّابين الذين لا مصلحةَ لهم في إثارة الخواطرِ وتهيجِ النفوسِ وضربِ الناسِ بعضهم ببعض أن يُساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد:

أقترحُ أن يقومَ جماعةٌ من سراة الأمةِ ووجوهها وأصحابِ الرأي فيها بتأليفِ مُجتمَع في القاهرة يسمى «مجتمعَ الاحسان» ويكون له في كل مدينةٍ من مدائن الأقاليم فرعٌ تابعٌ له

أما أعماله التي أحبُّ أن يقومَ بها بالاتحاد مع فروعِهِ فهي ثلاثة :-

١- استخدامُ فريقٍ من مَهَرَةِ الكتابِ وفُصْحاه الخطباءِ يقومون بتعليمِ أفرادِ الأمةِ بكلِّ واسطةٍ من وسائل النشرِ وبكلِّ وسيلةٍ من وسائل التأثيرِ معنى الاحسانِ،

وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه
أجمع خيرى الدنيا والآخرة

ب - بذلُ الجهدِ في حملِ الناسِ على اعتبارِ مجتمعِ
الاحسانِ هذا يتَ مالَ لهم أو وكالةَ عامةٍ عنهم تتولى جمعَ
الصدقاتِ منهم وتوزيهاً على مستحقيها ، وحسبها أن تأخذ
من كل فردٍ في كل عام مجموعَ ما يحسن به عادةً في ذلك العام ،
فلا يكونُ بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الاحسانِ أمامَ ربه
وأمامَ أمته أكثرَ مما قدمه لهذا المجتمعِ

ج - إيفاقُ ما يجمع من المالِ على تربيةِ اليتامى الذين
لا كاسبَ لهم ، والقيامُ بأودِ العاجزين عن الكسبِ ،
وتفقدُ شؤونِ الذين نكبهم الدهرُ وتسكر لهم بعد العزِّ
والنعمَةِ وصيانةُ ماءِ وجوههم أن تُراق على ترابِ الأعتابِ ،
والإيفاقُ على تعليمِ من يتوسمُ فيهم الذكاءُ والفطنة ويرجى
أن تنتفعَ بهم الأمةُ في مستقبلها من أبناءِ الفقراءِ ، إلى
أمثالِ هذه الأعمالِ الخيريةِ الشريفةِ التي لا يتحققُ الاحسانُ

يلونها ، ولا ينصرفُ معناه إلا إليها
 أنا أعتقدُ اعتقاداً لا رَبَّ فيه أنَّ من يخطو الخطوةَ
 الأولى في سبيل هذا العملِ الجليلِ ومن يضعُ الحجرَ الأولَ
 في بناء مجتمع الاحسان ، هو أفضلُ عاملٍ في الوجود
 وأشرفُ إنسان



أدب المناظرة

أنا لا أقولُ إلا ما أعتقدُ ، ولا أعتقدُ إلا ما أسمعُ
صداء من جوانب نفسي ، فربما خالفتُ الناسَ في أشياء
يملكون منها غيرَ ما أعلمُ ، ومعتزقي إليهم في ذلك أن الحقَّ
أولى بالجمالة منهم ، وأن في رأسي عقلا أجله عن أن أنزل
به إلى أن يكونَ سَيِّقَةً^(١) للعقول ، وريشةً في مهاب
الأغراض والأهواء

فهل يحتملُ بعد ذلك بأحدٍ من الناس أن يرميني
بجراحة من القول أو صاعقة من النضب لأنني خالفتُ
رأيه أو ذهبتُ غيرَ منهبه أو أن يرى أن له من الحق
في حملي على منهبه ، أكثر مما يكونُ لي من الحق في حملي
على منهبي

(١) السِّقَّة ما يساق سوقاً ومنه إما ابن آدم سيقه يسوقه الله

لَا بَأْسَ أَنْ يُؤَيِّدَ الْإِنْسَانُ مَذْهَبَهُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ،
وَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْقُضَ أُدْلَةً خَصَمِهِ وَيُزَيِّفَهَا بِمَا يَمْتَقَدُّ أَنَّهُ مُبْطَلٌ
لَهَا ، وَلَا مَلَامَةَ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَتَنَرَّجَ بِكُلِّ مَا يَسِرُّ مِنْ
الْوَسَائِلِ إِلَى نَشْرِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَمْتَقَدُّهَا إِلَّا وَسِيلَةً وَاحِدَةً
لَا أُحِبُّهَا لَهُ وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَنْفَعُهُ أَوْ تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا ، وَهِيَ
وَسِيلَةُ الشَّمِّ وَالسَّبَابِ

إِنْ لِإِخْلَاصِ التَّكَلُّمِ تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي قُوَّةِ حُجَّتِهِ
وَحُلُولِ كَلَامِهِ الْمَحَلَّ الْأَعْظَمَ مِنَ الْقُلُوبِ وَالْأَفْهَامِ ، وَالشَّامِّ
يَعْلَمُ عَنْهُ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ غَيْرُ غَلْصٍ فِيمَا يَقُولُ ، فَمُبْتَذًا يُحَاوِلُ
أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى رَأْيِهِ ، أَوْ يُقْنِعَهُمْ بِصَدَقِهِ ، وَإِنْ كَانَ
أَصْدَقَ الصَّادِقِينَ

أَتَدْرِي لِمَ يَسِبُّ الْإِنْسَانُ مُنَازِرَةً ؟ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ
وَعَاجِزٌ مَعًا ، أَمَا جَهْلُهُ فَلِأَنَّهُ يَنْهَبُ فِي وَادٍ غَيْرِ وَادِي
مُنَازِرَةٍ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ فِي وَادِيهِ ، وَلِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ مَوْضِعِ
الْمُنَازَرَةِ إِلَى الْبَحْثِ فِي شُرُوفِ الْمُنَازِلِ وَأَطْوَارِهِ وَصِفَاتِهِ

وطبائعه كأن كلَّ مبحثٍ عند مبحثٍ «فسيولوجي»، وأما
 مجزؤه فلا نُه لو عرف إلى مُناظره سبيلا غيرَ هذا السبيل
 لَسلكه ، وكفى نفسه مؤونةً أزدراء الناس إياه وحماها
 السخولَ في مآزقٍ هو فيه من الخاسرين مُحققا كان أم مبطلا
 لا يجوزُ بحالٍ من الأحوال أن يكونَ النرضُ من
 المناظرةِ شيئا غيرَ خدمة الحقيقة وتأييدها ، وأحسبُ أن
 لوسلك الكتابُ هذا المسلكَ في مباحثهم لا تقفوا على مسائلَ
 كثيرةٍ م لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها
 إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون، يسمعُ أحدهم الكلمةَ من صاحبه
 ويمتدُّ أنها كلمةٌ حقٌّ لا ريبَ فيها ولكن ينفسه فينفسُ
 الحقَّ من أجله فينهضُ للرد عليه بِحُججٍ واهيةٍ وأساليبَ
 ضعيفةٍ وإن كان هو قويا في ذاته ، لأن القلمَ لا يقوى إلا إذا
 استمد قوته من القلب ، فإذا نعى بالحُجج والبراهين لجأ إلى
 المراوغة والمهاترة، فيقولُ لمناظره مثلا: إنك جاهلٌ لا يُمتدُّ

برأيك ، أو إنك مضطربُ الرأي لا ثباتَ لك تقولُ اليوم
غيرَ ما قلتَ بالأمس ، وهناك يقولُ له الناسُ رويداً لا تخطِطُ
في كلامك ، ولا تراوغُ في مناظرتك ، ولا شأنَ لك بعلم
صاحبك أو جهله ، فانه يقولُ شيئاً فان كان صحيحاً فسَلِّمْ به ،
أو باطلاً فينبِ لنا وجهَ بطلانه ، وهَبْه قولاً لا تعلمُ قائله ،
ولا شأنَ لك باضطرابِ صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس
على رأيٍ تبين له خطؤه اليوم ، والمرءُ يُخطِئُ مرةً
ويُصيبُ ، فإذا ضاقَ بمناظره وبالناسِ ذرعاً فرَّ إلى أضنفِ
الوسائلِ وأوهنها فسبَّ مناظره وشتمه ، وذهب في التمثيلِ
به كلَّ منذهب ، فيُسجَلُ على نفسه الفِرارُ من تلكِ المعركةِ
والخذلانِ في ذلكِ الميدانِ

على أن أكثرَ الناسِ متفقون على ما يظنون أنهم
مختلفون فيه ، فان لكلِّ شيءٍ جهتين ، جهة مدح وجهة
ذم ، فلما أن تتساويا ، أو تكبرَ إحداها الأخرى ، فان كان
الأولُ فلا معنى للاختلاف ، وإن كان الثاني وجب على

المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لأن أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما حتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يملؤها الملك إلى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتهما واشتد لجأهما خرج ذلك الحكيم وضاب عن المجلس ساعة ثم عاد وبين أبوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ثم أعطيتي كل منكما رأيها فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسنة فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما فعل وعرض

عليه صورة المجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ
يذمها ذمًا فيبحًا، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه
بالجمل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو،
فلما عاد إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوفيهما
الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن نائرها وضحكا
ضحكًا كثيرًا، ثم قال لهما هذا ما أنتم فيه منذ الليلة،
وما أحضرتُ إليكم هذا اللوح إلا لأضر به لكما مثلاً لتعلموا
أنكما متفقان في جميع ما كنتم تختلفان فيه لو أنكما تنظران
إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها، فشكرا له هته،
وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعًا كثيرًا،
فما كانا يختلفان بمد ذلك إلا قليلا



الاحسان في الزواج

ورد إلى في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع : —

حضرة السيد الفاضل

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلسٌ جرى فيه الحديثُ
من صديقي لنا عرف امرأة من البنايا فأخذته الرافة بها
فتزوجها وكان القوم ما بين مُستحسنٍ لهذا العملِ ومُستَهجنٍ
له وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ولم يستطع أحدُ
الفریقین أن يقطع الآخرَ برأيه فاتفق رأينا جميعاً على أن
نكتبَ إليك بذلك علك تلقى على هذا الموضوعِ نظرةً من
نظراتك الصادقة والسلام

ف. م.

أيها السائل الكريم :

إن كان باعثُ الرجل على الزواج بهذه البغْيِ شهوةٌ يريدُ

قضاءها من امرأتها يشقها ولا يرى له سبيلا إلى طول
استمتاعه بها والاستئثار بحفظه منها إلا هذا السبيل كما هو
شأن الذين يتزوجون من البغايا فقد أخطأ خطأ جماً لأن
من كان هذا شأنه لا يمينه إلا أمر نفسه ولا يشغله من
شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق
بلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها
ولا يحاول أن ينزع من بين جنينها ملكة الفساد
الراسخة في نفسها، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب
الذي يصور في نظرها ممشة الفساد بصورة تنفر منها
وتشمزها، بل لا يكفيها مؤونة العيش ولا يرضها ولا
يقلبها في الرغد والتمتع إلا اذا شعر بأن في قلبه بقية من
الشف بها، فاذا أقر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يبيح
له وجداً، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة،
فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازج حزن على فسادها،
ولا يخالطه أسف على سقوطها، وهنالك تمود تلك

المسكينةُ إلى عُسْها الذي طارت منه وقد أمسكت بين
جوانحها من الحقد والمؤجدة على معيشة الصلاح والاستقامة
ما الله عالمٌ به

فالرجل الذي يتزوج من البنيّ قضاءً لشهوته وإيثاراً للذمة،
لا يتفهمها ولا يحسنُ إليها، لأنه لا يهتنبُ نفسها، ولا يقي
لها بما عاهدَها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عثرتها،
بل يسئُ إليها بسوء تصرفه معها فينقضُ إليها الصلاح
ويحببُ إليها الفساد، وعندى أنه في عمله فاسقٌ
لا متزوجٌ، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلةٌ من وسائل
الاستمرار والتوسع في الاستمتاع ما سمى مهرًا ولا
عقد عقدًا

فإن كان حقًا ما تقول من أن باعته إلى ذلك الرحمةُ
والرأفةُ والحنانُ والشفقة فقد أحسن كلَّ الأحسان،
ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله
دُخْرًا، وأعظمُ أجرًا، من هذا العمل الصالح

العرضُ آمنٌ من الحياةِ فإن كان من يمنح الحياةَ فاقدَها
شرفاً فأشرف منه من يرد العرضَ الضال إلى صاحبه
المفجوع فيه

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستغنوا بهذه
الوسيلة الشريفة كلَّ امرأةٍ سافها فقرها وعدمها أو فقد
عائلها إلى البقاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل
أن تضيق بهنَّ حلقاتُ العيش فيستقلن

لم لا يكون باباً من أبواب الاحسان أن يتفقد المحسنون
من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجهن
من أولادهم وأقربائهم وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات
النسب ، لأنه إحسانٌ ، والاحسان لا يحمل إلا إذا أصاب
موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إتفاق
الأموال على بناء التكايا والزوايا وتوزيمه على المتسولين
والتكفيين ووقفه على القارئين والذاكرين لا يدخر لهم

من المثوبة والأجر عند الله ما يدره لهم الاحسان إلى
النساء، بالمصمة من البناء

البقاء للبنى شقاء ما جناه عليها إلا الرجل، فغدير به
أن يرمم ما أتلف، ويصلح ما أفسد
يهاجم الرجل المرأة ويُعد لها جهنم ما شاء الله أن
يعده من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتى
إذا خدعها عن نفسها، وغلبها على أمرها، وسلبها أمن
ما تملك يدها، نقض يده منها، وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما
من بعده

هنالك تجلس في كسر يديها جلسة الكتيب الحزين
مُسبلة دمعها على خدها، مُلقية رأسها على كفها، تفل
أناملها التراب، لا تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع،
ولا كيف تعيش؟

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها،

لأن الرجل يُسمِّيها ساقطةً ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ، لأن الرجل أهمل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على صائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لأن الرجل يؤثر أن يمنحها التقطار حراما ، على أن يمنحها العرم حلالا ، فلا تجد لها بدا من أن تطلبه من طريق البغاء

فها أنت ذاترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات الحزنة ، وأن الرجل هو الذى يمثل جميع أدوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فانا لانزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة ، وأن حقا عليه أن يؤدي دينه ، ويكرم أرض^(١) جناته

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بنياً فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابا من

أبواب الإحسان ، أى أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها
 لنفسه ، وأحقُّ النساء بالاحسان أولئك اللواتى سلبهن الله
 نعمةَ الجمال والمال ، وحليّة الحسب والنسب ، فإن أبى
 إلا أن يتزوجَ من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذى
 أخذ الشقيةَ من يدها ، وسأفها بنفسه إلى مواطن الشقاء ،
 وربما ما بيده فى هُوّة الفسق والبناء



لاهيجية في الاسلام^(١)

أيها المسلمون : إن كنتم تمتدنون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقصماً بالرماح ، وحرقة بالنيران ، فقد أسأتم بربكم ظناً ، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله ، وتديبره في شؤونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العايب اللاعب الذي يبنى البناء ليهلكه، ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، ونظم العبد ليبدده لم يزل الله سبحانه وتعالى مذكراً للانسان نُطفةً في رحم أمه يتعلم بمطقه وحنانه ، ويعدّه برحمته وإحسانه ، ويرسلُ إليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، وينفوذُ عنه آفات الحياة وغوائلها نُطفةً فعلةً قَمِيضَةً جَنِينًا فَبَشَرًا سَوِيًّا

(١) كتبت ثمانية ما أسمع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية ألتيه من ولايات الدولة التركية وقتلهم ليلهم وتخييلهم بهم في طم ١٩٠٩ م

إِنْ إِلَهًا هَذَا شَأْنُهُ مَعَ عَبْدِهِ وَهَذِهِ رَحْمَتُهُ بِهِ وَأَحْسَانُهُ
إِلَيْهِ مُعَالٍ عَلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ بِسُلْبِهِ الرُّوحَ الَّتِي وَهَبَ إِيَّاهَا ، أَوْ
يَرْضَى بِسَفْكَ دَمِهِ الَّتِي أَمَدَهُ بِهِ لِيَجْرَى فِي شِرَائِنِهِ وَعُرْوَقِهِ
لَا لِيَسِيلَ بَيْنَ تَلَالِ الرَّمَالِ ، وَفَوْقَ شَعَافِ الْجِبَالِ

فِي أَيِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَفِي آيَةٍ سُنَّةٍ مِنْ مُسْنَنِ
أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ، قَرَأْتُمْ جَوَازَ أَنْ يَمُدَّ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ ،
الْأَمْنِ فِي سِرِّيهِ ، الْقَابِغِ فِي كَسْرِيَّتِهِ ، فَيَنْزِعَ نَفْسَهُ مِنْ
بَيْنِ جَنْبَيْهِ ، وَيُفْجِعَ فِيهِ أَهْلَهُ وَقَوْمَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَدِينُ بَدِينَهُ ،
وَلَا يَذْهَبُ مَذْهَبَهُ فِي عَقَائِدِهِ

لَوْ جَازَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ مَنْ يُخَالِفُهُ فِي رَأْيِهِ
وَمِنْهُ لَآقْفَرَتِ الْبِلَادُ مِنْ سَاكِنِيهَا ، وَأَصْبَحَ ظَهْرُ
الْأَرْضِ أَعْرَى مِنْ سَرَاةِ أَدِيمِ

إِنْ وَجُودَ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْأَدْيَانِ
وَالطَّبَائِعِ وَالْفَرَائِزِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْكُتُبِ ، لَا يُمْكِنُ
تَحْوِيلُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَّا

رجلٌ واحدٌ لجرد من نفسه رجلاً آخرَ يُخاصِمُه وينازعُه ،
ولو شاء ربك لَجَلَمَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تتنج إلا من
التحاكُّ بين جسمين مختلفين ، فحالة توحيد المذاهب
والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه
أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الاسلام
من عاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشقى والانتقام
منهم ، أو القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوة الاسلامية
أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها
في مشارق الأرض ومغاربها حائل ، أى أن القتال كان
ذوداً ودفاعاً ، لا نشقياً وانتقاماً

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة
واحدة في سبيلها الذي تنهب فيه حتى يصل إليها أمر
الطليقة القائم أن لا تزعج الرهبان في أديرتهم ، والقساوسة
في صوامعهم ، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ، ولا تقاوم

إلا من يقفُ في سبيلها ، ولقد كان أخرى أن تُسَفَكَ دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب أرواحهم وأن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم لو أنكم قضيتُم على كل من يتدينُ بدينٍ غير دينكم ، حتى أصبحت رُقعةُ الأرض خالصةً لكم ، لا تقسم على أنفسكم مذاهبَ وشيما ، ولتقاتلن على مذاهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم ، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهبٌ ولا مُتَمَذِّبٌ

أيها المسلمون : ما جاء الإسلامُ إلا ليقضىَ على مثل هذه الممجية الوحشية التي تزعمون أنها الإسلام
ما جاء الاسلامُ إلا لِيَسْتَلَّ من القلوب أضغانها وأحقادها ثم يعلوها بمد ذلك حكمةً ورحمةً ، فيميش الناسُ في سعادة وهناء ، وما هذه القطراتُ من الدماء التي أراها في هذا السبيل إلا بمثابة العملِ الجراحى الذى يتذرعُ به الطبيبُ الى شفاء المريض

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءكم كانوا
ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين
في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون
مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالكم والكون
تحت أجنتكم أضف من أن يمدوا اليكم يد سوء ، أو
يتسروكم بإحدى شر ، فلا عذر لكم

عذرتكم بعض المنر لو لم تقتلوا الأطفال الذين
لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم ،
والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذاً
ولارداً ، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور
قبل أن ترحفوا إليهم ، وتمجّلوا قضاء الله فيهم
أما وقد أخذتم البرى بجريرة المذنب فأنتم مجرمون
لأبجاهدون ، وسفاكون لأعاريون

من آية صخرة من الصخور أو هضبة من الهضبات
نحتم هذه القلوب التي تنطوى عليها جوارحكم ، والتي

لا ترونها أناتُ الشكلى ، ولا تحركها رناتُ الأيلى
 من أى نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيونُ
 التى تستطيعون أن تروا بها منظرَ الطفل الصغير والنار
 تأكلُ أطرافه وتتشى فى أحشائه على مرأى ومسمع من
 أمه وأمه عاجزةٌ عن معوته لأن النارَ لم تترك لها يداً
 تحركها ، ولا قدما تشى عليها

لا أستطيع أن أهشكم بهذا الطفر والانتصار لأنى
 أعتقد أن قتلَ الضعفاء جُنْ ومَعْجزةٌ ، وأن سفكَ الدماء
 بغير ذنب ولا جريرة وخشية أخرى أن يُعزى فيها
 صاحبها ، لا أن يُهنأ بها

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشامت
 لكم شرastكم ووحشتكم ، ولكن حذار أن تذكروا
 اسمَ الله على هذه النبايح البشرية ، فأنه سبحانه وتعالى أجلُّ
 من أن يأمرَ بقتل الأبرياء ، أو يرضى باستتصاف الضعفاء ،
 فهو أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ الراحمين

البخيل

سألني سائلٌ ماذا يستفيدُ الانسانُ من بخله حتى على نفسه وأى غرضٍ يرى اليه من ذلك، فأجبتُه بهذا الجواب:

البخلُ إحدى الملكات النفسية، والملكةُ صفةٌ راسخة في النفس تصدرُ عنها آثارُها عفواً بدون روية ولا اختيار، فكما لا يُستلُّ السرفُ عن سبب إسرافه، والفاضبُ عن غايته من غضبه، والحاسدُ عن غرضه من حسده، كذلك لا يُستلُّ البخيلُ عما يستفيدُه من بخله وحرصه، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكاتِ عوارضٌ تنزعُ بهم إلى الرغبة عن التخلُّ عنها حيناً فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً لمكان تلك الملكات من نفوسهم وزولها منها منزلة لا ترغبها الرقبات، ولا ترزعها الارادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله فإذا وضع يده في كبسه

وحاول القبض على شيء مما فيه أحس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والالتناء فأخرجها صغراً كما أدخلها ، ووجهه أن لا يفعل لولا أن للفرزة قوة فوق قوة الإرادة وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد إليه المقول إلا إذا كان وراءها وازعج من القانون يزعمها ، فانه يكسر شرتها أحياناً ، وإن لم ينتزعها انتزاعاً

ويحكى أن شحياً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فتأبّت عليه فأذن لوكيله أن يحتلس لها من ماله ما يسدّ خلّتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد

فالوجه في السؤال أن يقال ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخل ، فيكون الجواب عن ذلك إن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص

وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكرُ أم تلك
الأسباب من حيثُ ذاتها بقطع النظرِ عن افتراق ما يفترقُ
منها واجتماع ما يجتمع : —

الأول — الوراثة — وهى وإن كانت سبباً ضعيفاً
لما يمرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والاعقابِ
بمعاشرة المتصفين بأصداها والتأثرِ بمخالطهم إلا أنها
كثيراً ما تنمو وتجسمُ إذا أُغفلتْ ولم يمترضها ما يسدُّ
سبيلها ويقفُ فى طريق غلتها

الثانى — التربية — إذا نشأ الطفلُ بين أهلٍ أشحاء
ولم يكنْ فى فطرته ما يقاومُ سلطانَ التربية على نفسه أخذ
إخذم فى الحرص وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها
فى العقائد والعادات من حيثُ لا يفكرُ فى استحسان
أو استهجان كأنما هى عدوى الأمراض التى تسرى إلى
الانسان من حيثُ لا يدري بها ولا يشعرُ بسرطانها، ويُحكى
أن رجلاً دخل منزلاً يعرفُ أهله بالشح والحرص فرأى

طفلاً صغيراً في يده ليموتَ صغيرةً فطلب إليه أن يعطيه إياها
فأجابهُ الطفلُ « إن يدك لا تَسْمُها »

الثالث — سوء الظن بالله — ذلك أن المتدين إذا
أخذتْ عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ
في قلبه الايمانُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى عينا ساهرة على عباده
الضعفاء فهو أرحمُ من أن ينفلَ شأنهم ويكلّمهم إلى أنفسهم
ويسلمهم لصروف الليالي وعادياتِ الأيام، فلا يبلغُ به الحرصُ
على الجمع ، ولا يزعمُهُ الخوفُ من البذل ، وعلى العكس
منه ضعيفُ الايمان، ضعيفُ الثقة بواهب الأرزاق، ومقسم
الحظوظ، والجدود ، فهو لسوء ظنه به لا يزالُ الخوفُ من
الفقر نُصبَ عينيهِ حتى يصيرَ البخلُ مملكةً راسخةً فيه

الرابع — النكبات — كثيراً ما تحملُ بالانسان
نكباتٌ تصهرُ قلبه وتزعجُ غريزته من مستقرها ، ومن
ذلك النكبات التي يكون مرجؤها قلةُ المال: كأن يقع الرجل
في خصومة يرى أنه لو لا ضيقُ ذات يده لما وقع في أمثلها

فكلما تمثلت له نكبت له لِحْج به الحرصُ وأغرق في اللع حتى
يصيرَ ذلك غريزةً فيه وخُلُقًا ثابتًا له ، ومن ذلك جديدُ
النعمة التي ذاق مرارةَ الفقرِ حِقْبَةً من الزمان وكابد
منه ما كابد من الآلام والأوجاع فانه معها حسنت حاله
وانتمشت نفسه وقاضت خزائنه بالفضة والذهب لا تذهب
من فيه تلك المرارة ولا تضيع من ذاكرته آلامها ، فلا يزال
يتملك قلبه وسواسٌ مقلقٌ يحيلُ إليه ما لا يتخيل ، ويريه ما لا
يرى ، كمن تمثل له خيالُ الشيطان مرةً في أبشع صورةٍ وأفظع
شكلٍ فهاله منظرُهُ ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا
يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالي الأمان والخوف ،
والوحشةِ والأنسِ

الخامس - اللؤم - فإن النفسَ إذا خَبِثَتْ طينتها
ولؤم طبعها كان من أخص صفاتها الحقدُ على الوجود
بأجمعه وبمنضُ الخير للناس قاطبةً فكيف يمنحهم من
ذات يده ما يزيدُه ألمًا على ألم ، وحسرةً فوق حسرة ،

وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء ويعترض
دونهم نابتة الأرض لفعل

السادسة - سقوط الهمة - إذا نشأ الانسان على
الهمة طمّوحا إلى المعالي محبا للذكر الحسن والثناء الجليل
سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من
ذات يده أو ذات نفسه ، وحبُّ المجد أسال الذهب من
خزائن الأغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهبا مقسما بين
شفرات السيوف، وأسنة الرماح، طلبا لسعادة الحياة بالذكر،
وسعادة المات بالخلود ، فمن لساقط الهمة ضعيف النفس
بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكائته الراسخة في قلبه ،
وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حبّ الثناء وهو لا يشعر
بلذته ، أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ، ولا يحس
بمرارتها ، أم سعادة الحياة وسعادة المات ، وهو لا يفهم
للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على
لسان الخطيئة من المكارم بلقمة يعضفها ، وحلة يلبسها

السابع — فساد المجتمع الانساني — ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حبُّ المال والتعبدُ له أن صاروا يظلمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ، أو خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم أحقُّ الناس بالحبّة والأكرام والإجلال والإعظام ، وإن لم يحصلوا منه على طائل ، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحبُّ من البخلاء أن ينالَ هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتعلقين وليس ينه وينها إلا الحرصُ على ما في يده ، وهو عملٌ لا يتكلفه ولا يعملُّ له ، بل هو أشهى الأشياء إليه ، وأكثرها ملازمةً لفطرته ، ليزداد شرفاً وعِزّاً ، كلما ازداد بالحرص ثراه ووفرأ ، ومن هنا قال أحدُ البخلاء لأولاده : يا بني لأنَّ يعلِّمُ الناسُ أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظمُّ له في أعينهم من أن يقسمها فيهم ، وقال رجلٌ لآخر : يا بخيلُ ، فقال له لا أحرمني اللهُ بركةَ هذا الاسم ، فاني لا أكونُ بخيلاً إلا إذا كنتُ غنياً ، فسم لي المال ولتبتني بما تشاء

هذه هي أمُّ الأسباب التي تألفت منها رذيلةُ البخل ،
فإن أغفلنا النظرَ إليها وسلمنا للسائل صحةَ سؤاله عما يستفيدُه
البحيلُ من بخله حتى على نفسه ، وفرضنا البخل غتاراً فيما
يفعلُ غيرُ مُساقٍ الى هذا الموردِ الويلِ بسائقِ الغريزةِ
الفاسدةِ كان منالُ النجمِ أقربَ من تطبيقِ حاله هذه على قاعدةِ
من فواعدِ العقل ، لأن الله تعالى خلق الانسان وركَّب فيه
رغباتٍ وشهواتٍ مختلفةً بعضها نفسى والآخرُ جسدى ، فهو
لا يزالُ يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحبُ المال الكثيرِ الذى
يقنعُ بالشَّملةِ والمضخةِ ، والجُرْعَةِ والظُلَّةِ ، ويحملُ في كل لحظةٍ
أشدَّ الآلامِ من مقاومةِ نزواتِ نفسه ونزعاتها الى ميولها
ورغباتها ، لا يمكنُ أن يُحْمَلَ حاله على محملِ المعجز ، لأنه قادر ،
ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيما لا ينفعُ فيزهد فيما ينفع ،
ولا على الخوفِ من الفقر ، لأنَّ عنده من المال ما يُفْنِي
الأعمار ، فهياتَ أن يُفْنِيه عمرٌ واحد ، ولا على الرغبةِ

في سعادة القديرة ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته ، فإما أن يشقى هو في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرته من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصوراً على المرءدين والمهاذين ، بل يكون شاملاً للمابئين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لأنفسهم بارادتهم واختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المبانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ، ومطاردة الصبيان ، كما تتوسل إلى علماء الشرائع أن يضمنوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقتيرين ، كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق البذرين ، فان تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، أما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين

البعوض والاسنان .

جلستُ ليلةَ أمسٍ الى منضدقٍ وعلقتُ قلبي بين
أصابعي ، وأنشأتُ أفكرُ في الموضوع الذي يَجُمَلُ في أن
أكتبَ فيه ، وتلك عادتِي التي يمرُّها عني كثيرٌ من خُططائي
وعشرلتي أنني لا أميلُ إلى الكتابة في يَياضِ النهار ، ولا
أُحِبُّ أن أخطَّ حرفاً على ما أُحِبُّ وأرتضى إلا في ظلامِ
الليلِ وهدوئه

ولا يَظُنُّ المولعونُ باكتناء الحقائق واستشفافِ
الضمايرِ من إخواننا الفضولين أنني أريدُ بذلك مُراعاةَ
النظيرِ بين سَوادِ المِدادِ وسَوادِ الظلامِ ، أو أنني أترقبُ
طلوعَ النجمِ لأنساقَ أشعتهِ إلى سماءِ الخيالِ ، فكلُّ
ذلك لم يكن ، وليس في الناس من هو أذرى بدخيلة

أمرى منى ، وكلُّ ما فى المسئلة أن هذه عادى ، وتلك طريقى ، وكفى

لم أ. كد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شعرتُ
بطنين البعوض فى أذنى ، ثم أحسست بلذاته فى يدي ،
فتفرق من ذهنى ما كان مجتمعاً ، وتجمع من هوى ما كان
مفترقاً ، ولم أر بداً من إلقاء القلم وإعدادِ المدة لمقاومة
هذا الزائر الثقيل

طارده بالمذبة فما أجدى ذلك فعماً لأنه على الطيران
أقوى منى على المطاردة ، وفتحتُ النوافذَ لإخراج ما كان
داخلًا ، فدخل ما كان خارجاً ، وحاولتُ قتله فوجدته
مبعثراً ، ولو كان مجتمعاً فى دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة ،
ولم أر فى حياتى أمةً ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة
البعوض ، فأضغف هذا الانسان وما أصل عقله فى اغتراره
بقوته ، واعتداده بنفسه ، واعتقاده أن فى يده زمام الكائنات
يُصرّفها كيف يشاء ، ويسيرها كما يريد ، وأنه لو أراد

أَن يَذْهَبَ بِنِظَامِ هَذَا الْوُجُودِ، وَيَأْتِيَ لَهُ بِنِظَامٍ جَدِيدٍ، لَمَّا
كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ إِلَّا أَن يُرْسَلَ أَشْعَةُ عَقْلِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً،
وَيُشْعَذَ سَيْفَ ذِكَاثِهِ، وَيَتَمَتَّعَ عَزِيمَتَهُ، وَيَقْتَدِحَ فِكْرَتَهُ
يَزْعُمُ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَوْضَعُ مِنْ أَن يَحْتَالَ لِنَفْسِهِ
فِي مَدَافِعَةِ أَصْغَرِ الْحَيَوَانِ جِسْمًا وَعَقْلًا، وَأَدْنَاهَا قِيَمَةً وَشَأْنًا،
يَتَدَبَّرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ وَفِي فُلْتَاتِ وَهْمِهِ، وَلَوْ عَلِمَهُ عُلَمَاءُ
يَتَغَلَّغُلُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَمَثَّلُ فِي سُؤْدَادِ قَلْبِهِ لَكَفَّكَفَ مِنْ
غُلُوَاتِهِ، وَخَفَضَ مِنْ كِبَرِيَاتِهِ، وَعَلِمَ الْعِلْمَ الْيَقِينَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
الْعَاقِلَ وَالْحَيَوَانَ الْمَلْهُمَّ وَالنَّبَاتَ النَّامِيَ وَالْجَمَادَ الْجَامِدَ سِوَاهُ
يَبِينُ يَدَى الْقُوَّةِ الْإِلَهِيَةِ الْكُبْرَى، الَّتِي لَا يَنْفَعُ مَعَهَا حَوْلٌ
وَلَا قُوَّةٌ

عَلِمْتُ أَنِّي حَيَّيْتُ بِأَمْرِ هَذَا الْحَيَوَانِ، فَلَدَّتْ بِجَانِبِ
الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ كَمَا يَعْلَمُ مَعْشَرُ الصَّابِرِينَ حُجَّةٌ الْمَاجِزِ،
وَحِيلَةٌ الضَّعِيفِ، وَأَيْسَرُ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ بِهِ دَافِعٌ عَنْ
نَفْسِهِ مَلَامَةَ اللَّائِمِينَ، وَفَضُولَ الْمُتَغَلِّظِينَ، وَقَلْتُ فِي قَسَمِي

لو كان البعوضُ يفهم ما أقول لقصصتُ عليه قصتي ،
وشرحتُ له عذري ، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقومُ
فيها بكتابة رسالتِي هذه ، ثم هو بعد ذلك في حِلٍّ من
جسمي ودمي ، ينزلُ منهما حيثُ يشاء ، ويمتنعُ منهما
ما يشاء ، ولكنه وبالأسف لا يسمعُ شكائي ، ولا يرحمُ
ضراعتي ، ولا يفهمُ معنى الرحمة ، ولا يعرفُ قيمة المروءة ،
لأنه ليس بإنسان

أحسبُ أن لنعاتِ البعوضِ قد أخذتُ مأخذًا من
عقلي وفهمي ، وأني قد بدأتُ أهذى هذيانَ الصموم ، فن أُن
لي أن لو كان البعوضُ إنسانًا كان يسمعُ شكائي ، ويكشف
ظلامتي ، أو أنه يفهمُ معنى الرحمة ، ويعرفُ قيمة المروءة ،
ومتى كان الإنسانُ أحسنَ حالا من البعوضِ وأرحمُ منه
لبًا وأشرفُ غايةً ، فأعني أن لو كان مكانه ، بل ومن أين لي أن
هذا الذي أحسبه بموصًا ليس بإنسان فدمتُ تقمصُ جسمَ البعوضِ
وتثلي في صورته الضئيلة وجناحه الرفيق ، وأية غرابة

في أن أنجيل ذلك ما دام الانسان والبعوض سواء في حب الشر، والميل إلى الأذى ، وما دامت الصورة الجنائية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والأجزاء المقتومة للماهية

آية قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الانسان مجتمعا في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفردا
إن البعوض في امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضررا ، وأشرف غاية ، وأجل مقصدا ، لأنه إن أذى الجسم فقد أتى على الحياة ، ولأنه يطلب عيشه ، الذي يحيا به وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف له طريقا سواه ، ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ، ولو استطاع لعامت نفسه أن يكون كالاسان يتطوع للشر ، ويتمدد بالضرر

لاني وجدت بين الاسان والبعوض شبيها ورثيا في صفات كثيرة ، أناذاكر لك طرفا منها ، وتاركه لفطنتك الباقي : —

البعوضُ يمتصُّ من الدم فوق ما يستطيعُ احتمالَه ،
 فلا يزال يشربُ حتى يمتلئ ، فينفجر ، فهو يطلبُ الحياةَ من
 طريق الموت ، ويفتشُ عن النجاة في مكان من الهلاك ، وهو
 أشبهُ شيء بشارب الحجر يتناولُ الكأسَ الأولى منها ، لأنه
 يرى فيها وجهَ سروره وصورَةَ سعادته ، فتطمعه الأولى
 في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلحُّ بالشراب على
 نفسه حتى يلفها ويؤدي بها ، من حيث يُظن أنه يُنعمُ بها ،
 ويجلبُ إليها سرورها وهناءها

البعوضُ سبيُّ التصرفِ في شؤون حياته ، لأنه لا يسقطُ
 على الجسم إلا بعد أن يدلَّ على نفسه بطَبْنِه وضوصائه ،
 فيأخذ الجالسُ منه حذرَه ويدفعه عن مطلبه ، أو يفتك به
 قبل بلوغه إليه ، فثقل في ذلك كمثل بعض الجملة من أصحاب
 المطالبِ السياسية يطلبون المآربَ النافعةَ المفيدةَ لأنفسهم
 ولا منهم غير أنهم لا يكتُمونها ، ولا يُحسنون الاحتفاظَ
 بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلةَ إليها إلا بين الصراخ

والضجيج ، ولا يسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى
يملاؤا الخافقين بذكرها ، وشهدوا الملا الأعلى والأدنى
عليها ، وهنالك يدركُ عدوُّهم مقصِدَهم ، فيعدُّ له عُدته ،
ويتلمس وجه الحيلة في افساده عليهم هادئاً ساكناً من
حيث لا يشعرون

البعوضُ خفيفٌ في وطأه ، ثقيلٌ في لدغته ، فهو
كذلك صاحب النوى يسرك منظره ، ويسوءك مخبره ،
يلقاك بانتسامة هي العذب الزلال ، رقة وصفاء ، والسحرُ
الحلال ، جمالاً وبهاء ، وبين جنبته في مكان القلبِ صخرةٌ
لا تنفنها أشعة الحب ، ولا يتسرب إليها سلسيلُ الوفاء ،
يقولُ لك إني أُحبُّكَ لِيُحبَّبك على طبعك ، ويملك عليك
نفسك ، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنتَ من
ذوى المال ، وجاهك ، ان كنتَ من ذوى الجاه ، فإن لم
تكنْ هذا ولا ذاك أغراك بالسير في طريقٍ يُستقط

مروءتك، ويثلمُ شرفك، فإن فاتته ما يشقى به داء بطنته
لا يقوته ما يُطفىء به نار حقدته وموجدته
لا يزال البعض ملحا في مهاجتي، فلا طاقة لي بكتابة
سطر واحدٍ أكثر مما كتبت والسلام



الجزع

يا صاحب النظرات :

لى صديق سقط فى امتحان (البكالوريا) هذه السنة
فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً فهو لا يتفك با كيا
مثالاً حتى أصبحنا نخافُ عليه الجنون ، وكلما عزيناه من
مُصابٍ يقولُ كيف أستطيعُ معاشرَةَ إخوانى ومعارفى
وكيف أستطيعُ مقابلةَ والدى وأهلٍ لك أيها السيد
أن تعالجَ نفسه بنظرةٍ من نظراتك التى طالما طالجت بها
قلوب المحزونين ؟

(حقوق)

ليستُ المسئلةُ مسئلةُ صديقك وحده بل مسئلةُ
الساقيين أجمعين ، فإن المرء لا يكادُ يتناول نظره منهم
فى هذه الأيام إلا وجوهاً قد نسج الحزنُ عليها غيرةً سوداء ،

وجفونا تحارُ فيها مدامها حيرةَ الزئبقِ الرَّجراجِ حتى ليُخيلَ
إليك أن نارَلةً من فوارلِ القضاءِ قد نزلتْ بهم ، فزلزلتْ
أقدامهم ، أو فاجعةً من فواجعِ الدهرِ قد دارتْ عليهم
دائرُها ، فأثكلتهم ذخائرُ نفوسِهِمْ ، وجواهرَ عقولِهِمْ ،
وأقامتْ بينهم وبين سعادةِ العيشِ وهنائه سداً لا تنفذهُ
المعاولُ ، ولا تنالُ من أيدهِ الزلازلُ

خفضْ عليك قليلاً أيها الطالبُ فالأمرُ أهونُ مما
تظنُّ وأصغرُ مما تقدِّرُ ، واعلمْ وما أحسبُك إلا عالماً أنك
لم تسقطْ من قبةِ جبلٍ شامخٍ إلى سَفْحٍ متحجرٍ فتبكي على
شظيةٍ طارتْ من شظايا رأسك ، ولم يهوَ بك القضاءُ إلى
هُوةٍ عميقة لا خلاصَ لك منها أبداً الدهرُ

إنك قد سمعتَ إلى غرضٍ فإن كنتَ هيأتَ له
أسبابَهُ ، وأعددتَ له عُذَّتَهُ ، وبذلتَ له من ذاتِ نفسك
ما يبذلُ مثله البادلون في مثله ، فقد أعددتَ إلى الله وإلى
الناسِ وإلى نفسك فخريُّك أن لا تحزنَ على مُصابٍ لم

يكن صملا من أعمال يدك ، ولا جناية من جنایات قسك
 عليك ، وإن كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت
 في سبيله مشية الظالم المتعاصي ، فاحزنك على فوات غرض
 كان جديراً بك أن ترقب فوائده قبل وقت فوائده ؟ وما
 بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وموعته قبل يوم
 وموعته ؟

مالك تبكي بكاء الوائس بمواتاة الأيام ، ومطالوعة الأقدار ،
 وهل تستطيع أن نبرز لنا صورة المهد الذي أخذته على
 الدهر أن يكون لك كما نحب وتشتي ، وعلى الفلك أن لا يدور
 إلا بسعدك ، ولا يجري إلا بيمدك ، وعلى القلم أن لا يكتب
 في لوحه إلا ما دلته عليه ، وأوحيت به إليه ؟

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك ، فلعل الأمل يعوض
 عليك في غدك ، ما خسرت في أمسك ، وامنض لسنائك
 ولا تلتفت إلى ما ورائك فإن تم لك في عامك المقبل من
 طلبتك ما أردت فذاك ، أولاً ، فافقدت إذ فقدت إلا ورفه

كان كلُّ ما تستفيدُ منها أن تشتريَ بها قيداً لرجلك ، وغُلا
لِعُنُقِكَ ، ثم ترتبطُ في سجن من سجون الحكومة بجانب
رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومُك من النل
والخسف ما لا يحتمله الأسراة في سجون الآسرين

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك
إياها هذا الاكبار العظيم ، دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها
مُنْتَهَى أملك ، وغاية همتك ، وأنت لا ترى بعدها مزيداً من
الكال لمستزید ، فإن صدقتُ فراسقُ فيك ، فاعلم أن الله
قد خارك في هذا المصير ، وساق اليك من الخير ما لا
تعرفُ السبيلَ اليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكال
الموهوم إلا لتطلبَ لنفسك كمالاً معلوماً ، وما صرف عنك
هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق ، إلا لنسي
وراء الشهادة المكتوبة في صفحات القلوب

إن كنت تبكي على الترف فبابُ الشرف مفتوحٌ
بين يديك لاشأن للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ،

وما هو إلا أن تجد في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال ما يتقصك من الفضائل النفسية ، فإذا أنت شريف في نفسك وفي نفوس الخاصة من الناس ، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حيا الله شرفاً يحيا بورقة ويموت بأخرى ، ولا مجدأ يأتي به سطر ويذهب به سطر ، وإن كنت تبكي على العيش ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة ، رأت أن أوزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين ، وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزائنه إلا إذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير

أيها الطالب : قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء ، إن الذي وهبني عقل لم يسلبني ، وإن الذي صور لي أعضائي لم يحل لي وين الله هاب بها في ما خلقت له ، وإن الذي خلقني سوف يهدين ، انه الرزاق ذو القوة المتين

النبوغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يُقيم لها وزناً،
وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظراً الحيوان الأحمم إلى
الحيوان الناطق، وعندى أن من يخطئ في تقدير قيمته
مُسْتَعْلِيًا، خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا، فإن الرجل
إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأتى لها من أعماله وأطواره
إلا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيراً في علمه، صغيراً
في أدبه، صغيراً في مروءته وهيمته، صغيراً في ميوله وأهوائه،
صغيراً في جميع شؤونه وأعماله، فإن عَظُمَتْ نفسه عظمَ
بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة
ولقد سأل أحدُ الأئمةِ المظاهِرِ ولدَه وكان نجيباً أبةً غايةً
تطلبُ في حياتك يا بُنى؟ وأى رجل من عظماء الرجال تُحبُّ

أَنْ تَكُونَهُ؟ فَأَجَابَهُ أُجَيْبٌ أَنْ أَكُونَ مِثْلَكَ، فَقَالَ وَيْحَكَ يَا بَنِيَّ
لَقَدْ صَغُرْتَ فَفُسُكُ، وَسَقَطَتْ هَمَّتُكَ فَلَتَبِكَ عَلَى عَقْلِكَ
الْبَوَاكِي، لَقَدْ قَدَّرْتُ لِنَفْسِي يَا بَنِيَّ فِي مَبْدِئِ نَشَأَتِي أَنْ أَكُونَ
كَكَلْبِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَأَزَلْتُ أَجِدُّ وَأَكْدَحُ حَتَّى بَلَغْتُ
الْمَنْزِلَةَ الَّتِي تَرَاهَا، وَيْنِي وَيْنِي عَلَى مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ
وَالْمَدَى الشَّاسِعِ، فَهَلْ يَسْرُكُ وَعَدَ طَلَبْتَ مَنْزِلَتِي أَنْ
يَكُونَ مَا يَبْنِيكَ وَيَبْنِي مِنَ الْمَدَى مِثْلُ مَا يَبْنِي وَيْنِي عَلَى؟؟
كَثِيرًا مَا يُخْطِئُ النَّاسُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَصِغَرِ
النَّفْسِ، وَبَيْنَ الْكِبَرِ وَعُلُوِّ الْهَمَّةِ، فَيَحْصِبُونَ الْمَتَذَلَّ
الْمُتَمَلِّقَ الدُّنْيَا مُتَوَاضِعًا، وَيُسَمُّونَ الرَّجُلَ إِذَا تَرَفَعَ بِنَفْسِهِ
عَنِ الدُّنْيَا، وَعَرَفَ حَقِيقَةَ مَنْزِلَتِهِ مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ
مُسْتَكْبِرًا، وَمَا التَّوَاضُعُ إِلَّا الْأَدَبُ وَلَا الْكِبَرُ إِلَّا سُوءُ
الْأَدَبِ، فَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْقَاكَ مَبْتَسِمًا مَهْلِكًا، وَيُقْبَلُ عَلَيْكَ
بِوَجْهِهِ، وَيَصْنَعُ إِلَيْكَ إِذَا حَدَّثْتَهُ، وَيُزَوِّدُكَ مَهْتَاؤًا وَمَعْزَا،

ليس صغيرَ النفس كما يظنون بل هو عظيمها ، لأنه وجد
التواضع أليقَ بِعَظَمَةِ نفسه فتواضع ، والأدبَ أرفعَ
لشأنه فتأدب

فَتَيَّ كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ

ولسكنَ كبراً أن يقالَ به كبر
فاذا بلغ الذلُّ بالرجل ذى الفضل أن يُنكسَ رأسه
للكبراء وتهافت على أيديهم وأقدامهم كما وتقيلا ،
ويتبدلَ بمخالطة السُّوفَةِ والغِوَءِ بلا ضروره ولا سبب ،
ويكثرُ من شتم نفسه وتحقيرِها ، ورميها بالجهل والغباوة ،
ويصيصُ برأسه وهو سائرٌ في طريقه بِصَبْصَةِ الكلبِ
بذنبه ، ويجلسُ في مدارج الطرق وعلى أفواه الدروب جلسةَ
البائس المسكن فاعلم أنه صغير النفس سافطُ الهمة ،
لامتواضع ولا متأدب

إن علو الهمة إذا لم يُخالطه كبيرٌ يزرى به ويدعو صاحبه
إلى التطلع وسوء العشرة كان أحسنَ ذريعةً لتفريعُ بها

الإنسان إلى التبوع في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو أحوَج إلى علوِّ الهمة من طالب العلم ، لأن حاجة الأمة إلى بُوعه أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواء من الصافين والمُحترفين ، وهل الصائمون والمُحترفون إلا حسنة من حسنه ، وأثر من آثاره ، بل هو البحرُ الآخرُ الذي تستقي منه الجداولُ والندران

فيطالب العلم كُنْ عاليَ الهمة ، ولا يكن فطرُك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهزيمة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، أو خرافة من خرافات الجان ، وحذار أن عليك اليأس عليك موتك وشجاعتك فتستسلم استسلامَ العاجز الضعيف وتقول من لي بسلم أصدق عليها إلى السماء حتى أصل إلى فيه الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال

ياطالب العلم أنت لا تحتاج في بلوغك الناية التي بلتها

النايون من قبلك إلى خلقٍ غير خلقك ، وجوٍّ غير جوِّك ،
وسماءٍ وأرضٍ غير ممالكٍ وأرضيك ، وعقلٍ وأداةٍ غير
عقلك وأداتك ، ولكنك في حاجةٍ إلى نفسٍ عاليةٍ كنفوسهم ،
وهمةٍ عاليةٍ كهمهم ، وأملٍ أوسعٍ من رُفعة الأرض ،
وأرحبٍ من صدر الخليم ، ولا يَقَعْدَنَّ بك عن ذلك
ما يهمسُ به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوفاة أو
بالساجدة ، فنم الخلقُ هي أن كانت السبيلَ إلى بلوغ الناية ،
فامض على وجهك ودَعهم في غيهم يمهون

جَنَاحَانِ عَظِيمَانِ يَطِيرُ بِهِمَا التَّعَلُّمُ إِلَى سَاءِ الْمَجْدِ
وَالشَّرَفِ ، عُلُوُّ الْهَمَةِ ، وَالْفَهْمُ فِي الْعِلْمِ ، أَمَّا عُلُوُّ الْهَمَةِ فَقَدْ
عَرَفْتَهُ ، وَأَمَّا الْفَهْمُ فِي الْعِلْمِ ، فَإِلَيْكَ الْكَلِمَةُ الْآتِيَةُ : —

العلمُ علْمَانِ ، عِلْمٌ مَحْفُوظٌ وَعِلْمٌ مَفْهُومٌ ، أَمَّا الْعِلْمُ الْمَحْفُوظُ
فِيَسْتَوِي صَاحِبُهُ فِيهِ مَعَ الْكِتَابِ الْمَرْقُومِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ
أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْحَافِظِ كَلِمَةً ، أَوْ تَقْرَأَ فِي الْكِتَابِ صَفْحَةً ،
فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِمَّا تَسْمَعُ ، فَانْظُرْ إِنْ فَطَقَ الْكِتَابُ

بشرح مُشكلاته ، نطق الحافظُ بتفسير كلماته

الحافظُ يحفظُ ما يسمعُ لأنه قوىُ الذاكرة ، وقوةُ الذاكرة قدرٌ مشتركٌ بين الذكيِّ والنبيِّ والناظرِ والخالقِ ، لأنَّ الحافظةَ ملكةٌ مستقلةٌ بنفسها عن بقية الملكات ، وإنَّك تَرى الشيخَ الفاني الذي لا يميزُ بين الطقولة والمهرم ، والذي يبيكُ على الحلوى بكاءَ الطفلِ عليها ، ويرتدُّ فرقا حينما يسمعُ ابنته تُخيفُ طفلها بأسماء الجن والشياطين ، يسردُّ لك من توارىخ شبيبته وكهولته ما لو دونتهُ لكان تاريخاً صحيحاً ضحكاً مملوءاً بالفرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء إن فلاناً حفظ من البخاري ، فقال لقد زادتُ نسخةً في البلد ، ذلك هو السرُّ العظيمُ في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لأن من فهم معلوماً من المعلومات حقَّ الفهم أشرَبته رُوحه ، وخالط لُحه ودمه ، ووصل من قلبه إلى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بدءاً من العمل به رَضي أم أبى لولا أنَّ العلمَ الدينيَّ قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت

في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدة وبين الردد على أبواب
الأحياء والأموات في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم الممونة
والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين
يحفظون قوله تعالى « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا »
من يسند النفع والضرر إلى كل من سأل لعائيه ، وتمزق
إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضغفاء العزيمة الذين
يحفظون ما ورد على السنة الانبياء والحكماء من مدح
الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا يجد فرقاً بينهم وبين العامة
في ارتكاب المنكرات ، والثفور من الصالحات

لو كان العلم المحفوظ علماً وهو على ما نشاهد ونعلم من
سوء الأثر وقلة الجدوى ما ورد مدح العلم في كتاب ولا
سنة ، ولا قدسه كاتب ، أو ترنم بمدحه شاعر ، فلذا سمعت
ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وإذا أردت
أن تلقب بالعالم فلا تلقب به من يحفظ ، بل من فهم ما يحفظ
وآية فهم المعلوم تأثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته

وترقرقه في شماله ترقرق الصبء في وجه شارها، ولا تثق
 بالحافظ فيما ينقل اليك ، فربما مر بالمعلوم مُحَرَّفًا فأخذه على
 علاته ، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمعُ في حافظته
 بين النقيض وتقيضه ، والفثُ والثمين ، والجيد والرائف ،
 فكان ذا كرتة حانوتُ عطار اختلطت فيها الأدويةُ
 الشافيةُ ، بالمقافير السامةُ

وجله الأمر أن الحافظَ البحت لا رأى له في مبحث
 فيستلُ عن منهج ، ولا أثرَ لمعلوماته في نفسه فيقتدى
 به ، ولا ذوقَ له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله

أما العلمُ المفهومُ فهو الوسطة التي إذا جمع المتعلمُ بينها
 وبين علوِّ الهمة طار إلى المجدِ يحنَّاجين ، وكان له سبيلٌ
 مختصرٌ إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين ، والعلمُ سلسلةٌ
 طويلةٌ طرَّفاها في يدي آدمَ أبي البشر وإسرافيلَ صاحبِ
 الصور^(١) ومسائله حلقاتٌ يصنع كلُّ نابغةٍ من النوانغِ

(١) للراء أن العلوم لا يتم تدريسها ولا تنحصر مسائلها ما دلت القولَ بمسألة
 مسلسل دلت منها من ليله الدنيا إلى انتهائها

في كل عصرٍ من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبده، وأنس به أنس العاشق بمشوفه، ولم ينظر إليه نظر التاجر ليسلته، والمحترف لحرفته، فالتاجر يجمع من السلع ما ينفق سوقه، لا ما ينافي جوهره، والمحترف لا يهيمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بترقب المناصب وحساب الرواتب، وسوق الآمال، وراه الأموال، كما لا يزور قلباً مقسماً بين تصنيف الطرّة، وصقل الفرّة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام، بالكأسين كأس المدام، وكأس الغرام

البائسات

زرتُ منذُ أيلم حاكمَ بلدةٍ في منزله فرأيتُ بين يديه
فتاةً في الثانية عشرة من عمرها بائسةً عليه ، تشكو ألماً
في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ؛ وهما في نفسها وتدير
في الحاضرين عيوناً حائرةً مضطربةً كأنهما هي مركبةٌ على
زئبق رجراج ، فسألت ما شأنها ، فسلمتُ أن أهلها زوجوها
وهي في هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشٍ
الخلق والخلق ثم زفوها إليه فحاول أن يفرشها وهي على
حالة لا نستطيعُ معها أن تلم بفراشٍ فامتنتُ عليه ، فأراد
اغتصابها فمجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره
في جسمها ، فقرتُ منه إلى منزلِ أهلها فتقيموا منها هذا
الإباه الذي سمّوه بلادةً وغفلةً وأعادوها إلى منزل زوجها

كما يصاد المحرم الفار من سجنه إليه مرة أخرى ، وهناك
عاد زوجها إلى مائة منها ، فعادت هي إلى فرارها ، فعاد
أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعيياها الأمر خرجت
إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً
ولا مستقراً حتى رُفِعَ أمرها إلى ذلك الحاكم فأمر باستدعائها
وأواها في منزله لينظرها من ذلك الموقف الذي كانت فيه
بين ذراعي وَجَبَةِ الأسد ، وما فرغ من هذه القصة حتى
رُفِعَتْ إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع
وجوهها إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجته عن نفسها
وسقاها غدراً فمقرها كما عقر شق ثمود ناقتة من قبل

إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقاؤها
و يؤمها إلا جهلها وضعف مداركها

إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا
تجد بين يديها سلة تتجرب بها وتمتات منها إلا قلب الرجل .
فإن استطاعت أن تمتلك عاشت عيشاً رغداً ، أو لا ، فلا

مقرّ لها من الشقاء من المهد إلى اللحد

ودون امتلاكها هذا القلب المقاسى المتحجر أهوال
عظام وعقبت جسم لو كاف الرجل نفسه على ما به من قوة
وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس
والاستسلام

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء كان ذلك على تقدير
الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تبتك
الفتاتين استنقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على
المضنة والجرعة، والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم
وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها
شيئاً وودّوا لو طلع عليهم وجه الخاطب أى خاطب كان
يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم، وقلوبهم من
القسوة، وهذه منزلة فليات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن
بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، أو يحسنوا
الاختيار لها حين يختارون

فاذا دخلت هذا المنزل الجديد الذى لا تعرفه ، ولا
تعرف شأننا من شؤون أهله دخلت فى دور الجهاد العظيم
بينها وبين قلب الرجل

فان كانت ذلتَ جمال أو مال فقد استوتقت لنفسها
وأمنت آلام الهجر وبغائع التخليق ، وإلا فهي تقاسى كل
صباح ومساء فى الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال
المصنوع ، آلاماً جثمانية تطفى نور شبيبتها ، وتذبل زهرة
حياتها ، وتلاقى فى سبيل مُصانعة الزوج ومداراته والبكاء
فى موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام فى موضع البكاء
إن بكى ، ما يحملُ أخلاها فضاء مملوء بالالكنب والكيد ،
والحبث والرياء ، وهى فوق ذلك تنتظر من فم زوجها فى كل
ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الاعدام
ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازى ، فما
أنسى لا أنسى ليلة زرت فيها صديقا لى فرأيت عند باب
منزله امرأةً بالسة ليس وراء ما بها من الهم غاية ، وكأنما
هى الخلال رقة وذُبولا ، ووراءها صبية ثلاث يدورون

حولها ويُجاذبونها طرفَ رداثها، فتُسبِلَ فضلَ مَنزَرِها على ما قُبِها المقرَّحة رَافَةً بهم أن يلموا ببعض شأنها فيكفوا لبكائها، فسألها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة، من زوجها وأن يدها حكما من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإدارة » تَماطلها في إقفاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة، ومعالجة القوت ما أسألَ شؤوتنا، وصعدَ زفرائنا، وأمسكنا له أكبادنا خشية أن نَصَدَّعا

نخففتُ أنا وصديقي شيئا من آلامها فانصرفت، وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمي دماغية فسألنا عنها فلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شبيدة الزوجية الفاسدة

أيها الرجل : إن كنت تعتقدُ أن المرأة لإنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فلمنْها كيف تأكلُ لقمَتَها من حرفةٍ غير

هذه الحرفة النكدة ، وإلا فأحسِن إليها وارحمها كما ترحم
كلبك وشاتك

إن كنت زوجاً فلا تطردّها من منزلك بعد أن تلغى
مأربك منها كما تصنعُ بنعك التي تلبسها ، وإن كنت
أباً فلهذه فِلذةٌ كبدك فلا تضيق بها ذرعاً ، ولا تُلقِ بها
في جحرٍ وحشٍ صارٍ يأكلُ لحمها ، ويمتصُّ دَمَها ، ثم يُلقي
إليك بعظامها

ويأبها المحسنون : والله لا أعرفُ لكم باباً في الإحسان
تنفذون منه إلى صفو الله ورحمته أوسعَ من بابِ الإحسان
إلى المرأة

علموها لتجملوا منها مدرسةً يتعلّم فيها أولادُكم قبل
المدرسة ، وادّبوها لبناً في جحرها المستقبل العظيم .
للوطن الكريم

﴿ فهرس الجزء الأول من النظرات ﴾

صفحة	صفحة
٢١٦ القصة للبيضاء	٣ المقدمة
٢٢٢ الصياد	٥ كسبا القند
٢٣٩ الانتحار	٩ كسبا السكاس الاولى
٢٤٨ الجبال	٢٨ القديس الصليب
٢٤٢ الكذب	٨٥ مناجاة القمر
٢٤٥ عرفة الاحرار	١٠٠ كسبا أين القصيدة
٢٥٦ الصرف	١٠٦ كسبا المعنى والغير
٢٦٢ الحب والرواح	١٠١ مدينة السادة
٢٧٠ الاسلام والمسيحية	١١٤ أيها المحزون
٢٨٦ أهواء أم عراء	١١٦ الى الدبر
٢٨٩ الروحانيات	١٢٤ الرحمة
٢٩٩ في سبيل الاحسان	١٣٣ رسالة العيران
٣١١ أدب المناظرة	١٥ عزة البحر
٣١٧ الاحسان في الرواح	١٦٢ أفسدك قومك
٣٢٤ لاهجية في الاسلام	١٦٦ الصديق والكذب
٣٣٠ الخيال	١٨ الظالمون
٣٣٩ المعوص والاسان	١٨٣ الحرية
٣٤٧ الخنزير	١٨٥ عزة المحبرة
٣٥٢ السوء	١٩٤ الاوصاف
٣٦١ اللغات	١٩٦ كسبا المدينة العربية
﴿ تم المهرس ﴾	٢٤ يوم الحساب

2375

SIA

2375

SIA